

قامت اللجنة بعمل التصويبات المطلوبة

المترق
عبد الباقط ابراهيم بلبول

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى بمكة المكرمة ٦٤١٦/٦/٦

كلية الدعوة وأصول الدين

الدراسات العليا

قسم الكتاب والسنة

منهج سيد قطب

في ظلال القرآن

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

تأليف الطالبة

أسماء بنت عمر حسن فهد عقي

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

عبد الباقط إبراهيم بلبول

المجلد الأول



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٢٥٣٦

١٤١٦ هـ

١٠٠١٣٠

١٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سید علی حسینی
۱۴۱۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، والصلاة والسلام على أشرف المعلمين ، وأكرم المرشدين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فكتاب « في ظلال القرآن » للأستاذ سيد قطب رحمه الله من الكتب المعاصرة المعينة على فهم القرآن الكريم والمهتمة بدراسة نواح عديدة فيه ، أحببت أن ألقى عليه بعض الضوء بدراستي هذه ، والتي ملخصها ما يأتي :

أولاً : ذكرت أسباب اختياري للموضوع ، ومن ثم التعريف بالتفسير ، وبيان تطوره في العصر الحديث .

ثانياً : ذكرت أحوال العصر الثقافية التي نشأ فيها المؤلف ، وبيئته التي ترعرع فيها ، وحياته وثقافته وجهوده العلمية ومؤلفاته ثم وفاته .

ثالثاً : بينت اهتمام المؤلف بالتفسير المأثور ، وطريقة عرضه للواقع التاريخي .

رابعاً : تحدثت عن تركيزه على الوحدة الموضوعية في السورة ، وعن اعتماد المؤلف على التصوير الفني ، ودلالته وألفاظه فيه .

خامساً : تناولت بيانه وتوضيحه للعبير المستفادة من الآيات والقصص .

سادساً : تحدثت عن اهتمام المؤلف بالإصلاح الاجتماعي ، وذكرت مبادئ الإصلاح وهي القرآن والسنة ، والعقيدة ، والتشريع ، والأخلاق ، ثم تحدثت عن الشبه الموجهة للظلال وصاحبه ، وأخيراً كانت نتائج البحث والتي من أهمها :

- 1- دعوة المسلمين لتطبيق القرآن في واقعهم المعاصر الحديث ليصلح مجتمعهم الإسلامي ، ودعوتهم للسير على خطى الأجداد الصالحين ، من الصحابة والتابعين .
 - 2- بيان أن تطبيق التشريعات والأحكام والأوامر الإسلامية له آثار اجتماعية فاضلة كما أن فيه مصلحة للعباد
 - 3- تصوير العواطف والانفعالات أثناء عرض القصص القرآني وجعل القارئ يعيش في الجو القرآني المؤثر .
 - 4- إظهار عظمة الخالق في خلقه للإنسان وقدرته جل وعلا على إعادته للحياة يوم البعث .
 - 5- تناول بعض القضايا والمسائل التي تهم الدعاة العاملين ، هذا بالنسبة للمحسن ، أما المأخذ فأهمها :
- 1- إظهار موقفه من بعض الروايات الصحيحة كتقديم غيرها عليها ، وعدم التزامه بالتخريج الحرفي لمتن الحديث الصحيح .

- 2- الإكثار من استعمال المصطلحات الفنية مثل (التصوير ، الفن ، النغم ، الإيقاع ، الموسيقى) .
 - 3- الاستطراد والتطويل كحديثه عن الحاكمية والجاهلية والعزلة والمفاصلة ، وعن واقع العرب قبل الإسلام .
- وأعتقد أن المتفق عليه وما يشدنا للظلال يتمثل في أمور هي :

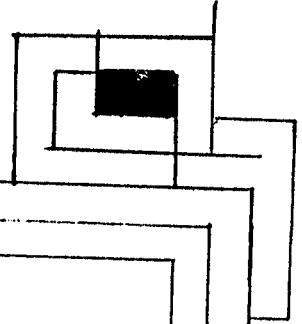
- 1- السهولة والوضوح .
 - 2- تبسيط المسائل العلمية .
 - 3- الأسلوب المشوق الجذاب .
 - 4- التكرار .
- وهذه الأمور كما نعلم تساهم مساهمة كبيرة في تثبيت المعاني في النفوس ، وجعلها ماثلة في الأذهان .
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عميد كلية الدعوة وأصول الدين
د . عبد الله عمر الدميحي

المشرف على الرسالة
د . عبد الباسط إبراهيم بلبول

مقدم من الطالبة
أسماء بنت عمر حسن فدعق

شكر وتقدير



بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شاء من شيء بعد هو أهل الثناء ، والحمد والمجد ، أحمدته سبحانه أولا وأخيرا ، وأصلى وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبينا الحبيب ومرشدنا الكريم ، ومعلمنا الجليل ، جزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

وأنتقدم بشكري وتقديري بعد ذلك لكل من بذل جهده في تعليمي وكان له فضل في ارشادي ، وتوجيهي من مدرسات كريمات ، وأساتذة أفاضل وأخص بالشكر استاذي المشرف على هذه الرسالة فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الباسط بلبول ، فقد كان موجها ومرشدا ومعلما ، أحاطني برحابة صدره وحلمه وتشجيعه ، وأعطاني من علمه الغزير ووقته الثمين الشيء الكثير ، فجزاه الله عني ، وعن طلبية العلم خيرا ، وأطال في عمره ومنحه من خيري الدنيا والآخرة ، انه سميع مجيب .

ثم أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني لوالدي العزيزين الكريمين اللذين لم يألوا جهدا وحرصا على الاهتمام بحصولي على أكبر قدر من العلم والفهم ، والخلق القويم حيث وفرا لي كل سبل

(٤)

اتمام هذا البحث المتواضع حفظهما الله تعالى ، وأطال عمرهما في طاعته ، وأمدهما
والمسلمين بالعمو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

وأتقدم بخالص الشكر وأطيبه الى جامعة أم القرى وعلى رأسها فضيلة
الدكتور راشد الراجح - مدير الجامعة - ، كما أشكر عمادة كلية الشريعة
وإدارة الكلية ، وعمادة كلية الدعوة وأصول الدين وإدارة الكلية وعلى رأسها
فضيلة الدكتور علي بن نفيح العلياني - عميد الكلية - ، فقد هيات لنا الجامعة
وإدارتها الدراسات العليا للحصول على الدرجات العلمية التي تفيد الطلاب
والطالبات فجزاهم الله أحسن الجزاء .

كما لا يفوتني أن أتقدم بشكري الى كل من الأساتذة الكرام الدكتور
الشريف منصور بن عون العبدلي ، والدكتور عويد بن عياد المطرفي
والدكتور أحمد أحمد غلوش ، وكل من مد لي يد العون والمساعدة من أقرباء
أعزاء ، وأخوات حبيبات حتى تم هذا البحث على هذه الصورة .

والله أسأل أن يوفق الجميع الى ما يحبه ويرضاه وأن ينفعنا بما علمنا

ويزيدنا علماً أنه سميع مجيب .

المقابلة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة :

=====

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً
نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء
ما شاء من شيء بعد ٠٠٠٠

نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن
سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلقه ، وأفضل مبيّن ومفسر
من عباده ٠٠ الذي أرسله تبارك وتعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى
الله باذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ٠

وبعد :

فقد تفاوتت الصحابة رضوان الله عليهم في تدبر القرآن الكريم
وإدراك معانيه بحسب سليقتهم العربية ، وربطوا بين تلاوته وفهمه ، وعاشوا
نصوصه بكل وجدانهم ، ووعوه بكل عقولهم ، وترجموا تعاليمه في سلوكهم
فترة حياتهم ، وحينما كان يخفى عليهم شيء منه يرجعون إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليبينه لهم ، لقوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (١)

ثم توالت الجهود العلمية - من بعدهم - التي بذلت في الاهتمام بدراسة القرآن الكريم وفهمه والاستقامة على العمل به ، وكشف أسرارهِ ، فلم يدع العلماء موضوعاً يتعلق بالكتاب العزيز الا وتناولوه بحثاً وتمحيصاً وألّفوا في ذلك المؤلفات القيمة العديدة ، فبعضهم كتب في رسمه ، وبعضهم في استنباط أحكامه ، ومنهم من ألف في أسباب نزوله ، ومنهم في اعرابه ومنهم في تناسب سورهِ ، والكثير منهم ألف في تفسيره ، وتسايقوا في ذلك حتى ازدحمت المكتبة الاسلامية بتراث عظيم من كتب التفاسير على اختلاف مذاهبها ، وألوانها ، ومن الكتب الاخرى المعاصرة المعينة على فهمه مثل كتاب " في ظلال القرآن " فهو كتاب طيب مفيد من الكتب المعاصرة التي اهتمت بدراسة نواح عديدة في القرآن الكريم ، كما أنه تميز عن غيره من الكتب بأسلوبه الادبي - السهل الممتنع - فأحببت أن ألقى بعض الضوء عليه بالاضافة الى وجود بعض النقاط التي كانت أسباباً في اختياري هذا الموضوع ، والمتمثلة فيما يأتي :

- (١) أخذ الكتاب مكانة بارزة عند معظم المسلمين في العصر الحالي .
- (٢) حظى باهتمام بالغ لديهم للوسائل المهمة التي اعتمدها صاحب الظلال " الاستاذ سيد قطب " في كتابه : من ثقافته المنوعة ، ومن

حسه المرهف ، ومن تجربته العلمية ، ومن أسلوبه الأدبي البليغ
ومن معرفته بأحوال العالم المعاصر ، ومن نظريته حول التصوير (الفنى)
في القرآن .

(٣) صاغ المؤلف - الاستاذ سيد - ماهو موجود في كتب التفسير القديمة
التي يصعب أسلوبها في الغالب - على أهل هذا العصر - بأسلوب أدبي
مسترسل تتقبله عقول أهل هذا العصر .

(٤) قسّم السورة الواحدة الى دروس ومشاهد وصفية استخلص منها العبر
وحاول ربطها بالواقع وتطبيقها عليه .

(٥) استغل معاني آيات الكتاب العزيز في جميع المواضيع التي تناولها
وحاول أن يصل الى اسباب القوة التي ساد بها المسلمون في حياتهم الاولى
- والتي من أهمها التصاقهم بعقيدتهم وتفاعلهم فيها^(١) - وأسباب
الضعف التي وهنوا بها في تلك العصور .

فأحببت لذلك كله الاطلاع على منهج المؤلف - سيد قطب رحمه الله -
الذي سار عليه في كتابه ، ودراسة هذا المنهج واستخلاص النتائج منها ،
ومن ثم بيان بعض ما نسب الى صاحب الكتاب ، وكتابه (الظلال) والرد
على ما نسب اليه .

(١) انظر على سبيل المثال المجلد الاول من الظلال : ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،

والمجلد الثاني : ص ١٠٤٦ ، ١٠٥٩ ، والثالث : ص ١٥٧٠ ، ١٥٧٨ .

* واتبعت منها في دراسة هذا الموضوع على النحو التالي :

- (١) أخذ المعلومات من مصادرها الاصلية .
 - (٢) ترجمة لحياة المؤلف من كتبه ، ومن كتب معتمدة أخرى .
 - (٣) تخريج كل الاحاديث التي صادفتني الواردة في البحث من أصولها .
 - (٤) ترجمة الاعلام الذين وردوا في بحثي فيما عدا المشاهير منهم .
 - (٥) مقارنة بين تفسير الظلال وبعض التفاسير الاخرى كتفسير الطبري ، والقرطبي وابن كثير ، والالوسي وغيرهم .
 - (٦) الرجوع الى كتب اللغة لبيان معنى كل كلمة تحتاج الى توضيح .
- ولا يخفى أن ذلك كله يحتاج الى جهد ووقت طويل بالاضافة الى بعض الصعوبات التي واجهتها من عدم توفر الكتب المهمة بين يدي كالكتب الخاصة بحياة المؤلف ، ومن عدم استطاعتي التنقل بحرية من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد للحصول على أمثال هذه الكتب .
- هذا وقد علمت مؤخرًا عندما قاربت على الانتهاء من بحثي أن الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي كتب عن الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - وعن الظلال ، فاطلعت على ما كتبه فوجدت أن ما سار عليه يختلف عما كتبه :
- (١) فهو قد كتب في الجزء الاول : عن سيد قطب في سطور ، وعن صلتته بالقرآن ، قبل الظلال ، ثم تحدث عن كتب التفسير في مصر في العصر الحديث .

ثم وضح أهداف الظلال ، وما الذى اعتمده من مصادر ووسائل فيه ، ثم

تحدث عن الفروق بين طبعات الظلال .

وتحدثت في التمهيد للبحث عن نقطتين :

✱ الاولى : متضمنة لسبب اختيارى للموضوع .

✱ والثانية : تعريف بالتفسير ، وبيان تطوره في العصر الحديث .

(٢) وتحدث في الجزء الثانى عن منهج سيد قطب في التفسير ، وبيّن قواعده

هذا المنهج التى منها المقاصد الاساسية للقرآن ، وبيان المهمة العملية

الحركية للقرآن ، وغنى النصوص بالمعانى والدلالات ، وبيان أهميـة

العقيدة ، وأثرها ، والوحدة الموضوعية للقرآن والبعد الواقعى

لنصوص وعموم دلالتها ، وبيان حكمة التشريعات وتعليل الاحكام

وغير ذلك ، ثم تحدث الدكتور الخالدى عن طريقة سيد قطب في التفسير

وعرضه لبعض موضوعات علوم القرآن ، وموقفه من بعض موضوعات التفسير

كالسيرة النبوية ، والاقوال المأثورة والاسرائيليات وغير ذلك .

وكتبت في الباب الاول عن أحوال العصر الثقافية التى نشأ فيها المؤلف

وعن بيئته التى ترعرع فيها ، ثم تحدثت عن حياته وثقافته وجهوده

العلمية ، وما خلفه من مؤلفات .

(٣) وتحدث في الجزء الثالث عن :

أ - منهج الاستاذ سيد قطب فى أخذ العقيدة وموقفه من علم الكلام .

ب - المصطلحات التى ذكرها في الظلال والنتيـن معنى كل من الالهية

والربوبية ، الحاكمية ، الجاهلية ، العزلة والمفاصلة .

جـ - الشبهات التي اثيرت حول الظلال وصاحبه ، كتهمة تكفير المسلمين وموقفه من الفقه الاسلامى .

د - وعن سمات الظلال من الواقعية والجدية وبيان دور الانسان ، ومركزه والاستشهاد للنص بالواقع التاريخى وعرض النعم بمنظار جديد

وغير ذلك .

وقد لاحظت أن الدكتور صلاح الخالدى - كان يسهب ويسترسل في بعض الموضوعات ويعطى أمثلة عديدة من الظلال .

وتناولت أنا في الباب الثانى بيان اهتمام المؤلف بالمأثور فى التفسير بعد التعريف به ، وتحدثت عن تركيزه على الوحدة الموضوعية في السورة ، وعن اعتماد المؤلف على التصوير الفنى ودلالاته ، وألفاظه فيه .

ثم تناولت بيانه وتوضيحه للعبير المستفادة من الآيات والقصص .

وأخيرا اهتمامه بالاصلاح الاجتماعى ، وكنت اکتفى بالاستشهاد على كل أمر من هذه الامور بثلاثة أمثلة من الظلال ، وأشير الى موضعها منه .

هذا بالنسبة للشكل العام أما بالنسبة للتفصيلات فأذكر من الفروق على سبيل المثال :

٢٥٢٦



✳ أولا : اهتمام الاستاذ سيد بتفسير القرآن بالقرآن في تفسيره بالمأثور:

- وفيه بينت أن ما استطعت معرفته من ذلك يتمثل في ثلاث نقاط :
- (١) تفسير بعض موضوعات السورة الرئيسية بآيات يجمعها من نفس السورة تكون مرتبطة تماما بالمعنى المراد ايصاله وتوضيحه .
- (٢) تفسير بعض آيات السورة بآيات من سور أخرى لها ارتباط كبير بنفس معانى الآيات المراد تفسيرها .
- (٣) وتفسير بعض السور بدون استعانة بآيات من سور أخرى .
- أما الدكتور الخالدي فقد ذكر أن الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - كان حريصا على تفسير القرآن بالقرآن ، وقال : " والامثلة على هذا كثيرة جدا فى الظلال (١) . " وذكر نماذج من تلك الامثلة ، وكانت مختلفة عن النماذج التى ذكرتها .

✳ ثانيا : طريقة المؤلف في عرضه للواقع التاريخي:

- وفيه كتبت عن طريقة عرضه للواقع التاريخي ، ويتمثل في اربع نقاط هي :
- (١) أنه كان يجمع الواقع التاريخي للمجتمع وقت النزول .
- (٢) يؤيد هذا الواقع بالاحداث المروية في كتب السيرة والتاريخ الدالة على وجود هذا الواقع .

(١) انظر المنهج الحركي في ظلال القرآن ص ٢٦٠ ، ٢٦٢

- (٣) يربط هذا الواقع بالآية أو بالآيات .
- (٤) يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة .
- وضربت لذلك مثالين من سورة الاحزاب ومن سورة البلد .
- أما الدكتور الخالدي فقد ذكر أن الاستاذ سيد - رحمه الله - استخدم في اثبات صحة الحوادث التي عرض لها القرآن ، وسيلتين :
- * الاولى : الروايات التاريخية البشرية ، وهذه ليست قطعية .
- * والثانية : هي العقل ، فهو يتلقى عن المصدر الموثوق الذي يطمئن اليه كما أنه رحمه الله فرق بين تاريخ الاسلام وتاريخ المسلمين .
- ثم أورد الدكتور الخالدي أمثلة من الظلال لاستشهاد الاستاذ سيد رحمه الله بالواقع التاريخي وتفسير النصوص القرآنية به . (١)

* * *

(١) انظر في ظلال القرآن في الميزان للدكتور الخالدي ص ٣٥٠ : ٣٥٢

خطة البحث

وكانت خطة البحث تتمثل في النقاط التالية :

- (١) تمهيد : ويشتمل على :
 - * مقدمة متضمنة سبب اختيار الموضوع .
 - * تعريف بالتفسير وبيان تطوره في العصر الحديث .
- (٢) الباب الاول : ويشتمل على فصلين :
 - * الفصل الاول : في بيان أحوال العصر الثقافية والبيئية التي نشأ فيها المؤلف .
 - * الفصل الثاني : في حياة المؤلف وثقافته وجهوده العلمية .
- (٣) الباب الثاني : وفيه خمسة فصول :
 - * الفصل الاول : الاهتمام بالمأثور في التفسير .
 - * الفصل الثاني : التركيز على الوحدة الموضوعية في السورة .
 - * الفصل الثالث : اعتماده على التصوير الفني ودلالاته .
 - * الفصل الرابع : العبر المستفادة من الآيات والقصص .
 - * الفصل الخامس : الاهتمام بالاصلاح الاجتماعى .
- (٤) ثم الخاتمة : وتتكون من :
 - * أهم الشبه الموجهة للمؤلف والردود عليها .
 - * نتائج البحث .

وانى لارجو الله تعالى أن يتقبل عملى هذا الذى قمدته لوجهه
الكريم كما أرجوه أن يكون فى هذا البحث الذى اجتهدت فيه وأخلصت
الهداية والرشاد . فان كان كذلك فله الحمد ، فهو بفضلته وتوفيقيه
وهو الذى علم الانسان ما لم يعلم ، وان وجد فيه تقصير فالكمال لله
والحمد لله فى الاولى والآخرة .

التمهيد

ويشتمل على

* المبحث الأول : التعريف بالتفسير.

* المبحث الثاني : اهتمام العلماء بالتفسير

المبحث الأول

التعريف بالتفسير



المبحث الأول

التعريف بالتفسير

حيث أنني بصدد بيان معنى التفسير فإنه يجدر بي
أن ألم المامة سريعة بتعاريف بعض الكلمات وهى
الفهم - والتأويل - والتفسير - وبالله الاستعانة .

جاء في لسان العرب : الفهم معرفة الشيء ، تقول : فهم بمعنى
(١)
علم ، كفرح فهما باسكان الهاء وتحرك الهاء بالفتح وهو الافصح :

وجاء في الرائد أيضا نفس المعنى وهو أن فهم يفهم فهما
(٢)
بمعنى : علمه وعرفه بقلبه وأحسن تصوره .

وفي دائرة المعارف نفس المعنى لكلمة فهم وهو العلم والمعرفة
بالقلب مع زيادة أن الفهم إنما يتعلق بالمعاني لا بالذوات ، فيقال
(٣)
فهمت الدرس وعرفت الرجل .

والذى يهمننا من كلمة الفهم أنها تفيد معنى البيان والتوضيح
للمعاني التى فى القلب ، تقول : أفهمه الأمر وفهمه اياه : جعله يفهمه
(٤)
كما ورد فى اللسان وتاج العروس .

-
- (١) لسان العرب ، المجلد الثانى : ص ١١٤١ ، القاموس المحيط مادة (فهم) .
(٢) الرائد : ج ٢ ص ١١٣٥ .
(٣) دائرة المعارف : م ٧ ص ٥٤٠ .
(٤) لسان العرب ، ج ٢ ص ١١٤١ ، تاج العروس ، ج ٩ ص ١٦ .

وأما التفسير فمعناه : البيان وكشف المغطى (١) وفسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا وفسره : أبانه . (٢)
 وجاء في المعجم الوسيط : فسر الشيء وضحه . (٣)
 كما جاء التفسير بمعنى البيان أيضا في الصحاح . (٤)
 فكان أصحاب اللغة " على رأى الزركشي " اتفقوا على أن التفسير هو البيان والاظهار وكشف المغطى ، وكأنهم رأوا أن المفسر انما يكون عمله الكشف عن شأن الآية ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه . (٥)

المعنى الاصطلاحي للتفسير :

إذا تتبعنا أقوال العلماء في حد التفسير وجدناهم قد عرّفوه بتعاريف كثيرة يمكن رجوعها كلها الى واحد منها لأنها وان اختلفت من جهة اللفظ ، فقد اتحدت من جهة المعنى وما تهدف اليه .
 فقد عرّفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها ، وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت لذلك . (٦)

-
- (١) القاموس المحيط : ج ٢ ص ١١٠ .
 (٢) لسان العرب : ج ٢ ص ١٠٩٥ .
 (٣) المعجم الوسيط للمعجم اللغوي ، وشارك في اخراجه د . ابراهيم انيس د . عبد الحليم منتصر ، عطيه الموالحي ، محمد خلف الله أحمد : ج ٢ ص ٦٨٨
 (٤) الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عطار : ج ٢ ص ٧٨١ .
 (٥) البرهان في علوم القرآن : ج ٢ ص ١٤٧ .
 (٦) البحر المحيط : ج ١ ص ١٣ - ١٤ .

وعرفه الزركشي بأنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه . (١)

وذكر صاحب مناهل العرفان أن : " التفسير علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية " (٢) ، ولقد أشار صاحب البرهان الى تعريف عزاه الى بعض العلماء وهو علم نزول الآيات وسورها وأقسامها والاشارات النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيا ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها . (٣)

وزاد في الاتقان : وحلالها وحرامها ، ووعدتها ووعيدها ، وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها . (٤)

فتعريف أبي حيان الذي شرحه وضمنه بعض العلوم اللازمة للتفسير تعريف توسط فيه غير أنه لا يعتبر جامعا مانعا لأنه لم يصرح بغرضين هامين نزل لهما القرآن وهما :

- (١) كونه كتاب هداية بيعة لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين الدنيوية والأخروية .
 - (٢) كونه كتابا سماويا معجزا لا يستطيع أحد الاتيان بمثله أو بأقصر سورة منه .
- اما تعريف الزركشي فقد تضمن هذين الغرضين ، كما أنه أوضح وأيسر من تعريف أبي حيان ، ومن التعريف المطول المذكور في الاتقان ، والذي نسبه الى بعض العلماء .

(١) البرهان : ج ١ ص ١٣ .
 (٢) مناهل العرفان : ج ١ ص ٤٧١ .
 (٣) البرهان : ج ٢ ص ١٤٨ .
 (٤) الاتقان : ج ٢ ص ٢٢٢ .

وبالنسبة لتعريف الزرقاني فانه وان كان موجزا الا أنني أراه جامعا مانعا
فهو حينما ذكر أنه علم يبحث فيه عن القرآن الكريم ، أدخل الغرضين
الهامين وأثبتهما ، وهما كونه كتاب هداية وكونه معجزة خالدة ، ومنع من
دخول العلوم التي تناولت موضوعات خارجة عن القرآن كالفلسفة والحساب والنحو والكيمياء
والجغرافيا وغيرها .
وحيثما قال : " من حيث دلالاته على مراد الله فانه قمد بذلك توضيحه
وتفسيره سواء أكان تفسيراً بالمأثور أم بالاجتهاد والرأى المقبول ، وأخرج العلوم
الأخرى التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالاته كعلم القراءات الذى
يضبط ألفاظه ، وعلم الرسم العثماني الذى يبين كيفية كتابته ، وعلم الكلام
الذى يخوض في مثل كونه مخلوقاً أو غير مخلوق ، وعلم الفقه الذى يبحث عن
أحواله من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها .
وهو حينما قال : " بقدر الطاقة البشرية " أبان أن هذا قيد لا بد منه
لأنه لا يمكن القطع في كثير من آياته بأن هذا مراد الله تبارك وتعالى .
وبعد ، فهذه التعاريف الاصطلاحية وان اختلفت فاختلفت جزئي بسبب
ولكنها على العموم تتفق على أن علم التفسير هو علم يبحث في القرآن الكريم
من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل
ما يتوقف عليه بيان المعنى وفهم المراد .
وأرى كذلك أن بين التعاريف الاصطلاحية والمعاني اللغوية علاقة ظاهرة
تدور على معنى التبيين والتوضيح واطهار المراد ، ومهما يكن من شيء فقد اشتهر
أن التفسير اعلم من أن يكون بالمأثور أو بالرأى والاجتهاد ، وأعم من أن يكون
متعلقاً باللفظ أو بالمعنى .

ولا يزال العلماء قديما وحديثا يولون كتاب الله عز وجل عناية فائقة
من حيث التفسير بالمأثور أو بالرأى المقبول حسب طاقتهم البشرية .

أما بالنسبة لكلمة التأويل ، فالتأويل مأخوذ من الأول : وهو الرجوع
قال في القاموس : آل اليه أولا ، ومآلا رجوع وعنه ارتد ، ثم قال : وأول الكلام
تأويلا وتأويله : دبره وقدره وفسره . (١)

وجاء في لسان العرب قوله : " الأول الرجوع ، آل الشيء يؤول أولا ومآلا
رجع . ثم قال : وأول الكلام وتأوله دبره وقدره ، وأوله وتأوله : فسره (٢)
كما ورد في قطر المحيط أن المآل المرجع والنتيجة ومآل الكلام مفاده
وفحواه . (٣)

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع ، وهذا باعتبار
أحد معانيه اللغوية ، فكأن المؤول أرجع الكلام الى ما يحتمله من المعاني .
وذكر الفيروز أبادي : أن التأويل مأخوذ من الايالة ، وهي السياسة ، يقال
آل الأمير - أو الملك - رعيته أى ساسها وأحسن رعايتها . (٤)

والتأويل في الاصطلاح عند السلف له معنيان :

أحدهما :

تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء أوافق ظاهره أم خالفه ، فيكون التأويل

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي : ج ٣ ص ٣٣١

(٢) لسان العرب : المجلد الأول : ص ١٣٠

(٣) قطر المحيط لبطرس البستاني : ج ١ ص ٦٠

(٤) القاموس المحيط : ج ٣ ص ٣٣١ .

والتفسير على هذا مترادفين (١). وهذا ما فهمه مجاهد (٢) وما كان يعنيه ابن جرير بقوله في تفسيره : " القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا " أي تفسيره .

وثانيهما :

ان التأويل هو نفس المراد بالكلام ، فان كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وان كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر عنه ، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر ، فالذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام كالتفسير والشرح ويكون وجود التأويل في القلب واللسان وله الوجود الذهني واللفظي والرسمي ، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء أكانت ماضية أم مستقبلية ... (٣)

قال الذهبي : وعليه يمكن ارجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل الى هذا المعنى الثاني . (٤)

وقد جاء معنى التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين والمتصوفين أنه صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه به ... وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف ، فاذا قال أحد منهم هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول

-
- (١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، ص ٢٣٣ .
 (٢) رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية ج ٢ ص ١٤ .
 (٣) من رسالة الأكليل لابن تيمية ج ٢ ص ١٨ .
 (٤) التفسير والمفسرون للذهبي : ج ١ ص ١٧ .

على كذا ، قال الآخر هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج الى دليل ، والمتأول عليه
وظيفتان :

- (١) بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه .
- (٢) بيان الدليل الموجب للصرف اليه عن المعنى الظاهر . (١)

قال في جمع الجوامع وشرحه : " التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح
فان حمل عليه لدليل فصحيح ، أو لما يظن دليلا في الواقع ففساد أو لاشئ
فلعب لا تأويل " . (٢)

* * *

(١) من رسالة الاكليل : ج ٢ ص ١٧
(٢) جمع الجوامع : ج ٢ ص ٥٢ .

المبحث الثاني

اهتمام العلماء بالتفسير

المبحث الثانياهتمام العلماء بالتفسير

التفسير مرّ بأطوار كثيرة حتى اتخذ هذه الصورة التي نراه عليها الآن في بطون الكتب والمصنّعات ، فلقد نشأ التفسير مبكرا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي نعتبره أول شارح لكتاب الله تحقيقا لقوله تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١)

وامتثالا لقوله تعالى أيضا :

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٢)

فكان عليه الصلاة والسلام يبين لصحابته الكرام من القرآن العظيم ما يستطيع بيانه . . . وذلك لأن من القرآن ما استأثر الله بعلمه ، ومنه ما يتبادر الى الفهم ، فليس للرسول صلى الله عليه وسلم من حاجة لتفسيره ، ومن أمثاله ما بيّنه لهم من غير سؤال منهم : ما رواه الترمذى عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) (٣) قال أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم . قال : فان أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل يوم كذا كذا وكذا ، فهذه أخبارها " (٤) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) سورة النحل آية : ٤٤

(٢) سورة النحل آية : ٦٤

(٣) سورة الزلزلة آية : ٤

(٤) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب في تفسير سورة " اذا زلزلت " ج ٥ ص ١١٧ .

ومن الأمثلة أيضا ما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجسوف فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر ^(١) ، وما كان عليه الصلاة والسلام يقتصر في وصف شيء ما بجملته واحدة ، أو كلمة واحدة دائما ، بل كان يوضحها ويفصلها ان احتاجت للتوضيح والتفصيل من ذلك ما جاء في تفسير الكوثر — فيما رواه الترمذى عن أنس بن مالك : قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر ؟ قال : " ذاك نهر أعطانيه الله يعنى في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجوز " ^(٢) قال عمر : ان هذه الناعمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلتها أنعم منها " وقال هذا حديث حسن . والجوز بضمين جمع جزور وهو البعير . ^(٣)

وفي تفسير الحساب روى البخارى بسنده من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد يحاسب الاهلك قالت : قلت : يا رسول الله جعلنى الله فداك أليس يقول الله عز وجل : (= فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) ^(٤) قال : ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك " ^(٥)

ومن أمثلة تفسيره صلى الله عليه وسلم لبعض ما جاء في القرآن ما رواه مسلم عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر

-
- (١) رواه البخارى في كتاب التفسير باب في تفسير سورة " الكوثر " ج ٨ ص ٥٦٢ من فتح البارى .
- (٢) سنن الترمذى أبواب صفة الجنة باب ما جاء في صفة طير الجنة ج ٤ ص ٨٧ .
- (٣) القاموس المحيط مادة (ج . ز . ر) (٤) سورة الانشقاق آية / ٨
- (٥) رواه البخارى كتاب التفسير ، باب فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، ج ٨ ص ٥٣٥ من فتح البارى .

يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾^(١) ألا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، ألا ان القوة الرمي " . (٢)

وجاء اللفظ القرآني " قوة" معجزا لأنه يتسع لجميع ألوان القوة ، ولذا كانت الكلمة المفسرة لهذا اللفظ أيضا معجزة لأنه يدخل فيها الرمي بالقوس والنبال والحرب والرمي بالمنجنيق ، وكل ما استحدث بعد ذلك كالمداق والقنابل الذرية والهيدروجينية ، والصواريخ ونحوها .
ومن ثم فهناك أمثلة كثيرة في تفسيره عليه الصلاة والسلام لأكثر الآيات المتعلقة بالاحكام ، أما الآيات المتعلقة بنشأة الكون وأسرار الوجود وما فيه مجال للتفكير والنظر ، فقد فتح القرآن بها للعقول أبواب التقدم العلمي ومن ثم كانت هذه الآيات صالحة لكل مكان وزمان ، وكان ذلك سرا من أسرار الاعجاز القرآني ، لذلك لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم في تفسيرها الا الشيء القليل ، وقد حرص أغلب المفسرين على نقل الاحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم في التفسير ، وتجنب الاحاديث الضعيفة والموضوعة .
ولقد ذهب الررركشي الى أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كثير . (٣)

ولكن السيوطي قال : " الذي صح من ذلك قليل جدا ، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة ، وأسردها كلها آخر الكتاب ان شاء الله تعالى " . (٤)

(١) سورة الأنفال آية / ٦٠

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٦٤ كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه .

(٣) البرهان : ج ٢ ص ١٥٦ .

(٤) الاتقان : ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

ولقد رأيت أن البخارى قد أورد كثيرا من الاحاديث في التفسير مما جعلني أفهم كلام السيوطي على أن معناه بالقللة قلة نسبية ، أى بالنسبة لما يرفع من الأحاديث .

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر للمحابة رضوان الله عليهم بعض القرآن مما يحتاج الى تفسير وشرح لهم مجملته ، وأزال عنه مشكلة . (١)
ونحن اذا لم نجد التفسير في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة رجعنا الى ماصح وثبت عن المحابة رضوان الله عليهم لأن القرآن كان هدفهم يحفظونه ويفهمونه ويطبقونه على أنفسهم ، ومن ثم ينشرون نوره ويبينون معناه .

وقد كان لهم من صفاء نفوسهم وسلامة فطرتهم وعلو منزلتهم في البيان والفصاحة ما يؤهلهم للفهم الصحيح لكلام الله ، وهم بلا شك كانوا أعلم الناس بالظروف والملابسات التي أحاطت بنزول القرآن الكريم ، واعانت على فهمه وتدبره .

ومن ثم كانوا علماء بأساليب اللغة العربية ، وفهم أسرارها ، ولكنهم يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن ، وبيان ما يراد منه وذلك راجع الى اختلافهم في أدوات الفهم ، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم ، فمنهم من كان واسع المعرفة بها ملما بغريبها ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره .

(١) المجمل : ما لم تتضح دلالاته ، وهو واقع في القرآن ، والمشكل : ما يوهم التعارض بين الآيات : الاتقان في علوم القرآن للسيوطي : ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥

أضف الى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافا عظيما^(١) وليس أدل على ذلك مما أورده البخارى عن عدى بن حاتم قال : قلت : يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهما الخيطان ؟ قال : " انك لعريض القفا ان أبصرت الخيطين ، ثم قال : لا بل هو سواد الليل وبياض النهار " . (٢)

وعنه أيضا ما رواه البخارى بسنده من حديث ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : انه من حيث علمتم ، فدعا ذات يوم^(٣) فأدخل معهم فمارئت أنه دعاني يومئذ الا ليربهم قال : ما تقولون فسى قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس فقلت لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له . قال اذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك " فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا " ، فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تقول " . (٤)

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة كما قال السيوطي في الاتقان :

-
- (١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ٢٥ - ٢٦ .
 - (٢) صحيح البخارى مع فتح البارى كتاب التفسير " باب قوله تعالى وكلوا واشربوا " ج ٨ ص ١٣٧ .
 - (٣) وفي رواية " فدعاه " وفي أخرى " فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم " انظر فتح البارى ج ٨ / ٥٦٦ .
 - (٤) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) ج ٦ ص ١١٣ - ١١٤ و ج ٨ ص ٥٦٥ من فتح البارى .

" الخلفاء الأربعة وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، اما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزره جدا ، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم " . (١)

وهؤلاء العشرة الذين اشتهروا بالتفسير كانوا على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، ولعل السبب في قلة الرواية عن الخلفاء الثلاثة راجع كما نبهه السيوطي الى قصر مدة خلافتهم - وانشغالهم بالفتوحات - وتقدم وفاتهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فلقد عاشوا في وسط معظم أهله علماء بكتاب الله واقفون على أسرارهم عارفون بمعانيه وأحكامه فلم يكن هناك كبير داع الى الرجوع اليهم في التفسير أما علي بن أبي طالب فقد كثرت مروياته في التفسير لأنه عاش حتى اتسعت رقعة الاسلام ودخل كثير من العجم في الاديان الجديدة ، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة الى دراسة القرآن وتفهم أسرارهم وحكمهم ، وقد كثرت الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب لحاجة الناس اليهم ، ولصفات خاصة مكنت لهم وأهم هذه الصفات هي :

- (١) اجادتهم للغة العربية واحاطتهم بمناحيها وأساليبها .
- (٢) عدم تحرجهم من الاجتهاد ، وتقرير ما وصلوا اليه باجتهداهم .
- (٣) مخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن .

(١) الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٣٩ .
 (٢) وأحسب - والله أعلم - أن تقييده المفسرين بالعشرة راجع الى شهرتهم بالتفسير مع أن هناك بعضا من الصحابة الآخرين كالسيدة عائشة رضي الله عنها وأنس بن مالك وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم يعتبروا من المفسرين .

ويستثنى من ذلك ابن عباس فإنه لم يلزم النبي صلى الله عليه وسلم فسي
شبابه لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها ،
لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم (!) . أمثال
عمر بن الخطاب ، وأبي بن كعب ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، فهؤلاء
الأربعة بالاضافة الى تلقيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم الذين
تلقي منهم معظم دراسته وثقافته ، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة
العلمية الدقيقة .

أما باقي العشرة وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن
الزبير ، فهم وان اشتهروا بالتفسير الا أنهم قلت عنهم الرواية ، ولم يبلغوا
في التفسير مبلغ ما وصل اليه أولئك الأربعة المكثرون .

يقول الذهبي في كتابه : " التفسير والمفسرون " : ولو أننا رتبنا هؤلاء الأربعة
حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم : عبد الله بن عباس ، ثم عبد الله بن
مسعود ، ثم على بن أبي طالب ، ثم أبي بن كعب . (٢)

وقد سبق ذكر أمثلة لتفسير الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ويعمد
تفسير الصحابة تفسيراً بالمأثور على النحو الذي أشرت اليه .

(١) التفسير والمفسرون للذهبي : ج ١ ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٦٤ .

(١) اما أن يكون في أسباب النزول وفي كل أمر ليس للرأى ولا للاجتهاد

مجال فيه كأمر الآخرة مثلاً .

(٢) واما أن يكون للرأى فيه مجال .

القسم الأول :

له حكم الحديث المرفوع وعلى المفسر أن يأخذ به ولا يعدل عنه الـ
غيره بأية حال : وهذا ما أطلقه الحاكم في المستدرک^(١) ولكن ابن الصلاح قيـد
هذا الاطلاق بما يرجع الى أسباب النزول ، وما لا مجال للرأى فيه حيث قال : ما قيل
من أن تفسير الصحابي حديث مسند ، فانما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول
آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ الا عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، ولا مدخل للرأى فيه كقول جابر رضي الله عنه : كانت اليهود تقول
من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل :
﴿ نِسَاءُكُمْ حَرِّتُمْ لَكُمْ قَاتُوا حَرِّكَ أَنْتُمْ ﴾^(٢) ، فأما سائر تفاسير الصحابة
التي لا تشمل على إضافة شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعدودة في
الموقوفات والله اعلم . (٣)

ولكن الحاكم رجع الى ما قيده ابن الصلاح وصرح به في كتابه : " معرفة
علوم الحديث " حيث قال : ومن الموقوف الذي يستدل به على أحاديث كثيرة
ما ورد عن أبي هريرة رضي الله في قول الله تعالى ﴿ لَوْاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾^(٤)
قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحما على عظم

(١) مستدرک الحاكم ج ٢ ص ٢٥٨ ، كتاب التفسير في تفسير سورة الفاتحة .

(٢) سورة البقرة / آية ٢٢٣ .

(٣) شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقي تحقيق عبد الرحمن عثمان ص ٧٠ .

(٤) سورة المدثر / آية ٢٩ .

وخلاصة ما أمتاز به التفسير في عصر الصحابة
هـى :

(١) ان القرآن الكريم لم يفسر كله وانما وصلنا
تفسير بعض منه .

(٢) ان التفسير في أكثر الاحيان يكون اجماليا وتظهر
معانى الآيات في أقصر العبارات مثل تفسيرهم
لقوله تعالى : (غير متجانف لاثم) (١) أى غير
متعرض لمعصية وما يزيدون عليه
فانما هو من أسباب النزول .

(٣) ان التفسير لم يبدون عند أحدهم كاملا
بل كان بعضهم يتلقاه سماعا وبعضهم
يكتبه في مصحفه حتى ظن بعض الناس
الجهال أنه من القرآن كما أن التدوين
لم ينتشر الا في القرن الثاني (٢)

(١) سورة المائدة آية / ٣ ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد

فؤاد عبد الباقي ص ١٢ .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج ١ ص ٩٧ بتصرف .

(٤) ان التفسير لم يتخذ شكلا مسـتقلا
 منظما بل كانت جميع التفاسير
 تروى منشورة آيات متفرقة دون تنسيق
 على أبواب مثلا حيث نرى تفسرين
 آية من سورة بجوار تفسير
 آية من سورة أخرى، وهكذا كالحديث
 تماما فحديث صلاة بجانب حديث
 جهاد وبجانب حديث ميراث
 وهكذا .

وأما التفسير المعروف بتفسير ابن عباس
 والذي جمعه الفيروز أبادي ونسبه
 لابن عباس فغير صحيح لأنه اعتمد
 فيه على رواية واهية هي رواية محمد بن
 مروان السدي عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن
 عباس وهذه هي سلسلة الكذب كما قيل .
 (١)

(١) الاتفاق في علوم القرآن للسيوطي ج ٢ ص ٢٤٢ .

أما بالنسبة لتفسير التابعين فترى كما ذكر
الذهبي في كتابه : " أنهم أخذوا دروس التفسير من
أعلام الصحابة واعتمدوا في ذلك على ماجاء
في القرآن الكريم وعلى ماجاء عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، وعلى ما رواه الصحابة وعلى ما يفتح به عليهم من
الفهم والاجتهاد والنظر .
(١)

ولقد ذكر الشيخ الذهبي أن أربعة
من الصحابة اشتهروا بالتفسير فأما علي بن أبي طالب
فقد كان مشغولا بمهام الخلافة عن
تفريغ نفسه للتفسير ، وأما الثلاثة
الباقيون فقد جنّدوا أنفسهم للتفسير
والتدريس وتكونت لهم مدارس خاصة للتفسير
وحلقات معينة في بعض المدن
التي رحلوا إليها ، أو استقروا فيها ، ففي

(١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٩٩ .

مكة أنشأ ابن عباس مدرسة للتفسير
وأخذ يشرح للتابعين فيها ما خفى عنهم
من كتاب الله ، ويوضح لهم ما أشكل عليهم
وهم بدورهم كانوا يصغون اليه جيداً
ويعنون عنه غزير علمه ، ولقد أشتهر
من تلاميذه بمكة سعيد بن جبير
ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس
وطاوس بن كيسان اليماني ، وعطاء
ابن أبي رباح ، وفي المدينة قامت مدرسة
للتفسير وكان استاذها الصحابي الجليل
أبي بن كعب الذي تتلمذ على يديه كثير
من التابعين اشتهر منهم ثلاثمائة
أبو العافية ومحمد بن كعب القرظي ، وزيد بن
أسلم ، وهؤلاء منهم من تعلم منه مباشرة
ومنهم من أخذ عنه بالواسطة .

(٢)

ومنهم من أخذ عنه بالواسطة .

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، والتفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ١٠١
يتصرف .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ج ٦ ص ١١٤ يتصرف .

وفي العراق نشأت مدرسة للتفسير
 واشتهرت بتفسير القرآن بالرأى،
 والاجتهاد لأن أهل العراق أمتوا
 بأنهم أهل الرأى، وهم الذين
 تعلموا من معلمهم الأول عبد الله بن مسعود
 وبرز علقمته بن قيس ومسروق بن
 الأجدع وقتادة بن دعامة والحسن
 البصري ومرة الهمداني وعامر الشعبي،
 والأسود بن يزيد .
 (١)

وبعد هؤلاء المفسرون ممن
 التابعين هم مشاهيرهم في ذلك الزمان
 وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة والبعث
 منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ١١٨ بتصرف .

أما الباقي فهو من قبيل اجتهادهم الدقيق .

ولاشك أن هؤلاء الرجال الأفاضل قد بذلوا جهدهم في التلقي عن الصحابة وفي الرجوع الى أهل الكتاب في بعض الأحيان^(١)، وكرسوا حياتهم ووقتهم لخدمة العلم والدين فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خيرا .

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمي وأضافوا اليه بقدر جهـودهم أيضا ، وبذلك تناقل الخلف علم السابقين وفناوهم وتفاسيرهم وزادوا عليها أو اختصروا فيها بحسب تدرج العلوم في زمانهم .

هذا وقد اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين . اذا لم يـرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صحابته الميامين ذلك أنهم لم يشاهدوا الأحوال والقرائن التي نزل عليها القرآن ، فيجوز أن يخطئوا في فهم المراد ، لذا يتوقف البعض عن الأخذ بأقوالهم في التفسير . وفي هذا يقول أبو حنيفة " ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال " .^(٢)

أما أكثر المفسرين فقد ذكروا أقوالهم في كتبهم ونقلوها عنهم اعتمادا عليها فأخذوا بأقوالهم لأن التابعين تلقوا غالب تفاسيرهم عن الصحابة بشهادتهم أنفسهم ، فعن مجاهد قال : " عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث

(١) الرجوع الى أهل الكتاب ترتب عليه دخيل في التفسير بحكم ما أخذ عنهم ولبيان

ما يقبل عنهم وما يرد نراجع مايلسى :

(*) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٦ - ٧

(*) فتح البارى شرح صحيح البخارى في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن

بني اسرائيل ج ٦ ص ٣٦١ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٢٨ .

عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيما نزلت وكيف كانت؟" (١).
وعن قتادة قال "ما في القرآن آية الا وقد سمعت فيها شيئاً" (٢) وما تميـسـل
اليه النفس : أن قول التابعي لا يجب الأخذ به الا اذا كان مما لا مجال للرأى فيه
فعندئذ يجب الأخذ به".

قال ابن تيمية قال "شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست
حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعنى انها لا تكون حجة على غيره—
من خلفهم . . . وهذا صحيح أما اذا اجتمعوا على الشئ فلا يرتاب في كونه
حجة فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم—
ويرجع في ذلك الى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو اقوال الصحابة
في ذلك". (٣)

وفي أواخر العهد الأموى وأوائل العهد العباسي اتسعت دائرة التدوين
والتأليف عما قبلها حيث أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز العلماء بجمع
أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا من ذهاب بعضها بوفاة حافظيها،
(٤)
وحتى يكون في الاستطاعة التفريق بين صحيحها وسقيمها .
وكان بعد جمع الاحاديث التأليف في معظم علوم الدين واللغة العربية،
وكان لعلوم القرآن نصيب من هذا التأليف ، حيث ظهر الاهتمام بالتفسير
الذى يعتبر الأصل في فهم القرآن وتدبره .

-
- (١) الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٣، وانظر التفسير والمفسرون ج ١ ص ١٢٨، ١٢٩ .
(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥ .
(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ٧٦/١ .

وكان من العلماء من تابعي التابعين من اهتم بالتفسير وأخذوه عن التابعين فكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال التابعين وأقوال الصحابة من قبلهم - رضوان الله عليهم - أو للروايات المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير - بمعنى أنهم اهتموا بها اهتماما خاصا بجانب اهتمامهم بجمع الحديث - رغم كون تلك التفاسير غير منفردة بتأليف خاص ولكنها - حاليا - موجودة في كتب التفسير بالمأثور ، من هؤلاء العلماء يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧ هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ) ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ) وسفيان بن عيينه (١٩٨ هـ) وروح بن عباد البصرى (٢٠٥ هـ) وغيرهم .

ثم جاء بعد هؤلاء من فصل التفسير عن الحديث فأفرده بتأليف مستقل وفسر القرآن على حسب ترتيب المصحف العثماني كابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨ هـ) وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) والحسين ابن مسعود البغوي (٥١٠ هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) وغيرهم - الأئمة ٠٠٠ وهؤلاء كان اهتمامهم الأكبر بالتفسير بالمأثور ولكن ابن جرير كان يرجح بعض الأقوال على بعض ، ويستنبط الأحكام ويذكر بعض وجوه الاعراب التي تزيد المعاني وضوحا (!) وكذلك فعل ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) في تفسيره - القرآن العظيم - بل ربما فاقه بأمور منها :

- (١) كلامه في الجرح والتعديل لرواة الحديث .
- (٢) التحذير من الأخذ بالآثار المنكرة من الاسرائيليات .
- (٣) تفسيره الآية بالآية وربطه بينهما بعبارة سهلة موجزة حتى يتبين المراد .

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ بتصريف .

(٤) تكلمه في المناقشات الفقهية عند تفسير آيات الاحكام مع عدم اسرافه
في ذلك . (١)

ثم اتسعت العلوم وتشعبت فروعها وظهرت كتب الفلاسفة المترجمة وعملت
الفرق الاسلامية على نشر مذاهبها فظهرت ألوان من التفاسير المتأثرة
بهذا كله .

لذا وجد التفسير بالرأى وأباحه العلماء اذا لم يعارض تفسيراً مأثوراً ثابتاً

صحيحاً وتوفرت فيه الشروط التالية :

- (١) النقل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- (٢) الأخذ بقول الصحابة رضوان الله عليهم .
- (٣) الأخذ بمطلق اللغة العربية .
- (٤) الأخذ بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع . (٢)

ومن أشهر كتب التفسير بالرأى التي توافرت فيها هذه الشروط :

- (١) تفسير الفخر الرازى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) المسمى "بمفاتيح الغيب" والذي
اهتم فيه بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وبذكر المناسبات بين الآيات ، وبين
السور بعضها مع بعض ، كما اهتم بتقسيم الآيات أو الآيات الى عدد من المسائل
يتأولها ويرد عليها مدافعا عن عقيدة أهل السنة والجماعة وان كان

- (١) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٦ بتصريف .
- (٢) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٥٦ - ١٦١ وقد أورد الشيخ الذهبي في كتابه
"التفسير والمفسرون" أيضا العلوم التي يحتاجها المفسر برأيه والمنهج
الواجب السير عليه ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٧٧ .

دفاعه أحيانا يكون قاصرا . (١)

(٢) تفسير البيضاوى^(٢) " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " الذى عنى فيه بتقرير الأدلة على أصول أهل السنة واهتم بقواعد اللغة العربية فهو بجملته يعتبر مختصرا - كما يقول الذهبي - من كتاب الكشاف للزمخشري مع ترك ما فيه من اعتزالات .

(٣) تفسير أبي السعود " المتوفى سنة ٩٨٢ هـ " ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم " وفيه اهتم بتقرير مذهب أهل السنة وكشف عن اسرار البلاغة القرآنية بصياغة حسنة وتعبير دقيق كما عنى بابداء المناسبات بين الآيات^(٣) وتناول ما تحتمله الآيات من وجوه الاعراب . (٤)

والتفسير بالرأى اذا لم يكن بينه وبين التفسير بالمأثور تعارض فكل واحد منهما يؤكد الآخر ويثبتته ، أما اذا عارضه أو اذا لم تتوفر فيه الشروط

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الذهبي ج ١ ص ٢٩٥ كما أن كتاب الفخر الرازى فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة ومثاله ج ٣٢ ص ٤٧ - ٨١ ، وكذلك البيضاوى في تفسير سورة الفاتحة ، وكذلك في نهاية كل سورة أحاديث غير مقبولة انظر تفسير البيضاوى مع حاشية الشهاب ومثاله ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٩٧ .

(٣) وكتاب أبي السعود أيضا فيه أحاديث ضعيفة كما في تفسير سورة الاسراء آية ٤٧ ، وآية ١١١ ، وفيه أحاديث موضوعة يذكرها عقب تفسير كل سورة .

(٤) التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٥٢ .

السابقة فهو مذموم لايجوز الأخذ به كتفاسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية
فمعظمها لايجوز العمل بها لأن أصحابها لم يؤلفوها الا لنشر مذاهبهم أو لتأييد
أهوائهم ذلك أن الغالب على تفاسير المعتزلة هو الطابع العقلي والمذهبي
الكلامي ومن أمثلتها تفسير الكشاف^(١) للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) .

والغالب على تفاسير المتصوفة وجود النظريات الفلسفية التي لا صلة
لها بالورع والتقوى ووجود الأفكار التي تتنافى مع الاسلام وعقيدته ومن أمثلتها
تفسير محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) صاحب نظرية وحدة الوجود ، فهذا
التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها ، ويغرق في التأويلات
الباطنية البعيدة ، ويجر الى متاهات من الاحاد والزيغ ، فالاحرى أن نبتعد
عنه . (٢) .

والحاصل : أن التفسير أخذ حظه الوافر من المنقول والمعقول واشتمل
على دراسات مختلفة النواحي من لغوية وأدبية وبلاغية وفقهية ومذهبية
وفلسفية ، فلم يترك المفسرون الأوائل لمن جاء بعدهم من المفسرين من عمل
جديد ممكن اضافته للتفسير اللهم الا عملا ضئيلا كجمع أقوال المتقدمين
وشرح الغامض منها أو ترجيح رأي على رأي ، أو نحو ذلك . . . وجاءت بعد
ذلك النهضة العلمية في العصر الحديث وشملت فيما شملته التفسير،

(١) وان كان للكتاب قيمته العلمية من ناحية الكشف عن جمال القرآن

وسحر بلاغته . . .
مناهل العرفان ج ١ ص ٥٣٨ والتفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ٤٣٣ وما بعدها
ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٤١١ ، مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٥٥٨ .

وقد بين الشيخ الزرقاني أن هناك آثارا مشتركة لامتزاج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير تتلخص فيما يأتي :

- (١) زيادة الثقة بالقرآن وعروبه ومعارفه واعجازه .
 - (٢) الايمان بأنه كتاب غنى بكل ما يحتاجه البشر من ألوان السعادة .
 - (٣) الايمان بكونه كتاب الساعة ودستور الناس الى يوم القيامة ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، ولا يستغنى عن كنوزه وذخائره . (١)
- وكان العمل في التفسير يتلخص في أمور عديدة أذكر منها :
- (١) تنقية التفسير من القصص الاسرائيلي .
 - (٢) تمحيص ما جاء في التفسير من أحاديث ضعيفة أو موضوعة .
 - (٣) الياس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا .
 - (٤) التوفيق بين القرآن الكريم والجديد من النظريات العلمية الصحيحة .
- وظهر التفسير في العصر الحديث بأربعة ألوان تتلخص في التالي :

(١) التفسير العلمي :

وهو الذي يهدف الى جعل القرآن الكريم مشتملا على سائر العلوم دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح ، وذلك - باعتقاد أصحابه - لبيان اعجازه وصدقته وملاحيته للبقاء . (٢)

وخير مثال على هذا التفسير كتاب " الجواهر في تفسير القرآن الكريم " للشيخ طنطاوى جوهرى .

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٥٦٩ بتصرف يسير .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ج ٢ ص ٤٩٧ بتصرف .

حيث كان رحمه الله يفسر القرآن تفسيراً لفظياً مختصراً ، ثم يدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها لطائف أو جواهر . هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث جاء بها - كما يقول - ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون طويلة ، ونجد الشيخ طنطاوي يضع في تفسيره كثيراً من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم ليزيد القارىء وضوحاً للحقائق ، كما أنه يستشهد أحياناً ببعض النصوص من انجيل (برنابا) ، كما انه يشرح بعض الحقائق الدينية بما ورد عن أفلاطون أو بما جاء عن اخوان الصفا في رسائلهم موضحاً رضاه عنها مع مخالفتها للثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . (١)

* ومن أمثلة تفسيره :

(١) نراه عند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَمَلِهَا مَا قَالَ آتَسْتَبِدُّونَ لِذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ...﴾ الآية (٢)

يذكر الفوائد الطبية ويبين ما أثبتته الطب الحديث من نظريات ومناهج هي نفسها التي نهجها القرآن الكريم فكأنه يقول هنا : ان العيشة البدوية على المن والسلولى أفضل بكثير من حياة المدينة الشقية حيث الاكثار من ألوان الطعام مع الذلة ووجور الحكام ، وبمثل هذا تفسير هذه الآيات وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله " . (٣)

(٣) ونراه عند تفسير سورة الزلزلة يفسرها تفسيراً لفظياً مختصراً ثم يستعرض ما وقع من حوادث الزلزال في ايطاليا وما وصل اليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبتروول من الأرض ومن استخراج آثار القدماء في مصر وغيرها . ثم يقول : ان السورة تشير في طـرف

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٢) آية / ٦١ سورة البقرة .

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج ٢ ، ص ٥١٠ بتصرف .

خفي الى ذكر أحوال الدنيا - مع أنها في الأصل واردة لأحوال الآخرة، فالارض الآن كأنها في حالة زلزلة، وقد أخرجت اثقالتها من كنوز وموتى وغيرهـا، والناس الآن يتساءلون ويلهمون بالاختراع وهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الاعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها وكل انسان في عمله الخاص به".^(١)

٢) التفسير المذهبي :

هو تفسير القرآن الكريم بما يتمشى مع مذهب كل فرقة من الفرق الباقية - المنسوبة الى الاسلام - التي مازالت تحتفظ بتعاليمها وعقائدها في العصر الحديث فمثلا الزيدية - وهي أقرب فرق الشيعة الى مذهب أهل السنة - كان لها أثر مميز وطابع خاص في التفسير، ومثاله كتاب " فتح القدير للشوكاني " المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ . حيث كانت طريقته في التفسير كالآتي : يذكر الآيات ثم يفسرها ناقلا عن أصحاب كتب التفسير كابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي وغيرهم .

فهو يذكر المناسبات ويعنى بالنحو والصرف ويعلل ماذهب اليه ، ويعدد الآراء ، ويعنى بالقراءات ، ويعنى بالقراءات ، ويعزوها لأصحابها ، ويحدد معاني الألفاظ ويحيل على ما سبق تفسيره ، ويستشهد بالشعر العربي ، ويحلل المعاني تحليلا دقيقا ، ثم يذكر المأثور في النص الكريم بعد ذلك ، ويعزو ما يذكره للمصادر التي استقى منها الآثار . ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى :
(ويشرك الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا) الآية .^(٤)

-
- (١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج ٢ ، ص ٥١٥ بتصرف .
 - (٢) وهو اشتراط الاجتهاد في الامام ورواية معظم الأحاديث عن زيد بن علي زين العابدين ، التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ بتصرف .
 - (٣) انظر ترجمة المؤلف في أول فتح القدير ، ص ٤ - ٩ .
 - (٤) الآية ٢٥ من سورة البقرة ، وانظر فتح القدير : ٥٤/١ .

وانظره عند تفسير قوله تعالى للآية (٥٥ من سورة البقرة) : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ

لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ *

يقول رحمه الله وانما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم ، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله

به من رؤيته الدنيا ، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم الى انكار الرؤية في الدنيا

والآخرة .

وذهب من عداهم الى جوازها في الدنيا ، ووقوعها في الآخرة ، وقد تواترت الاحاديث

الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة ، وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف

أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل

قد حكم بها ، دعوى مبنية على شفا جرف هار وقواعد لا يغتر بها الا من يحظ من العلم

(١)

النافع بنصيب) .

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين : بأن العين لا تأثير لها في المعين وذلك

حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ

أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢)

وقد انكر بعض المعتزلة أن للعين تأثيرا ، ومار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد

الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه

لذلك ، وقد وردت الاحاديث الصحيحة بأن العين حق (٣) ، وأصيب بها جماعة في عصر

النبوة ، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فتح القدير ج ١ ، ص ٨٧ .

(٢) سورة يوسف آية / ٦٧ .

(٣) رواه البخارى في كتاب الطب باب العين حق ، ج ٧ ، ص ٣١ ، ج ١٠ ، ص ١٧١ : ١٧٣ من فتح البارى

ومسلم في كتاب السلام باب الطب والممرض والرقى ج ١٤ ، ص ١٧١ .

ورواه الترمذى في كتاب الطب باب ما جاء أن العين حق ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ وقال

فيه هذا حديث صحيح .

وأعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف ، لمجرد الاستبعاد العقلي ، والتنطع في العبارات ، كالزمخشري في تفسيره ، فانه في كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد ، حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة ، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة ، وبالجمل ، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفا وخلفا ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكـ من شخص من هذا النوع الانساني ، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب " (١)

ونلاحظ أيضا أن له موقفا من مقلدي الأئمة وأتباعهم حيث أنه عند تفسيره لبعض الآيات يشبههم بالكفرة ، يقول الشيخ الذهبي رحمه الله : " نجد الشوكاني يذم المقلدة وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم في حق آخر ربما كان أفضل منه عند الله " . (٢)

ومثال ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

حيث قال مانمه (وان في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر ، وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فان ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فانهم القائلون : " إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ كَيْفٍ

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ٤١ بتصرف .

ولي ملاحظة على قوله في حق الزمخشري (حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة) فقد يقصد بها ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (عفا الله عنك لم اذنت لهم) من سورة التوبة / ٤٣ حيث قال : كناية عن الجنابة ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت - وذلك في الكشاف ج ٢ ص ١٩٢ ، وأيضا ما ذكره عند تفسير قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) حيث قال : لم تحرم من ملك اليمين أو العسل . وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله عز وجل انما أحل ما أحل لحكمة أو مصلحة عرفها في احلاله فاذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ، قال الامام أحمد : ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلى الله عليه وسلم تقول واقتراء ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .

(٢) التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٣) سورة الاعراف آية / ٢٨ .

آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ" (١) .

والقائلون (وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) (٢) والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودى على اليهودية ، والنصراني على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات الا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية أو النصرانية أو البدعة ، وأحسنوا الظن بهم ، بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغي وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص .

فيامن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الاسلامية ، أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة ، وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم ، وفسد الرأي بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله الى هذه الأمة الا رسولا واحدا أمرهم باتباعه ، ونهى عن مخالفته فقال ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٣)

ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهم هذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعد أهل الرأى ، المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله وان من أعجب الغفلة ، وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونها عنه ، ووجود آله الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم) . (٤)

(١) سورة الزخرف آية / ٢٣

(٢) سورة الاعراف آية / ٢٨

(٣) سورة الحشر آية / ٧

(٤) فتح القدير ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٣) التفسير الاحادي:

وهو تفسير للقرآن على وجوه غير صحيحة تتنافى مع مافي القرآن من هداية ،وتناقض ماهو عليه من محجة بيضاء وتدخل فيه آراء سخيفة ومزاعم منبوذة يدخلها المغتر بعلمه القليل المفسر الذي لا يتقيد بأى أصل من أصول التفسير ، ومثاله كتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) فقد أنكر مؤلفه المعجزات التي جاءت عن الأنبياء بقدره اللطيف سبحانه ، كما أنكر أحكام الدين ومنها تعدد الزوجات وحد السرقة وهو في شأن المعجزات يقول في قوله تعالى : * واذ تخلق من الطين كهيئة الطير * والمراد انسان خفيف كالطير ، وفي قوله تعالى : * وتبرئ الأكمه * يقول الأكمه من ليس عنده نظر ،

وفي قوله سبحانه : * وأنبيئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم * والمراد به التدبير المنزلي ،

ويقول في ضرب موسى الحجر معجزة له . . الحجر اسم مكان والمراد اذهب الى هذا المكان وينص على أن ابراهيم عليه السلام لم يدخل النار ، ويقول في ذلك يستحيل دخول ابراهيم في النار ، وفي قوله سبحانه : * قالت نملسه * المراد قبيلة وينكر تشريع الزكاة ، ويقول الأمة هي التي تقرر الزكاة الى غير ذلك من الاحاد ، وقد صودر الكتاب واختفى عن الأعين ولله الحمد . (١)

(٤) التفسير الأدبي الاجتماعي :

هو تفسير النصوص القرآنية باظهار موانع الدقة في التعبير القرآني وصياغة المعاني في اسلوب شيق أخاذ ، ثم تطبيق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع ونظم العمران .

(١) انظر التفسير والمفسرون ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ، بتصريف يسير ففيه مختصر ماجاء في

الكتاب من الحاد وغواية وانحراف ، وكذا ج ٢ ، ص ٥٢٢ : ٥٤٦ .

وخير من يمثله الشيخ محمد عبده ثم الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وان كان الأخيران قد تأثرا بالشيخ محمد عبده وبمدرسته التي أقامها للتفسير حيث بذل فيها مجهودا كبيرا يذكر له منه :

- (١) البعد عن التأثير بأى مذهب من المذاهب .
 - (٢) الوقوف من الروايات الاسرائيلية موقف الناقد البصير .
 - (٣) البعد عن التأثير باصطلاحات العلوم والفنون التي استعملها السابقون .
 - (٤) نهج المنهج الأدبي الاجتماعي بالتفسير للكشف عن بلاغة القرآن واعجازه ومعالجة مشاكل الأمة الاسلامية خاصة والأمم الأخرى عامة .
 - (٥) التوفيق بين القرآن الكريم وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة .
- وكل ذلك بأسلوب شيق جذاب يحبب القارئ في النظر في كتاب الله ويرغبه في معرفة أسراره ومعانيه .
- يقول الشيخ الذهبي ما ملخصه :

ان انتاج الشيخ محمد عبده في التفسير لم يشمل القرآن كله ، وانما ينحصر فيما يأتي :

- (١) تفسيره المشهور لجزء " عم " وهو مطبوع .
 - (٢) تفسيره لسورة العنكبوت .
 - (٣) بعض البحوث التفسيرية التي عالج بها بعض مشكلات القرآن كشرح آيات من سورة النساء ، وآيات من سورة الحج ، وأخرى من سورة الاحزاب .
 - (٤) تفسيره لسورة الفاتحة والبقرة وجزء من سورة النساء .
- ويقول ان ذلك كله لم يدون ، وانما كان عبارة عن دروس ألقاها على طلابه

قال : ان القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين ، فالمعنى أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله واذنه (لأموهنا بالسفن التى عليها مدارنظامها كما قال (فالمدبرات أمرا) مسخرة لآدم وذريته اذ خلق الله هذا النوع كخواص الماء والهواء والكهرباء والنور والأرض معادننا ونباتها وحيوانها واطهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها ومستعدا لامطفاء الله بعض أفراده واختصاصهم بوحيه ورسالته ، واقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه ، وقد أشير الى ذلك فى الآية (٣١) من سورة البقرة ، يقول تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) الا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردا على الانسان ، بل عدوا له ، من حيث أن الانسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله واقامة سنته فى صلاح الخلق وبين روح الجن الذى يغلب على شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان ، وقد أعطى الانسان ارادة واختيارا من ربه فى ترجيح مابه يصعد الى أفق الملائكة ، ومابه يهبط الى أفق الشياطين) (١)

ومثال ما أبدى فيه رأيه فى أصحاب الكباثر ما ذكره عند تفسير قوله تعالى فى شأن المرابين : (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) حيث خالف أهل السنة ، وأكد أن صاحب الكبيرة التى فى درجة أكل الربا وقتل العمد اذا مات ولم يتب منها يخلد فى النار ولا يخرج منها ... فنراه يقول : (أى ومن عاد الى ماكان يأككل من الربا المحرم بعد تحريمه ، فأولئك البعداء عن الاتعاض بموعظة ربهم الذى لاينهاهم الا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم . هم أهمل

النار الذين يلازمونها كما يلازم صاحب صاحبه فيكونون فيها خالدين)
 (وقد أول الخلود المفسرون لتتفق الآية مع المقرر في العقائد
 والفقهاء من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار ، فقال أكثرهم : ان
 المراد ومن عاد الى تحليل الربا واستباحته اعتقادا ، ورده بعضهم
 بأن الكلام في أكل الربا وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان
 لرأيهم قبل التحريم ، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم ، فاذا كان
 الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على اكله بالفعل) .

(والحق ان القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء ، يجب
 ارجاع كل قول في الدين اليه ، ولا يجوز تأويل شيء ليوافق كلام الناس ،
 وما الوعيد بالخلود هنا الا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمدة ،
 وليس هناك شبهة في اللفظ على ارادة الاستحلال) .

(وصار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الاعتراف بأنها من
 كبائر ما حرم كما بلغنا عن بعض كبرائنا انه قال : اننى لا أنكر أننى
 أكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام ، وقد فاتته أنه يلزمه بهذا
 القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد ، وبأنه يرضى أن يكفون
 محاربا لله ولرسوله ، وظالما لنفسه وللناس . فهل يعترف بالملزوم؟
 أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ
 بالله من الخذلان) (١)

(١) أنظر المنار ج ٣ ص ٩٨ - ٩٩ .

أما بالنسبة لكتاب " تفسير المراغي " فقد نهج في تأليفه

النهج التالي :

أولا : كان يصدر كل بحث بآية أو آيتين أو آيات من الكتاب

الكريم والتي تؤدي غرضا واحدا .

ثانيا : كان يردف ذلك بتفسير للمفردات اللغوية غير الواضحة

للقراء .

ثالثا : كان يتبع ذلك بذكر المعنى الاجمالي للآيات ليكنون

القارئ صورة مجملتا حتى اذا جاءه التفسير وضحت

لديه المعاني وفهمها .

رابعا : كان يعرض عن ذكر مصطلحات العلوم من نحو وصرف وبلاغة

واشبه ذلك .

خامسا : كان يستعين بذكر الروايات المأثورة المقبولة لانه

يرى ذلك اسلم لصادق المعرفة وأشرف لتفسير كتاب الله ،

وأجذب لقلوب المثقفين - ثقافة علمية - والتي

لايقنعها الا الدليل والبرهان ونور المعرفة الصادقة .

سادسا : بين أسلوبه في كتابه التفسير حيث قال : " كان أهم

ماعت به ان أقرأ في الموضوع الواحد ماكتبه اعلام

المفسرين على اختلاف نزعاتهم وتباين أزمنتهم حتى

اذا اطمأنت الى فهم ماقرأت وتمثلته وهضمته ، كتبته

بأسلوب العصر الحاضر ، واستبدلت بأساليب المؤلفين

أسلوباً سهلاً المأخذ قليل الكلفة في الفهم ، حتى يستطيع القارئ ان يلم بأسرار كتاب الله دون كد (١)
 ولا نصب ، وهذا هو منهجى فى تأليف هذا التفسير " .

كذلك نجده يعتنى اعتناء كبيراً باظهار اسرار التشريع الاسلامى وحكمة التكليف الالهى ليظهر محاسن الاسلام ، ويكشف عن هدايته للناس فيستطرد مثلاً عند تفسيره آيات الصوم مبيناً اسراره وحكمه (٢)
 حيث يقول :

" فرض عليكم الصيام كما فرض على المؤمنين من أهل الملل قبلكم من لدن آدم عليه السلام ، وفى هذا تأكيد له وترغيب فيه ، وتطبيب لأنفس المخاطبين فانه عبادة شاقة والامور الشاقة اذا عمّت كثيراً من الناس سهل تحميلها ورغب كل احد فى عملها .

وفرضه عليكم ليعدكم لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة امثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده ، فتتربى بذلك العزيمة والارادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها ، وقد جاء فى الحديث : " الصيام نصف الصبر " (٣)

(١) تفسير المراغى ج ١ ص ١٦ : ١٨ بتصرف .

(٢) سورة البقرة (١٨٣ : ١٨٥) .

(٣) رواه الترمذى فى كتاب الدعوات فى ابواب فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ج ٥ ص ١٩٧ وقال فيه هذا حديث حسن .

(١)
 وبهذا نعلم أنه ماكتب علينا الصوم الا لمنفعتنا "

" واعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة اعظمها
 شأننا :

(١) انه يعود الانسان الخشية من ربه فى السر والعلن ، فاذا
 ترك الشهوات التى تعرض له من أكل شهى وشراب عذب ، وفاكهة
 حلوة وزوجة جميلة ، امتثالا لأمر ربه ، وخضوعا لتعاليم
 دينه مدة الصيام شهرا كاملا .. فاذا تركها .. لاجرم أنه
 بتكراره ذلك يتعود الحياء من ربه والمراقبة له فى أمره
 ونهيه ، وفى ذلك تكميل له وضبط للنفس عن شهواتها وشدة
 مراقبتها لبارئها .

ومن كملت لديه هذه الخلقة لايقدر على غش الناس
 ومخادعتهم ، ولا على اكل اموالهم بالباطل ، ولا على هدم
 ركن من اركان الدين كالزكاة ، ولا على اقتراف المنكرات
 وفعل السيئات ، واذا ألم بشيء منها يكون سريع التذكر
 قريب الرجوع بالتوبة الصحيحة كما قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ
 اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ " (٢)

(٢) أنه يكسر حدة الشهوة ويجعل النفس مصرفة لشهواتها بحسب
 الشرع .

(١) تفسير المراغى ج ١ ص ٦٨ / ط ٤ .

(٢) سورة الاعراف آية (٢٠١) .

(٣) انه يعود الشفقة والرحمة الداعيتين الى البذل والصدقة فهو عندما يجوع يتذكر من لا يجد قوتا من أولئك البائسين ، فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم ، وفى ذلك تكافل للامة وشعور بالاخوة الدينية .

(٤) أن فيه المساواة بين الاغنياء والفقراء ، والملوك والعامّة فى أداء فريضة دينية واحدة .

(٥) تعويد الامة النظام فى المعيشة فهم يفطرون فى وقت واحد

(٦) أنه يفنى المواد الراسية فى البدن خاصة فى اجسام المترفين قليلى العمل والحركة ، ويجفف الرطوبات الضارة ويطهر الامعاء من السموم التى تحدثها البطنة ، ويذيب الشحم الذى هو شديد الخطر على القلب " (١)

ثم فسّر بقية الآيات بأسلوب سهل بسيط موضحا رخصة الشارع الحكيم فى اباحة الفطر للمريض والمسافر " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم " اليه من الاحكام التى فيها سعادة المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، " وَلَلَكُمْ نَاسٌ يَشْكُرُونَ " (٢) اى تشكرون له نعمة كلها فتعطوا كلا من العزيمة والرخصة حقها فيكمل ايمانكم ويرضى عنكم ربكم . (٣)

(١) تفسير المراغى ج ١ ص ٧٠

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٣) تفسير المراغى ج ١ ص ٧٤ .

وهناك امر ظاهر فى دروس المراغى - رحمه الله - وتفسيره وهو عدم خوضه فى مبهمات القرآن بالتفصيل فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم " تراه يقول : " ونحن لانعلم ماهو الذى فرضه الله على الامم السابقة من قبل أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس أم غيره ؟ وليس لنا ما يهدينا الى شىء معين من دليل يطمئن اليه القلب . والتشبيه لايدل على المماثلة فى كل شىء ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الامم السابقة لانعلم مقداره ولاكيفية ولايزال الصوم معروفا عند الامم الاخرى على اوضاع مختلفة " (١)

وفى تفسيره اثبت ما ذكره القرآن من ان الصوم فرض علينا كما فرض على المؤمنين من اهل الملل السابقة من لدن آدم عليه السلام . فلم يفصل فى ذلك ولم يتعرض للاختلافات فيه . ثم طبعت هذه الدروس . (٢)

وجاء بعدهما الاستاذ سيد قطب بكتابه " فى ظلال القرآن " وقد أثر هذا الكتاب فى الفكر الاسلامى المعاصر - نتيجة لمناقشته أيضا موضوعات وقضايا معاصرة - حيث اقبل عليه الكثير من المسلمين وأفادوا منه ، واعترض عليه بعض المثقفين فأحببت ان ابين منهج

(١) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٥٩٦ .

(٢) تفسير المراغى ج ١ ص ٦٨ .

(٣) راجع التفسير والمفسرون للشيخ الذهبى ج ٢ ص ٥٧٧ - ٦٠٩ لترى

الفرق بين تفسير كل من الشيخ محمد رضا والشيخ محمد المراغى

واستاذهما الشيخ محمد عبده .

المؤلف - رحمه الله - في كتابه " في ظلال القرآن " بصورة
عامّة بعد التعرض لحياة المؤلف - رحمه الله -
ومدى تأثيره بالعصر الحديث .

وبالله التوفيق ،،

الفصل الأول

أحوال العصر الثقافية وبيئة المؤلف

ويشتمل على

✦ المبحث الأول : أحوال العصر الثقافية

✦ المبحث الثاني : البيئة التي نشأ فيها المؤلف

المبحث الأول

أحوال العمر الثقافيّة

الفصل الأول

أحوال العصر الثقافية وبيئة المؤلف

المبحث الأول : أحوال العصر الثقافية :

قامت في مصر نهضة فكرية كبيرة شملت مختلف النواحي أشهرها الناحية الأدبية ، والناحية الدينية ، وعن الناحية الأدبية كانت هناك نهضة أدبية حديثة أساسها يرجع الى افتتاح المدارس واطلاع كثير من الأدباء على الأدب الغربي سواء عن طريق البعثات الى الخارج أو عن طريق الاطلاع على الكتب المترجمة ، ومن ثم قراءة ما أحياه البعض من تراث العرب . (١)

وقد ظهرت مدارس أدبية مختلفة ، ولمع كثير من الشعراء والأدباء وكان نشاطهم ملحوظا في تأليف الكتب العديدة المختلفة الموضوعات . وفي ترجمة الكتب الأجنبية وعقد الندوات ، وفي نشر المقالات والقصائد في الصحف والمجلات التي اشتهرت مصر باصدارها أكثر من غيرها من البلاد العربية .

وبالتالي ساهمت هذه الصحف والمجلات في انماء الوعي لدى الشعب حيث عرفت الناس بنتائج الأدباء من قصص وقصائد ومقالات وبحوث وغيرها كما حثتهم على المطالبة بحقوقهم الأساسية في العدل والحرية والاستقلال ودعتهم الى الرجوع الى فضائل الأعمال وتحكيم الاسلام في جميع النواحي .

(١) في الأدب الحديث لعمر دسوقي ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

أما بالنسبة للنهضة الدينية فقد قامت على يد الشيخ محمد عبده - الذي كان أستاذا في الأزهر ، ثم أصبح المفتى العام للبلاد - حيث ابتدأها باصلاح الأزهر ، ثم اصلاح مناهج التعليم والمحاكم الشرعية والمساجد كما أسس جمعية خيرية ، وترأس جمعية احياء الكتب العربية ، كما كانت له اعمال اصلاحية أخرى . (١)

هذا وقد حمل راية الاصلاح من بعده الشيخ رشيد رضا ، وقام بواجبه الاسلامي في هذا الاصلاح ، كما ألف عدة كتب اسلامية . (٢)

وفي عام ١٩٢٨ للميلاد أنشأ الشيخ حسن البنا جماعة الاخوان المسلمين وكانت تهدف الى اقامة مجتمع اسلامي ، وتحاول تربية الأفراد تربية اسلامية متوازنة ، وقد أثبتت وجودها فعلا في المجتمع المصري ، فأنشأت المدارس والمستشفيات والمساجد والمكتبات ، والمصانع والشركات (٣) وأثبتت امكانية قيام مجتمع اسلامي يطبق أفراده التعاليم الاسلامية بقدر الامكان ، هذا وقد كان نشاط رجال الجماعة الثقافي بارزا للعيان ، فقد كتبوا العديد من المؤلفات الاسلامية (٤) التي تتحدث في شتى المواضيع وتهدف الى بيان الحياة الاسلامية السعيدة التي يجب أن يكون عليها المسلمون

(١) الفكر الاسلامي المعاصر ص ١٣ : ٥٤ .

(٢) وان كانت لنا ملاحظات على الشيخ محمد عبده ومدرسته ، ليس هنا مجال تفصيلها .

(٣) الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٣٧ : ٢٢٥ .

(٤) الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٨٠ .

اليوم . بالاضافة الى مقالاتهم التي كانت تظهر في الصحف والمجلات سواء
منها من كان تابعا لهم^(١) ، أو لغيرهم ولا يغيب عن البال المحاضرات
التي كانوا يلقونها في سبيل نشر الثقافة الاسلامية .^(٢)

ولاشك أن سيد قطب تأثر بهذه النواحي الأدبية والدينية تأثرا
كبيرا حيث كان يعايشها بكل كيانه ، واستعداده كامل للتفاعل معها
والاضافة اليها ونشرها بين الناس .

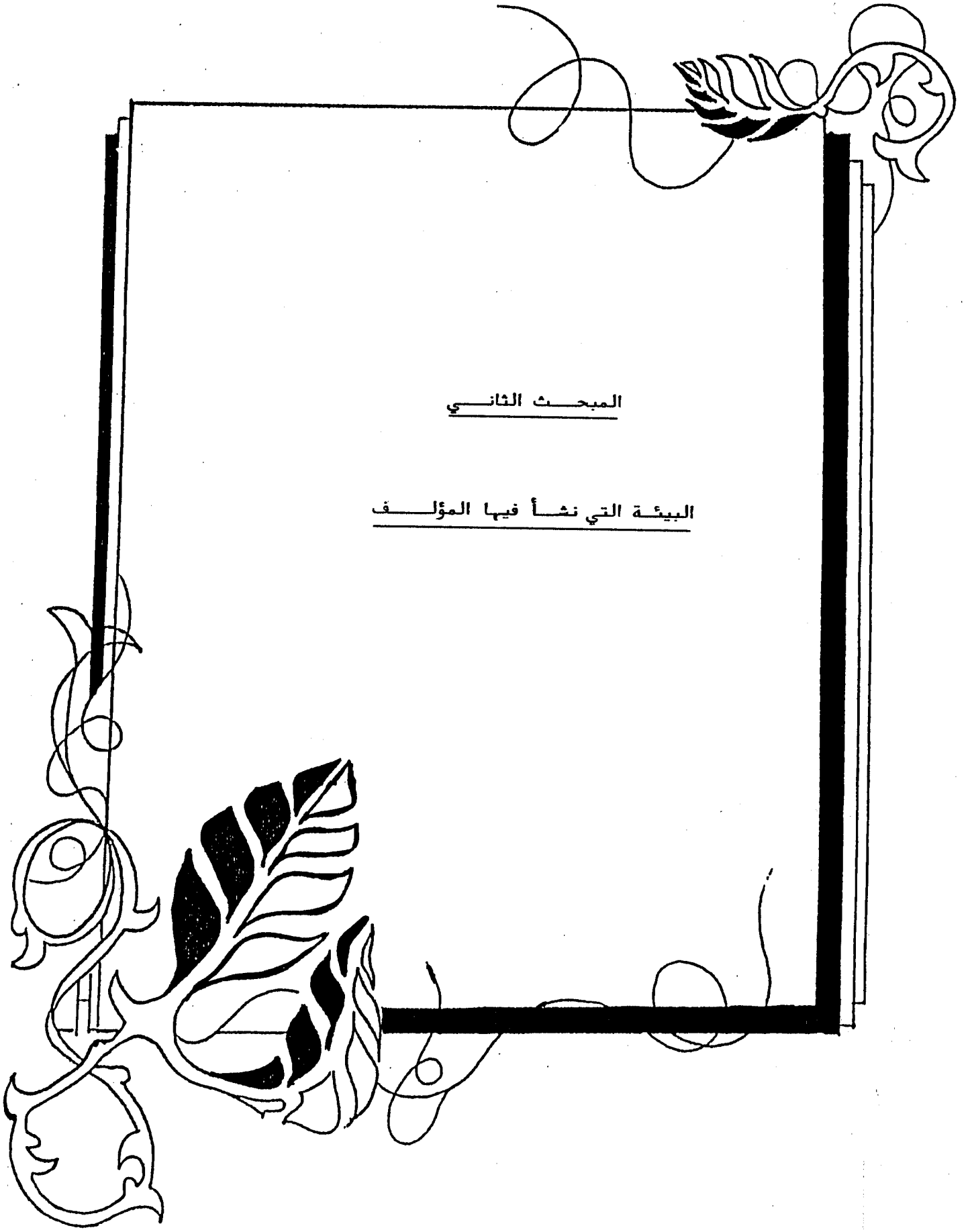
* * *

(١) الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٨٣ - ١٨٥ .

المبحث الثاني

البيئة التي نشأ فيها المؤلف



المبحث الثاني : البيئة التي نشأ فيها المؤلف :

ان البيئة التي نشأ فيها المؤلف الشهيد سيد قطب كانت في بدايتها في قرية صغيرة ، وفي أسرة كريمة متوسطة الحال متدينة شجعت ابنها البكر على الالتحاق بمدرسة القرية ، فكان أن أظهر تفوقا ملحوظا في دروسه ، وكان يكثر من الاطلاع على الكتب الأدبية بطبعه وبتشجيع من أساتذته وأهل قريته الذين توقعوا له مستقبلا باهرا خاصة وأنه قد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ،^(١) يضاف الى ذلك أنه كان يقرأ الجريدة اليومية - التي كان والده مشتركا فيها - لمن يحضر لاستماعها في منزله من أهل قريته ، كل هذا عمل على تكوين حصيلة ثقافية لديه بالاضافة الى التصورات التي رسخت في ذهنه عن قصص الريف الخرافية والأصوات التي ساعدت في تكوين الشعور المرهف لديه من فنون المحبين والغرباء وصياح المفجوعات من النساء وأدعية المصلين والانتقيا .^(٢)

أما البيئة التي عاشها شابا فكانت في المدينة حيث بدأ في تقوية حصيلته الثقافية منذ التحاقه بمدرسة المعلمين الى أن تخرج من كلية دار العلوم ، فكان أن ألمّ بكثير من العلوم الدينية والعربية بنسب مختلف بالاضافة الى اطلا عاته في علوم التاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والفيزياء وغيرها وكان يعي ما يدرس ويفهم ما يقرأ حتى فاق زملاءه وحاز اعجاب أساتذته ، وكان بعد تخرجه من الكلية يقرأ كل ما اتصلت اليه يداه ، أو تقع عليه عيناه .

(١) سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة ص ٩٠

(٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢١ بتصرف .

وكان أن تأثر بعدة أدباء تأثرا أدبيا وفكريا وخاصة شخصية استاذاه
العقاد الذي استفاد كثيرا من مكتبته وثقافته ومن نظراته في الأدب ،
والشعر والنقد والفن فصارت اهتمامات سيد أدبية فنية لفترة طويلة
من الوقت - مع أن المتوقع له أن يسير في طريق اسلامي لنشأته الدينيّة
الأولى - وبعد علاقاته الأدبية والفكرية اتصل بالقرآن الكريم وتأثر بالشيخ
محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، وكان ذلك عام ١٩٤٨ وهما من ذوى الاتجاه
الاسلامي الذين يدافعون عن الاسلام ويدعون الى تحكيمه في شئون الحياة
ويبرزون سمو النظام الاسلامي^(١) ، ثم ظهرت كتبه الاسلامية " التصوير الفني
في القرآن " و " مشاهد القيامة في القرآن " و " العدالة الاجتماعية في
الاسلام " ثم تتابعت كتبه الاسلامية بعد ذلك .

* * *

(١) سيد قطب خلاصة حياته لبركات ص ١٤ .

الفصل الثاني

حياة المؤلف

وفيه خمسة مباحث

- * المبحث الأول : اسمه ونشأته
- * المبحث الثاني : حياته الاجتماعية
- * المبحث الثالث : ثقافته الفكرية
- * المبحث الرابع : جهوده العلمية ومؤلفاته
- * المبحث الخامس : وفاته

* * *

المبحث الأول

اسمه ونشأته

الفصل الثاني

حياة المؤلف وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : اسمه ونشأته :

أصله ونسبه :

هو سيد بن قطب بن ابراهيم بن حسين شاذلي^(١) ، ولد عام ١٩٠٦ م في قرية موشا جنوب مدينة أسيوط حيث نشأ في اسرة ميسورة الحال .^(٢)

هذا وقد اختلف في أصله ، أهو مصرى أم هندى ؟ فذهب بعضهم ومنهم المبحاهذة السيدة زينب الغزالي^(٣) الى أن أصله هندى ، وأن أحد أجداده قدم من الهند الى مكة للحج ، ثم استقر واستوطن قرية موشا في صعيد مصر .

وذكر الاستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه " مذكرات سائح في الشرق " أن سيدا قد حدثه بذلك مبينا له السبب لزيارته للهند ومحددا له اسم جده السادس^(٤) ، غير أن الاستاذ محمد قطب نفى ذلك وقال " سمعنا من الوالد أن اسمه ينتهي بلقب " الفقير عبد الله " ولما كان لقب الفقير من الألقاب التي يسمى بها المنقطعون للدين وللعلوم الشرعية فقد ظننا - مجرد ظن - أن نسب الوالد ينتهي الى أصل هندى ، ولكن ليس عندنا ما يقطع بذلك .^(٥)

-
- (١) عن طريق الاستاذ محمد قطب .
 - (٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠
 - (٣) حينما أتت للجامعة عام ١٤٠٣ هـ مشافهة .
 - (٤) مذكرات سائح في الشرق ص ١٥٣ .
 - (٥) عن طريق الاستاذ محمد قطب سنة ١٤٠٣ هـ .

أسرته :

نشأ سيد في أسرة ميسورة الحال متميزة عن بقية أسر القرية وبوضوح ذلك ما بينه سيد نفسه من مكانة والديه في اسرتيهما حيث قال :

" كان والده قد صار عميد الأسرة المكلف بحفظ اسمها ومركزها ففي الوقت الذي لم ينله من الميراث الا نصيب محدود لا ينهض بما كانت تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة على حين لا يستطيع أن ينقص شيئاً من تكاليف المظهر في الريف وكان هو بعد هذا متلافا مضافاً فزاد ذلك في التكاليف التي لا تحتملها ثروته ، ولكنه حافظ على كل المظاهر والمطالب الى اللحظة الأخيرة .

وكانت والدته من أسرة مماثلة أو أعرق وقد وقع لها ما وقع لاسرة الوالد حرفاً بحرف ٠٠٠ ولكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا الى الأزهر في القاهرة شأن غالبية الأسر الريفية الثرية ، فأنشأ هذا في الأسرة نوعاً من الرقي العلمي بجانب الوجاهة الريفية . " (١)

وبتفصيل أكثر وبالنظر في بعض الكتب نرى :

أولا : والده :

كان رجلاً متديناً مرموقاً بين سكان القرية يهتم بزراعة أراضيه ويعطف على الفقراء ويبر بهم مما اضطره على ما يبدو الى أن يبيع قسماً كبيراً من أطيانه . (٢)

(١) سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٣ - ٢٤

(٢) مع سيد في فكره السياسي لمهدى فضل الله ص ٤٣ .

كما كان هذا الوالد مستنيرا بعض الشيء ، وكان عضوا في لجنة الحزب الوطني ومشاركاً في جريدته اليومية . (١)

وذكر الاستاذ " محمد توفيق بركات " أنه كان كر يما في الانفاق ويعتمد في معيشته على أراض واسعة نسبيا ، يشتغل له فيها الفلاحون بالاجرة ، ومع ذلك لم تكن نفقاته تتناسب مع مردود أرضه ، فلا يزال يبيع منها شيئا بعد شيء للوفاء بالديون التي تراكمت عليه لكثرة انفاقه . (٢)

وأرى أن كثرة الانفاق - استنتاجا من وصف سيد لوالده - راجعة لكونه متلافا مضيافا ، والى اقامته الولائم الكبيرة والحفلات والاجتماعات للقراء والخطباء وللمن يحضر من أهل القرية .

مع ملاحظة أن هذا الوالد كان يعيش واليوم الآخر نصب عينيه بمعنى أنه كان متسامحا ، جوادا ، متصدقا ، يؤثر غيره على نفسه ، ويعفو عن أساء اليه وذلك كله ابتغاء مثوبة الله في ذلك اليوم ، وخير ما يدل على هذه الصفات ما جاء في اهداء سيد لوالده كتابه " مشاهد القيامة في القرآن " حيث قال : " لقد طبعت في حسي - وأنا طفل صغير - مخافة اليوم الآخر ، لم تعظني أو تزجرني ولكنك كنت تعيش أمامي ، واليوم الآخر في حسابك ، وذكره في ضميرك وعلى لسانك كنت تعلق تشددك في الحق الذي عليك ، وتسامحك في الحق الذي لك بأنك تخشى اليوم الآخر . وكنت تعفو عن الاساءة وأنت قادر على ردها لتكون لك كفارة في اليوم الآخر . وكنت تجود أحيانا بما هو ضرورة لك لتجده زخرا في اليوم الآخر . وان صورتك لمطبوعة في مخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء

(١) سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٣

(٢) سيد قطب خلاصة حياته - لمحمد توفيق بركات ص ٩ بتصرف .

فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها الى روح أبويك في الدار الآخرة ونحن أطفالك المغار
نتمم مثلك بآيات منها متفرقات قبل ان نجيد حفظها كاملات . (١)

ثانيا : والدته :

كانت أمه من أسرة لها مكانة مرموقة في القرية جمعت بين الواجهة
العلمية والوجاهة الاجتماعية نظرا لايفاد اثنين من أبنائها الى القاهرة ليتعلما
في الأزهر .

وكانت والدته كريمة سخية تمنع الطعام وتعهده بنفسها للقراء الذين
يأتون لتلاوة القرآن في منزلهم ، وللعامل الغرباء الذين يعملون في حقول
الأسرة تجهزه - كما كانت تجهز طعام الأسرة - بنفس راضية راغبة ثوابه
جل وعلا . (٢)

وكانت دائمة الاستماع الى القرآن الكريم بخشوع وتأمل كما كانت تحث
ابنها سيدا على أن يقرأ لها القرآن وقد ذكر سيد هذه الصفة فيها في اهدائه
كتابه " التصوير الفني في القرآن " لها ، قائلا : " لطالما تسمعت من وراء الشيش
في القرية للقراء يرتلون في دارنا القرآن ، طوال شهر رمضان وأنا معك - أحاول
أن ألغو كالاطفال - فتردني منك اشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ، فأنصت معك
الى التريل ، وتشرب نفسى عذوبة ادائه وان لم أفهم بعد معناه وحينما نشأت
بين يديك بعثت بي الى المدرسة الأولية في القرية ، وأولى أمانيك أن يفتح
الله عليّ ، فأحفظ القرآن وأن يرزقني الصوت الرخيم فأرتله لك كل آ ن .

(١) مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ٣ باختصار .

(٢) طفل من القرية ص ١٦٦ .

ولقد رحلت عنا - يا أمه - وآ خر صورك الشاخصة في خيالى جلستك في
الدار أمام المذيع تستمعين للترتيل الجميل ويبدو في قسات وجهك النبيل
أنك تدركين بقلبك الكبير وحسك البصير - مراميه وخفاياه " . (١)

وكانت الأم حريصة على تربية أبنائها التربية الايمانية وكانت تعتنى
بسيد عناية فائقة - لأنه الابن الكبير بعد اخته التي تكبره بثلاثة اعوام -
وتغرس في نفسه من الصفات الايمانية مايجب أن يكون عليه رجل المستقبل من
عزة وكرامة واقتصاد ، وتحمل مسئولية ، فقد كانت تريد منه أن يكون رجلاً
قبل أوانه ، لذا كانت تفضى اليه ببعض ماكان يكدر صفو حياتها . (٢)

وقد توفيت والدته عام ١٩٤٠ م . (٣)

فاذا كانت والدته على هذه الصفات الحميدة فلاشك أنها تركت أثرا كبيرا

لموسا على حياته جعلت منه فعلا رجلا عظيما .

ثالثا : قرينته :

ولد سيد في قرية تسمى قرية موشا في جنوب مدينة أسيوط ، وقد نشأ
فيها ولم يغادرها الا عندما أراد الالتحاق بالمدرسة الثانوية أي في شبابه ، ونحن
حينما نذكر شيئا عن قرينته نذكره لأنها تركت أثرا عظيما عليه وساهمت
في تكوين شخصيته .

(١) أنظر التصوير الفني في القرآن ص ٥ لسيد قطب بتصرف يسير .

(٢) طفل من القرية لسيد قطب من ص ١٧٤ : ١٨٠

(٣) الأطياف الأربعة ص ١٦٨ .

وقد تميزت قرية سيد قطب بما يلي :

(١) لم تكن هناك فوارق كبيرة مادية بين أهالي القرية أى أن مستوى المعيشة في القرية بشكل عام متوسط بدليل أن الاطفال اذا فرحوا بالملايم كان سيد في كفه بضعة قروش ، واذا نال بعض الصغار قطعا من الحلوى كان حظه منها وافرا تعده أم رؤوم مدبرة من نفقة أب كريم وسع الله عليه بعض الشيء . (١)

وعن مستوى المعيشة يحدثنا سيدققول :

لم تكن الملكيات الكبيرة التي تشبه الاقطاع معهودة فيها فأكبر ملكية زراعية لم تكن تتجاوز المائتي فدان ، وقل أن يكون في القرية فرد أو بيت لا يملك قطعة أرض صغيرة أو كبيرة (٢) ، ولكل اسرة بيت مملوك صغيرا كان أو كبيرا ، أما الأكواخ الطينية فلم تكن معروفة في القرية ، وكان أكثر من نصف بيوتها مبنيا بالطوب الأحمر وسائرهما من اللبن .

وكان معظم البيوت تتألف من طابقين أو ثلاث وبعضها يصل الى الأربع وندر أن يتألف المنزل من طابق واحد حتى بيوت الفقراء . (٣)

والعلاقة بين أفراد القرية كانت قائمة على الود والمساعدة والحب

ولا مجال للحقد الطبقي فيها أو استعباد الآخرين .

يقول سيد في كتابه " طفل من القرية " لم يكن هناك خدم بالمعنى المعروف

في المدينة ... كان الخادم في القرية انسانا فقيرا محتاجا الى العمل ، ولكن

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠

(٢) طفل من القرية ص ١٥٧ .

(٣) طفل من القرية ص ١٥٨ .

لاينطق بكلمة " سيدى " المقيمة بل يستعيز عنها بكلمة " عمي " لسيد البيت ، وكلمة " امرأة عمي " لسيدته ٠٠٠٠ ثم هو يعمل في الدار أو في الحقل أو في تربية المواشي طوال اليوم فاذا جن الليل عاد الى بيته وأهله (١) أما مستوى المعيشة في القرية فهو مستوى معقول بالقياس الى القرى المجاورة - فأقرب بيت يأكل اللحم كل اسبوعين مرة وفالبا ما يأكلونها كل اسبوع ، والسمن البلدى معروف في البيوت جميعا .

والفاكهة من البطيخ والشمام والبلح والرمان والنبق والقثاء والخيار والجوافة والتفاح البلدى والقصب . تدخل البيوت جميعا مع اختلاف المقادير (٢) ولما كانت قرية سيد ثرية ومعروفة بالرقى نظرا لبناء بيوتها ونظافته سكانها فلاشك أنها بما حوته من مناظر طبيعية مرئية أو أصوات شجية قد أثرت في الطفل ذى الحس المرهف ٠٠٠ فمثلا خروجه المتكرر الى الحقول - تلك الأرض الطيبة الخضراء التى تغطى مساحات واسعة من القرية - ومن ثم مرجه مع اصدقائه فيها وانتقاله فيها من مكان الى آخر وتمتعه بما تشمله من مناظر خلابة - وخاصة في المواسم الثلاثة : اللوق ، الحصاد ، وبنى القطن (٣) - لاشك أن ذلك كله كان له أكبر الأثر في صدره وحببه للحرية وحب الطبيعة والتأمل فيها وحب عطاء الخير للآخرين .

(١) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٥٨

(٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٥٨

(٣) راجع طفل من القرية ص ١٥٦ .

وشيء آخر مرتبط بالحقول قد أثر في حس الطفل الصغير هو أصوات العمال الذين كانوا يكدون للعمل في القرية من قرى أخرى - نظرا لقلّة الأيدي العاملة فيها - ويصور سيد لنا هذا التأثير بقوله :

كانت أغاني هؤلاء الناس الشجية التي تقطر بالمرارة والأسى فــــي رجولة وتحمل تستجيش في نفسه الصغيرة انفعالات لا يديرها ولا يحاول التعبير عنها . ولكنه أبدا يحنّ إليها وينتظرها من العام للعام ، ويستكثر من انشادها ويطلب المزيد منها ان صمت القوم من التعب والاعياء وهم في كل مرة يجيئون به الى ما يطلب . فهو ابن سيد البيت الصغير ثم هو صديقهم فردا فردا ورئيسهم بوجه خاص . . . فكل مطالبهم من الدار وأهله تتم عن طريقه^(١) . ولا شك أن لمدرسة القرية أيضا دورا كبيرا في التأثير فيه حيث غرست في نفسه حب النظافة والنظام وعلمته كيفية احترام المعلمين وحبهم لدرجة أنه كان - رغم صغر سنه - يتمنى ان يكون مثلهم . . . كيف لا وقد كان يكن لهم تقديرا ملاء عليه أقطار نفسه .

نعم لقد أثرت فيه المدرسة أيما تأثير وليس أدل على ذلك من وصفه لها بافتخار حيث يقول :

" كان من مفاخر فريق المدرسة أشياء وأشياء بناء مدرستهم الأنيق النظيف بجانب بناء الكتّاب القديم القدر وفناؤها الفسيح والشجرتان الظليلتان به ، وزهرتهما الجميلة التي لانظير لها في القرية كلها الزهرة ذات الرائحة العطرة . (٢)

(١) انظر طفل من القرية لسيد قطب ص ١٦٠ .

(٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ٣٦ .

ويستمر في وصفه للمدرسة وما تحتويه من أدوات وأشياء يفتخر بها ويعتز
 وانه ليعترف بفضل معلمى المدرسة عليه ، وخاصة ذلك الناظر الشاب الذى كان
 يعتنى بتربية التلاميذ التربوية الخلقية والروحية والذى حاول بشتى الطرق
 تنقية أذهانهم من الخرافات المسيطرة على أحاسيسهم وشعورهم لدرجه أنه
 قام معهم بتجربتين^(١) ، لاثبات أن هذه الخرافات أساسها الجهل وبيان أن أصلها
 قصص مكذوبة أو حيوانات حقيقية يخاف المارة في الليل من أصواتها أو اشكالها
 في الظلام .

فقيام هذا الاستاذ الناظر - الذى يثق به ويحبه ويصدق ويتأثر به - بهاتين
 التجربتين معهم وتوجيهاته في كثير من الحصص حول هذا الموضوع جعل عنده
 عقيدة جديدة في الخرافات تخالف عقائد أهل القرية جميعا .

يقول سيد في كتابه " طفل من القرية " : " أرانب الدرب الضيق وامرأة البئر
 المهجورة كلتاها مع تعاليم الاستاذ المحبوب كان لها أثرها في الطفل وكانت
 سنه قد بلغت العاشرة وكاد يتم دراسته بالمدرسة ، فأخذت اسطورة الخرافات
 تفقد شيئا من قوتها في نفسه . . . أخذت تتزعزع الى الحد الذى يمكنه من
 اجراء التجارب بنفسه ، وهذا تقدم عظيم . (٢)

(٣) ان القرية فيها شئ من التنوير العلمى بدليل وجود مدرسة القرية النظامية
 بالاضافة الى كتاب القرية وعلاوة على زيارة بائع الكتب للقرية بين الحيــــــــــــن

(١) التجربة الأولى : وأثبت فيها أن ما يجدونه في الدرب الضيق هو أرانب حقيقية .
 والتجربة الثانية : أكد فيها ان المرأة الموجودة عند البئر المهجورة ما هي الا
 عجوز خرفة معروفة في القرية " طفل من القرية ص ١٠٠ - ١٠٥ " .

(٢) طفل من القرية ص ١٠٥ لسيد قطب .

والآخر ، وسيد قد جمع بين حسنتي المدرستين أخذ حفظ القرآن عن الكتاب ونظام الصفوف وساحة المدرسة الفسيحة ومنهاج الحساب والقراءة والنشيد من مدرسة الدولة . (١)

وبالنسبة لعلاقته بشراء الكتب من البائع الجوال فيقول عن نفسه :
 " اشتهر صاحبنا بالكتب والقراءة في أوساط المثقفين بالقرية فارتفع في أعينهم درجات وأخذ الجميع يتنبأون له بالمستقبل الزاهر . . . ماذا ؟ أليس على صغره يقتنى مكتبة ضخمة يبلغ من ضخمتها أن تملأ صندوقا كاملا " . (٢)
 كما يقول أيضا في موضع آخر : " وشيئا فشيئا أصبحت مكتبته هذه مصدر حركة ثقافية دائمة بما اجتمع له فيها من كتب ثمينة تبقى متداولة في الأيدي مستعارة على مدار العام " . (٣)

مما سبق يتبين لنا مدى تأثير الاستاذ سيد قطب بالمدرسة والناظر والكتاب والكتب حيث كان طالبا شجاعا مثابرا حافظا للقرآن ، وكان راضيا عن نفسه وعن مكتبته مغتبطا بسعة ثقافته وسعة شهرته ، ثم أصبح - فيما بعد - أديبا كبيرا ورائدا من رواد الفكر الاسلامي .

* * *

-
- (١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٢٠
 (٢) طفل من القرية لسيد قطب ص ١١٣ بتصرف يسير .
 (٣) طفل من القرية لسيد قطب ص ١٢٧ .

المبحث الثاني

حياته الاجتماعية



المبحث الثاني : حياته الاجتماعية :

لقد كان أثر القرية وما تحتويه على سيد قطب واضحا جليا ، فالمناظر الطبيعية الفاتنة من منظر المياه التي تغطي الأرض الى منظر الأرض المعدة للنبات الى منظر العمال الذين يبذرون الحبوب في الأرض ويعملون بجهد ونشاط الى منظر الدور المتشابهة في الارتفاع والبناء الى منظر الأشجار المثمرة المختلفة الأشكال والالوان ٠٠٠ الى غير ذلك من المناظر، كل ذلك ترك أثرا كبيرا في نفسه ، فاذا كانت عيناه تقع على تلك المناظر وغيرها فلا شك في الحصول على رصيد ضخم من الجمال في مخيلته ٠٠٠ كل ذلك وغيره قد أثر في حسه ، وساعد في بناء شخصيته وشعوره المرهف ، ومن ثم نشأته في اسرة متدينة قد غرس في نفسه أيضا الشيء الكثير : فوالده كان كثيرا ما يصلى في المساجد ويسير والخوف من اليوم الآخر نصب عينيه ، وكان كريما معطاء يحب العطف على المساكين ٠٠٠ ووالدته كانت كثيرا ما تتصدق على فقراء القرية ، وكانت تنصت الى القرآن بخشوع على النحو الذي اسلفت القول فيه ، كل هذا غرس في قلبه ونفسه المبادئ الايمانية السليمة من حفظ القرآن الكريم الى المحافظة على الصلاة في المساجد ، ومن محبة المساكين والعطف على الفقراء ومساعدة المحتاجين الذين يحس أنهم مظلومون أمثال العمال الغرباء الذين أطلع على أسرارهم ، وأحوالهم وعرف طريقة حياتهم ، وكل ما يتعلق بهم . ولا ننسى أثر مدرسة القرية عليه . (١)

هذا بالنسبة لنشأته الأولى في القرية ، أما بالنسبة لفترة حياته التي عاشها في المدينة شابا ، فقد عاش حياة اجتماعية مخالفة لروح الدين وروح الحضارة الانسانية ، وروح العصر ٠٠٠٠ عاش في وضع رأى أنه قد بلغ القمة في الفساد ولا يستحق البقاء اطلاقا .

يقول في أحد كتبه :

" وكل وضع اجتماعي يكون من نتائجه شل قوى الأمة عن العمل والانتاج ، فتعويقها بهذا عن النمو والتقدم ٠٠٠ هو وضع شاذ لا يفقد فقط حقه في البقاء بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف اذا اجتمع الى هذه الآفة أنه يهدر الكرامة الانسانية ويفسد الخلق والضمير ، ويقضى على كل معاني العدالة ويقتل الثقة الضرورية في المجتمع والدولة وينشر القلق ويذهب بالاطمئنان . (١)

هذا وقد فهم من بعض كتبه أن المجتمع المصري يتألف من طبقتين : طبقة راقية مترفة تخلت عن دينها ووطنيتها ، تعيش عالية على المجتمع المستعبد وهي طبقة الحكام والاقطاعيين أصحاب رؤوس الأموال ، وطبقة فقيرة عاملة وتنقسم الى مجموعتين : الأكثرية منها تعمل بأمانة وتضحى في سبيل الدين والشرف والكرامة ، والأقلية تعمل بنفاق لتحافظ على مصالحها الخاصة وهي أيضا تنقسم الى فئتين سامسة وضحايا ، ويؤيد هذا

(١) معركة الاسلام والرأسمالية لسيد قطب ص ٥٠

التقسيم قوله : " ان تضخم الثراء في جانب ، و بروز الحرمان في جانب من شأنه أن يخلق طبقة من الأثرياء الفارغين المتبطلين الذين يجدون لديهم وفرة من المال ووفرة من الوقت ، ووفرة من الطاقة الجسدية التي لا بد لها من متصرف . (١)

وقوله في موضع آخر : " عندئذ ينقسم المحرومون والمحرومات فريقين فريق السماسرة ، وفريق الضحايا ، فريق القوا دين وفريق الرقيق ، ولا عبرة بالفريق الثالث : فريق الشرفاء الذي يأبى أن يخضع للأغراء الضعيف ، انه فريق الذين لا يريدون الحياة ولا يريدون المتاع ، أو فريق الأبطال والقديسين . وما كل الناس ولا كثرتهم أبطال ولا قديسون (٢) ، ونظرا لسعة اطلاعه على النظم السائدة في عصره - كمذهب الحياء والمذهب القومي ، و النظام الرأسمالي والشيوعي - البعيدة عن الدين ، ونظرا للوضع الاجتماعي الذي عاشه كانت له نظرة جيدة سليمة النتائج في المجتمع السليم ، وهي أن لكل نظام من النظم الاجتماعية فلسفته والأسس التي ترتكز عليها سواء أكان نظاما سياسيا أم أخلاقيا أم اقتصاديا ، وان أنجح النظم الذي يقوم على عقيدة فكرية ثابتة - تعرف الانسان حق المعرفة - تعطى الانسان التصور الكامل والسليم عن الكون والوجود والحياة . (٣)

اما ما يتعلق بمسألة زواجه فالمعروف أنه أحب فتاة قاهرة وحينما أراد الاقتران بها اكتشف انها كانت تحب غيره ، فأثر الابتعاد عنها بعدا

(١) معركة الاسلام والرأسمالية ص ١٢

(٢) معركة الاسلام والرأسمالية ص ١٣

(٣) مع سيد في فكره السياسي والديني لمهدى فضل الله ص ٨٣ بتصرف .

عن المشاكل وحفاظا على كرامته ، فكان أن تزوجت بأول رجل تقدم لها -
غير من كانت تظن أنه يحبها - وبقي سيد بدون زواج .

يقول يوسف العظم :

" فعاش للفكر والعلم والكتاب ثم للدعوة والجهاد . (١)

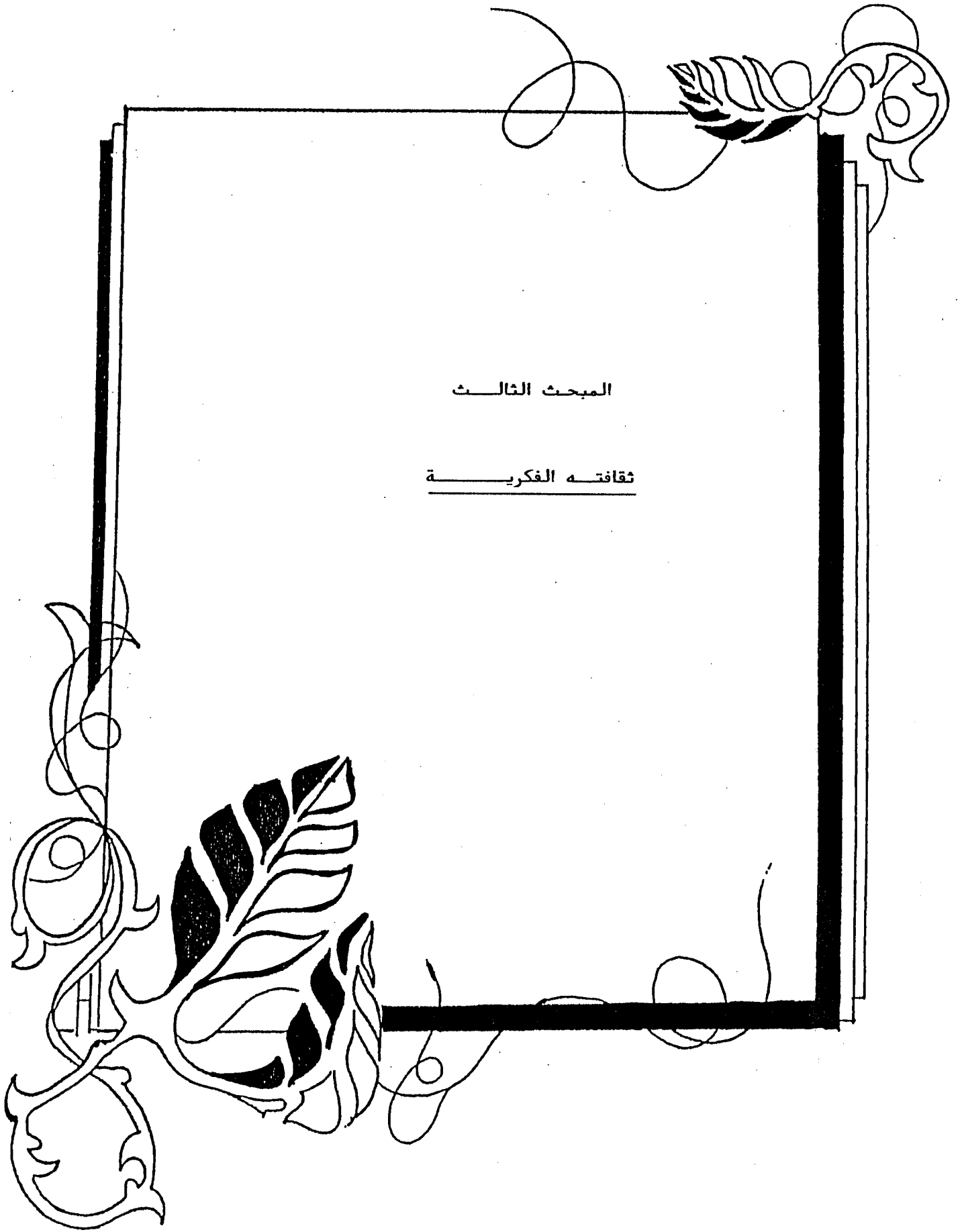
ورأيي أن هذا لا يمنع من أن يحاول ثانية ، خاصة اذا عرفنا أنه يقول بأن
الزواج سنة طبيعية وضرورية ، ويحاول أن يجمع بين السلوك والمعتقد
فكيف لا يطبق ما يقول أو لعل له وجهة نظر .

* * *

(١) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٣٤ .

المبحث الثالث

ثقافته الفكرية



المبحث الثالث : ثقافته الفكرية :

كانت نهضة الحياة الفكرية التي عاصرها سيد قطب كبيرة ، فقد شملت معظم المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية ، وكان للأدباء والشعراء والمصلحين دور بارز فيها خاصة في المناداة بأهمية الدين في المجتمع ٠٠٠٠ هذه النهضة كانت نتيجة الاحتلال الانجليزي المستعمر للمجتمع المصري - أولا - ونتيجة لاطلاع الكثير من المصريين على الثقافة الغربية الحديثة - ثانيا - هذه الثقافة التي تنادى بتنمية الفرد وباستقلال الفكر المادي الحر المتضمن فصل الدين عن الدولة - (١)

ويجدر بنا أن نقول : كان لهذه النهضة أثر فعال في المجتمع حيث أدت الى مطالبة الناس بحقوقهم في الاستقلال والعدل والحرية ، ومن ثم قيام الثورة وطرد الانجليز من البلاد .

وفي هذا الجو الفكري كان سيد قطب ما يزال يتزود من المعارف المختلفة والمعلومات الجيدة - من الثقافة الغربية - مضيفا رصيذا جديدا الى ثقافته الواسعة التي تحصل عليها أثناء دراسته ، وكان أن تأثر بعدة شخصيات بارزة أهمها الشيخ محمد عبده (٢) صاحب المدرسة الفكرية الإصلاحية ، والاستاذ عباس محمود العقاد (٣) ، صاحب المدرسة التاريخية ، والشيخ حسن البنا (٤) صاحب المدرسة التربوية ، كما اشرت الى ذلك سابقا ،

(١) مع سيد في فكره السياسي لمهدى فضل الله ص ٣٤ بتصريف .
 (٢) ، (٣) ، (٤) راجع الفكر الاسلامي المعاصر لغازي التوبة ص ١٣ - ١٢٧ - ١٩٧ .

وهذه الشخصيات تركت أثرا كبيرا في فكر سيد قطب ، وكان هذا الأثر ظاهرا فيما بعد في كتبه كما نرى في الظلال أمثلة لذلك حيث نجد فيها نفس الأسس التي اعتمد عليها الشيخ محمد عبده في تفسيره وهي:

(١) ان لله سننا في الخلق من حيث نظام الاجتماع البشرى وأسباب رقي الأمم وتأخرها وقوتها وضعفها .

(٢) ان الاسلام هو الدين الذي يجمع بين سعادت الدنيا والآخرة .

(٣) بيان أن المسلمين ليس لهم جنسية الا دينهم فهم أخوة فسي الاسلام لا يجوز أن يفرق بينهم نسب أو حكومة أو غنى أو غيره . (١)

أما بالنسبة لتأثره بالعقاد فقد كان من الناحية الفكرية الأدبية يؤيد ذلك :

أولا : مسانده له في المعركة الأدبية التي قامت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي . (٢)

ثانيا : تعليقه على الفقرة التي وردت في كتابه " التصوير الفني في القرآن " وفيها يقول :

" ومن تمام القول في طريقة القرآن التصويرية أن نجعل هنا ما تفرق في مواضع مختلفة في الكتاب عن الحياة التي يبيثها التعبير فسي التصوير ، فهي سمة بارزة فيه تحدد نوع التصوير ومستواه . ان المعاني

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ص ١١ ج ١

(٢) مع سيد في فكره السياسي والديني ص ٤٧ .

الذهنية والحالات المعنوية لم تستبدل بها صور فحسب ، ولكن اختيرت لها صور حية ، وقيست بمقاييس حية ومرت من خلال وسط حي " فعلق عليها في الهامش بقوله : " كان للاستاذ العقاد فضل توجيهي الى افراد هذه السمة القراء نية بالاشارة بعدما ورد منها في ثنايا الكتاب أمثلة متفرقة " (١)

أما الشيخ حسن البنا الذي طبق التعاليم الاسلامية وسار على نهجها فقد كان له تأثير كبير وقوى في الشهيد سيد قطب وفي أسلوبه - الذي كان يهتم بالتربية الروحية والدينية - كيف لا وقد علق غازی التوبة على ذلك فقال : وقد تطابق منهج البناء في التطبيق مع منهج الاسلام وتوازي أسلوبه مع أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام فأولى الانسان عنايته الكبرى ورباه واعيا عناصره من روح وفكر وجسد موازنا بين هذه العناصر مبتكرا في وسائل التربية بما يحقق الغرض ويتناسب مع أجواء القرن العشرين . (٢)

ولاشك أنه تأثر بغير هذه الشخصيات الثلاث خاصة اذا عرفنا أنه كان يقرأ مختلف المعارف التي انتجتها الثقافة الغربية ، وكل

(١) التصوير الفني في القراء ن لسيد قطب ص ٢٠٠ .

(٢) الفكر الاسلامي المعاصر لغازی التوبة ص ٢٢٠ ، ولي تعليق على رأى غازی التوبة القائل بأن حسن البنا اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ، حيث لا يمكن ان توازي دعوته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام وتكون مساوية لها كما يفهم من كلمة توازي .

ما كانت تنتجه المطبعة العربية من كتب مؤلفة أو مترجمة ، وكان
يقرأ لمختلف الأدباء والشعراء والمصلحين السابقين والمعاصرين
أمثال : حافظ ابراهيم ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، واحمد
أمين ، واحمد شوقي ، ونجيب محفوظ ، والمنفلوطي.....
وغيرهم . (١)

* * *

(١) لسيد قطب مؤلف بعنوان " نقد كتاب مستقبل الثقافة بمصر " أصدر طبعته
الأولى عام ١٩٢٩م ومستقبل الثقافة صدرت طبعته الأولى ١٩٣٧ ، وطه حسين
يدعو في كتابه أن تكون مصر جزءاً من الحضارة الغربية ، وفند سيــــــــــــد
قطب آراءه من الوجهة التربوية والتعليمية .

المبحث الرابع

جهوده العلمية ومؤلفاته

المبحث الرابع : جهوده العلمية ومؤلفاته :

يمكن اعتبار أن جهوده العلمية قد ظهرت فور تخرجه من كلية دار العلوم ، حيث عمل بالتدريس ست سنوات ، سنة في بني سويف ، وأخرى في دمياط وسنتين في القاهرة ، وسنتين في حلوان ، وكان خلال هذه السنوات يكتب في المجلات والصحف ما يحضره من قصة أو شعر أو نقد أو مقالة .

ثم انتقل موظفا في وزارة المعارف حيث عين مفتشا لفترة قصيرة ثم عمل في مراقبة الثقافة العامة ، وبقي في عمله مدة ثمان سنوات من عام ١٩٤٠ م الى عام ١٩٤٨ م وبعدها أرسل الى أمريكا في بعثة حكومية لدراسة نظم التربية فيها^(١) ، وحينما عاد من أمريكا بعد عامين نادى بأن مناهج التربية الأمريكية غريبة عنا لا تناسب مجتمعنا الاسلامي ولا ترتبط بأصالته العربية بأى رباط .

ثم أقبل على الثقافة الاسلامية أقبالا منقطع النظير حتى بلغ مجموع ساعات مطالعته في اليوم عشر ساعات كحد أدنى للبحث والاطلاع .

هذا ويعتبر سيد قطب صاحب مدرسة جديدة لها خصائصها المتميزة عن غيرها مدرسة اتجهت نحو التصوير الفني^(٢) ، تأثر فيها بمن سبقه وأثر في غيره كما كان له نشاط قيّم في النقد الأدبي واللغة العربية ، وكان

(١) أخبرني بهذا الاستاذ محمد قطب .

(٢) راجع نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصالح الخالدي ص ١٠٧ وما بعدها .

ينحو منحى الأدب الحر ، وقد كتب في موضوعات شتى اجتماعية وتربوية وأدبية وسياسية واقتصادية ودينية .

وللاستاذ سيد قطب مؤلفات عديدة في مجالات متعددة حيث كتب بعضها كسيرة ذاتية له صورفيها بيئته وقريته التي نشأ فيها ، ومثال ذلك كتابه " طفل من القرية " ومن مؤلفاته ماكان قصة أدبية خيالية كقصته " المدينة المسحورة " أو واقعية كقصة " أشواك " ومن مؤلفاته ماكان خواطر متناثرة كـ " الأطياف " ومنها ما يعد نقدا أدبيا مثل كتاب " مهمة الشاعر في الحياة " أو نقدا سياسيا كنقده لكتاب طه حسين الذي كتبه عن مستقبل الثقافة في مصر^(١) أو نقدا اجتماعيا مثل كتابه " كتب وشخصيات " .

وهو في كتابه " العدالة الاجتماعية في الاسلام " فرق بين الاسلام والمسيحية وبين علاقة الله بالكون والانسان والحياة وعلاقة هذه الأشياء ببعضها كما تحدث عن سياسة المال والحكم في الاسلام .

أما كتابه " معركة الاسلام والرأسمالية " فيعد تمردا على الباطل والفساد والترف الذي كان يعيشه الحكام ويعتبر دعوة صادقة لمحاربة ذلك . وكتاب " السلام العالمي والاسلام " بين فيه أن السلام موجود في الضمير والبيت والمجتمع والعالم كله وللاحاساس به لابد من كشف الغشاوة عن أعين الحيارى الغافلين ، وأما كتاب " نحو مجتمع اسلامي " فيعد دعوة حقة لبناء مجتمع عالمي مثالي رباني انساني ، وكتاباه " هذا الدين " يعتبر بلسمًا ودواءً وتشبيهاً للمسلمين يوضح لهم فيه ضرورة التمسك بهذا الدين ذي المنهج المتفرد الميسر المؤثر الصالح لهم .

(١) سيد قطب مؤلف بعنوان " نقد كتاب مستقبل الثقافة بمصر " أصدر طبعته الأولى عام ١٩٣٩م ومستقبل الثقافة صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٧م ، وطه حسين يدعوا في كتابه أن تكون مصر جزءا من الحضارة الغربية وفند سيد قطب آراءه من وجهة التربية والتعليمية .

وفي كتابه "المستقبل لهذا الدين" بيان واضح لخلاص الانسانية من عذابها حين تلتزم بمنهج الاسلام ، أما كتابه : " خصائص التصور الاسلامي ومقوماته " فهو أيضا بيان لخصائص التصور الاسلامي ، الملخصة في الربانية والشمول والتوازن والثبات والايجابية والواقعية ، أما معالجة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والحضارة القائمة وطرق الخلاص الصحيح فجاء في كتابه " الاسلام ومشكلات الحضارة " ، وكتابته "معالم في الطريق" يعد دعوة صريحة لتربية جيل قرآني مسلم فريد الاسلام دينه وحاكمه المولى عز وجل وتجارته انما تكون معه وحده لاشريك له ، والملاحظ أن سيده في كتابه الاسلامية يدعو بصراحة وصدق الى اعتبار الاسلام أساس كل شيء ويوضح أن الحضارة الحالية ماهي الا زيف وخداع وعذاب للانسانية . . . كل ذلك بأسلوب سهل واضح مدعم بأمثلة واقعية حية وبكل صدق لا يخشى معه لومة لائم .

وسيد قطب في كتابه السابقة - جميعها - كان يميل الى دقة التعبير وسلامة الأسلوب وكان جريئا في نقده وتعليقاته ، كما أنه كان يميل الى تصوير الواقع بصدق مما يدل على صراحته وقوته .

المبحث الخامس

وفاتنه

المبحث الخامس : وفاته :

أغلقت الحكومة " صحيفة الاخوان المسلمين " نتيجة معارضة الاتفاقية المصرية البريطانية ، وكان رئيس تحرير الصحيفة وقتها هو الاستاذ سيد قطب ، فكتب ونشر المقالات العديدة المؤيدة لتلك المعارضة ، ثم انتقل الى بني سويف من القاهرة ، وأصدر هناك نشرة سياسية سرية تفضح المخططات المرسومة للقضاء على الحركة الاسلامية ، فالقى القبض عليه^(١) وكان أن حكمت عليه محكمة الشعب بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع الاشغال الشاقة^(٢) ، لاقى وتعرض فيها لسنوف من التعذيب لاتظاهيها الا السوان التعذيب في محاكم التفتيش في أوروبا ، وتعذيب المسلمين الاريثريين في الحبشة ، وتعذيب المسلمين في الدول الشيوعية .^(٣)

وبالرغم مما كان يصيبه من اعياء ومرض وتعذيب الا أن الله هياأ له أسباب الاشتغال بالكتابة والتأليف فأصدر أهم كتبه على الاطلاق ، ونقح ثلاثة عشر جزءا من الظلال .

وبعد مضي عشر سنوات أفرج عنه سنة ١٩٦٤ م بعد التدخل من رئيس جمهورية العراق الرئيس عبد السلام عارف .^(٤)

-
- (١) مجلة المجتمع عدد /٢٠٥ تاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٧٤م صفحة ١٨ .
 (٢) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٣٩ .
 (٣) سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة لمحمد توفيق بركات ص ٢٠ .
 (٤) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٤٠ .

وبعد بضعة أشهر أعيد إلى السجن من جديد بتهمة الاعداد لانقلاب مسلح، فبقى فيه مدة عامين كاملين، وتكررت مأساة المحكمة السورية التي انتهت باعدام ثلاثة من قادة الحركة الاسلامية : سيد قطب ، ويوسف هواش ، وعبد الفتاح اسماعيل . (١)

وتحضرني بعض الكلمات للاستاذ سيد قطب - رحمه الله - قالها حينما كان يساومه بعض المسؤولين كي يقدم كلمات اعتذار لرئيس الدولة عما كان يفعله قال كلمات خالدة تبين ثباته على موقفه ويقينه على صحة أفعاله أذكر منها :

- (١) قوله : " ان أصعب السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفا يقربه حكم طاغية . (٢)
- (٢) وقوله : " ان كنت مسجوناً بحق فأنا أرضى حكم الحق ، وان كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل " . (٣)
- (٣) وقوله : " انهم لا يستطيعون لأنفسهم حذرا ولا نفعا . ان الاعمار بيد الله وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي ولا يستطيعون اطالة الاعمار ولا تقميرها كل ذلك بيد الله ، والله من ورائهم محيط . (٤)

(١) سيد قطب ، خلاصة حياته لمحمد توفيق بركات ص ٢١ .

(٢) أيام من حياتي لزينب الغزالي ص / ١٨١

(٣) الشهيد سيد قطب ليوسف العظم ص ٦٨

(٤) أيام من حياتي لزينب الغزالي ص ١٨١

(٤) واجابته على سؤال أحد اخوانه : لماذا كنت مريحا كل المراحة فسي المحكمة التي تملك عنقك ؟ قال : " لأن التورية لاتجوز فسي العقيدة وانه ليس للقائد أن يأخذ بالرخص " .

وفي صباح يوم الاثنين الموافق ٢٩ / ٨ / ١٩٦٦ م نفذ حكم الاعدام في الاستاذ سيد قطب وأصحابه^(١) فلقى الله مع اخوانه راضيا مرضيا ليضيف صفحة زاهرة لصفحات الجهاد والاستشهاد ٠٠٠٠ فاللهم ارحمهم وارحمنا في الدنيا والآخرة .

* * *

(١) أيام من حياتي ص ١٨١ - ١٨٢ .

الباب الثاني

اهتمام مؤلف الظلال بالتفسير بالمأثور

ويشتمل على

- * الفصل الأول : تعريف التفسير بالمأثور وأوانه واهتمام المؤلف به .
- * الفصل الثاني : الوحدة الموضوعية
- * الفصل الثالث : اعتماده على التصوير الفني ودلالاته البيانية
- * الفصل الرابع : توضيح العبر المستفادة من الآيات والقصاص
- * الفصل الخامس : الاهتمام بالاصلاح الاجتماعى

* * *

الفصل الأول

تعريف التفسير بالمأثور وألوانه واهتمام المؤلف به

ويشتمل على

- * المبحث الأول : تعريف التفسير بالمأثور
- * المبحث الثاني : ألوان التفسير بالمأثور
- * المبحث الثالث : استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور

* * *

الباب الثاني

اهتمام مؤلف الظلال بالتفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور أفضل ألوان التفسير وأولها بالاتباع ، وقد اهتم به سلف الأمة ، وظهرت فيه المؤلفات العديدة ، ولكل منهجه في ايراد مسائله وقضاياه .

وحيثما ننظر في ظلال القرآن نرى أن صاحبه رحمه الله تعالى سلك مسلكا خاصا حين كان يجعل الآية مع الأخرى تشركان في توضيح معنى أو بيان علم كما كانت له طريقته في الاستشهاد بالحديث النبوي وبأقوال الصحابة رضوان الله عليهم .

ولم يقم الظلال كله على التفسير بالمأثور بل كان جزءا منه ، وذلك تنبيه لازم حتى لا يتصور أحد أنى اجعله تفسيرا بالمأثور كتفسير الطبري ، وابن كثير وغيرهما .

وبالنظر فيما ورد في الظلال من مأثور نلمح منهجه من طريقته ومن أجل ابرازها كان هذا الفصل الذي يدور حول منهج الظلال في التفسير بالمأثور ، وسوف يكون مشتملا على المباحث التالية :

• المبحث الأول : تعريف التفسير بالمأثور .

• المبحث الثاني : ألوان التفسير بالمأثور .

• المبحث الثالث : استعانة سيد قطب بالتفسير بالمأثور .

المبحث الأول

تعريف التفسير بالمأثور



المبحث الأول

تعريف التفسير بالمأثور

* في لسان العرب :

الأثر بقية الشيء والجمع آثار .

والأثر الذي ذكر في حديث " من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ فـي

أثره فليصل رحمه " (١) ، يراد به الأجل ، ويسمى به لأنه يتبع العمـ (٢)

وفي القاموس: خرج في اثره وأثره (٣) بمعنى جاء بعده وتأثره (٤) وتتبع أثره في تأثرا ترك

فيه أثرا . والتأثير أيضا الأثر في الشيء . (٥)

والأثر يراد به ما ذكرته عن غيرك ، ومن هذا قيل حديث مأثور ، أي يخبر

الناس به بعضهم بعضا أي ينقله خلف عن سلف . (٦)

وما يهمننا هو المعنى الأخير

المأثور في اللغة : يعنى المنقول . (٧)

أما في الاصطلاح : فالتفسير بالمأثور ورد بعدة تعريفات :

الأول :

أنه يعنى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والأخذ بقول الصحابي

(١) صحيح البخارى كتاب الأدب باب من بسط له في الرزق ج ٧ ص ٩٥ ،

وصحيح مسلم بشرح النووي في كتاب البر والملة والآداب ، ملة الرحم وتحريم

قطيعتها ج ١٦ ص ١١٤ . ونص مسلم : من أحب ، وينسأ له .

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ١٩

(٣) بكسر الهمزة وفتحها .

(٤) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٥

(٥) تاج العروس ج ٣ ص ٤

(٦) لسان العرب ج ١ ص ١٩

(٧) سبق بيان معنى كلمة تفسير لغة واصطلاحا ص (١٨) من هذا البحث .

والأخذ بمطلق اللغة ، والتفسير بالمقتضى^(١) من معنى الكلام المقتضب^(٢)
من قوة الشرع ، فهذا التعريف اشتمل على أربعة أمور هي :

- (١) النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بروايات يمكن الاحتجاج بها .
- (٢) الأخذ بقول الصحابي رضي الله عنه .
- (٣) الأخذ بمطلق اللغة العربية .
- (٤) الأخذ بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع .

(١) المقتضى : زيادة على النص تثبت شرطا لصحة المنصوص ، ويصير
حكم المقتضى حكم النص ، ومثاله قوله تعالى (قَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)
من سورة النساء آية / ٩٢ ، يقتضى أن تكون الرقبة مملوكة ، ومثاله
إذا قال رجل لآخر اعتق عبدك عن الف درهم يقتضى البيع ، وإذا قال:
اعتق عبدك بغير شيء يقتضى الهبة ، والعلماء يقولون التحريم :
خطاب الله المقتضى للترك اقتضاء جازما - يختلف المقتضى عن المحذوف
اختلافا تاما لأن في المحذوف يتغير الحكم بعد ذكر المحذوف عما
كان قبله ، ومنه قوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) من سورة يوسف
آية ٨٢ ، وبذلك يظهر الفرق بين المقتضى والمحذوف " .
من كتاب المغني في أصول الفقه ص ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٢ لعمر بن محمد
الخبازي ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

(٢) جاء في تاج العروس : يقال : هذا شعر مقتضب ، وكتاب مقتضب واقتضبت
الحديث والشعر : تعلقت به من غير تهئية أو اعداد له ، واقتضب الكلام
ارتجله واقتضب حديثه انتزعه واقتطعه (ج ١ ص ٤٣٢) ، فيكون المقتضب
من قوة الشرع بمعنى المنتزع بصورة سديده أو سليمة .

الثاني :

أنه ماجاء في القرآن الكريم ، أو السنة الشريفة أو كلام الصحابة - رضوان الله عليهم - بيانا لمراد الله تعالى من كتابه^(١) ، وهذا التعريف ضم ثلاثة أمور هي :

- (١) تفسير القرآن بالقرآن الكريم .
- (٢) تفسير القرآن بالسنة الشريفة
- (٣) تفسير القرآن بكلام الصحابة رضوان الله عليهم .

الثالث :

أن التفسير بالمأثور يشمل المنقول عن الله - تبارك وتعالى - في القرآن الكريم والمنقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمنقول عن الصحابة - رضوان الله عليهم - والمنقول عن التابعين رحمهم الله . وهذا التعريف مركب من أربعة عناصر مهمة هي :

- (١) المنقول عن الله جل وعلا .
- (٢) المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم .
- (٣) المنقول عن الصحابة رضوان الله عليهم
- (٤) المنقول عن التابعين رحمهم الله

(١) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٥٦ - ١٦١ .
 (٢) مناهل العرفان للزرقاني ج ١ ص ٤٨٠ .

وبمقارنة التعاريف : أرى أن الجميع اتفقوا على الأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن صحابته الميامين ، فإغفل التعريف الأول تفسير القرآن بالقرآن كما أن التعريفين الأول والثاني لم يعتبرا بتفسير التابعين لكنى أختار التعريف الأخير لما يأتي :

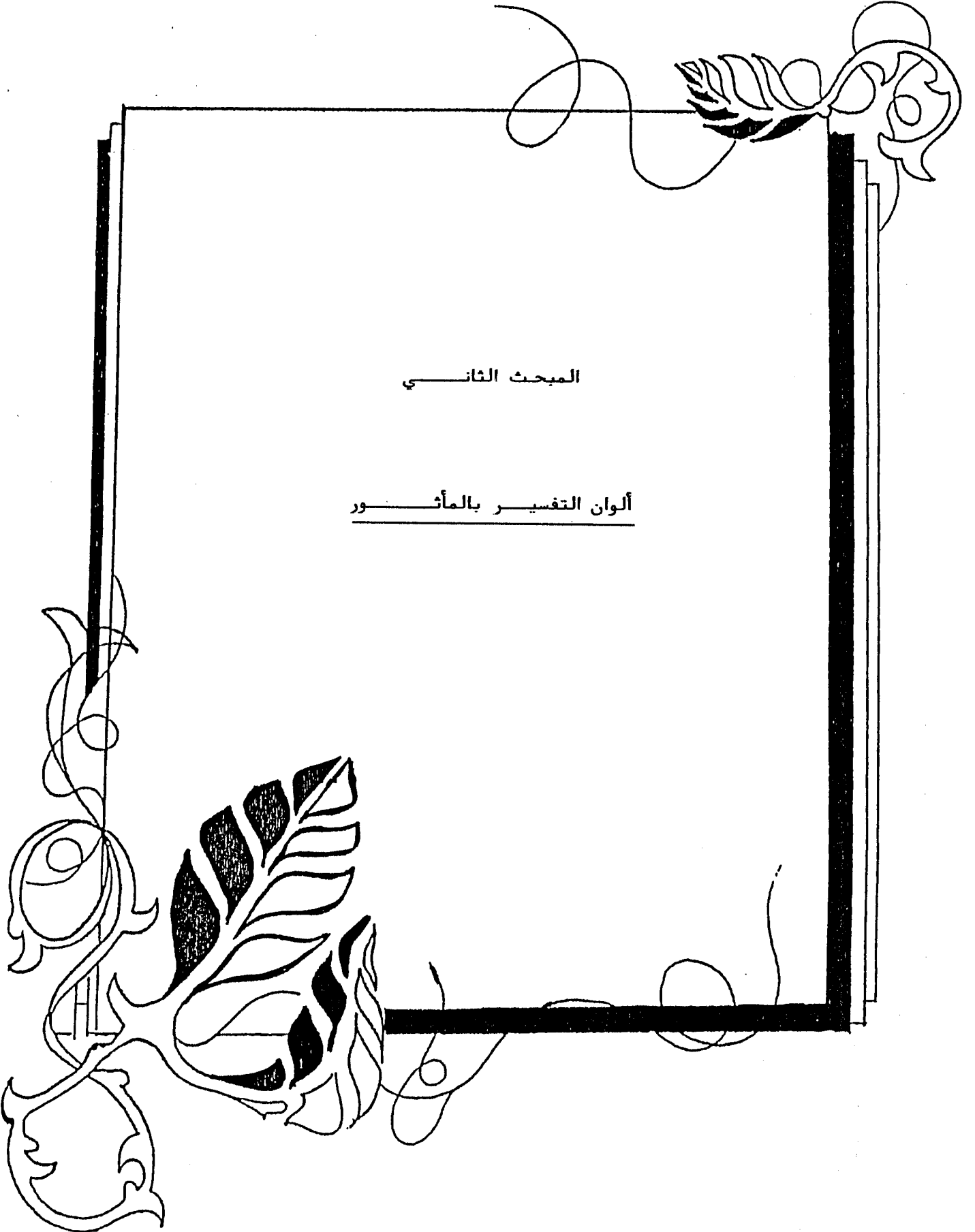
أولا : لأنه تضمن تفسير القرآن بالقرآن الكريم وهذا عنصر هام جدا ، حيث لا يعلم مراد الله الا الله جلت قدرته .

ثانيا : لأنه ضم تفسير التابعين وسيأتى أن اجتماعهم على الشيء حجة يؤخذ بها .

ثالثا : لأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الميامين نشأوا في وسط تمكن أهلهم من اللغة فأجادوها وأحاطوا بمناحيها وأساليبها ... فما جاء في التعريف الأول من الأخذ بمطلق اللغة هو قيد لا لزوم له اطلاقا بل يعتبر من الشروط الواجب توافرها في المفسر . فيكون معنى التفسير بالمأثور المرتضى هو : ما جاء عن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وما جاء منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو منقولا عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، أو منقولا عن التابعين رحمهم الله .

المبحث الثاني

ألوان التفسير بالمأثور



المبحث الثاني

ألوان التفسير بالمأثور

الأول : تفسير القرآن بالقرآن :

يعتبر تفسير القرآن بالقرآن أعلى مراتب التفسير على الإطلاق لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى وهو جل وعلا أعلم بمراد نفسه من غيره ولما كان أصدق الحديث كتاب الله اعتبر المصدر الأول للتشريع الاسلامي ولا بد من الرجوع اليه ابتداء في كل أمر ، ولا بد لمن يزيد تفسير شيء من كتاب الله جل وعلا - من التأمل والتدبر فيه ، ففيه من الآيات العديدة المفسرة لغيرها في أماكن أخرى ، وأحيانا يأتي تفسيرها عقبها مباشرة وهذا ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث يفسر القرآن بالقرآن ويحث الصحابة - والمسلمين من بعدهم - على ذلك ويدل عليه ما رواه عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)^(١) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أينما لم يلبس ايمانه بظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه ليس بذاك ألا تسمع الى قول لقمان لابنه : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)^(٢) ، فما كان من الصحابة ومن أتى من بعدهم الا أن يقتدوا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم لأنهم جميعا كانوا مدركين تمام الادراك بأنهم جل وعلا أعلم بمراد نفسه من غيره .

(١) سورة الانعام آية / ٨٢

(٢) رواه البخارى في تفسير سورة لقمان من كتاب التفسير ج ٨ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ من

فتح البارى ، وسورة لقمان آية / ١٣ .

وهذا ما أشار اليه ابن القيم بقوله :

" ان طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالأئمة الأربعة وغيرهم هي أنهم يردون المتشابه الى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ، ويبينه لهم فتتفق دلالاته مع دلالة المحكم وتوافق النصـوص بعضها بعضا ، ويمدق بعضها بعضا ، فانها كلها من عند الله " . (١)

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن :

(١) أن تفسر آية ما أجمل في موضع آخر من ذلك قوله تعالى في سورة

الفاحة :

(أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) .

فقد فسر جل وعلا المنعم عليهم - وهو أعلم - بقوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) . (٢)

يقول المفسر الجليل الطبري :

" فقبل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد اهدنا ياربنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك

والصديقين والشهداء والصالحين . (٣)

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) سورة النساء آية / ٦٩ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ج ١ ص ٥٨ .

(٣) أن تأتي الآية لتخصص ماجاء عاما في مكان آخر أو في نفس الآية
كقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) . (١)

ففي هذه الآية الكريمة نجد أن نفي الخلطة عام خص منه المتقون
في قوله تعالى :

(الإِخْلَافُ يَوْمَئِذٍ بِعَظْمٍ لِبَعْضِ عَدُوِّ إِلا الْمُتَّقِينَ) . (٢)

وكذلك الأمر بالنسبة للشفاعة فاستثنى الله من اذن له فيها بقوله
جل وعلا :

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) . (٣)

وما جاء عن الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم قطعي الثبوت وصاحب
الكلام أدري بمعاني كلامه ، وأعرف به من غيره ، فمن الضروري
جدا أن ينظر من يريد تفسير كتاب الله فيه بامعان :

ليتمكن أولا من معرفة ماجاء موجزا في موضع بما ورد مبسوطا في موضع
آخر ، ومثال ذلك قوله تعالى :

-
- (١) سورة البقرة آية / ٢٥٤ . والخلطة الصداقة والنسب . ابن كثير : ١ / ٣٠٤
(٢) سورة الزخرف آية / ٦٧ .
(٣) سورة النجم آية / ٢٦ .

(وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . (١)

وهذه الآية عامة في كل مطلقة ، ولم يبسط ويوضح هل هو في الزوجة المطلقة المدخول بها أم لا ؟ هل هو في الصغيرة التي لم تبلغ بعـد أم الكبيرة اليائسة من المحيض ؟ .

ولكن بالنظر الدقيق عرف أن لفظ (المطلقات) وان كان عاما لكن أريد به الخصوص في الزوجات المدخول بهن ذوات الحيض - أي غير الحاملات - وقد عرف هذا لأن ما ورد في السور الأخرى يشرح حالات الطلاق الثانية ويبسطها فعرفنا حكم المطلقة قبل الدخول بها بالآية الواردة في سورة الاحزاب وهي :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤)

وعرفنا حكم المطلقة وهي حامل والمطلقة الصغيرة ، وأيضا اليائسة

من المحيض بقوله تعالى :

-
- (١) سورة البقرة آية / ٢٢٨ .
 (٢) احكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ١٨٥ .
 (٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩٢٠ .
 (٤) سورة الاحزاب آية / ٤٩ .

(وَاللَّيِّ يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّيِّ لَمْ يَجْضَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) . (١)

وليحمل ثانيا المطلق على المقيد ، ومثاله قوله تعالى فـي

سورة المائدة :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَنْ ذُكِيَ عَلَى النَّصْبِ) (٢) الآية . (٣)

فالدم هنا مطلق عن القيد ولكنه ورد مقيدا في سورة الانعام بقوله

تعالى :

(قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلْيِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . (٤) فقيد الدم

هنا بكونه مسفوحا فيعلم أن المراد بالدم في آية المائدة الدم المسفوح المنصوص على تحريمه في آية الانعام لأن الحكم في الآيتين واحد وهو التحريم والسبب الذي بنى عليه الحكم فيهما واحد وهو كونه دما ، فلو كان الدم

(١) سورة الطلاق آية / ٤

(٢) المنخنقة : التي تخنق حتى تموت ولا تدرك ذكاتها ، والموقوذة : المضروبة حتى تشرف على الموت ، ثم تترك حتى تموت وتؤكل بغير ذكاة ، والمتردية التي تردت أي سقطت من جبل أو حائط أو في بئر فماتت ، النطيحة المنطوحة حتى ماتت وما ذكيتم : أي قطعتم أو داجه وأنهرتم دمه وذكرتم اسم الله عليه اذاؤبحتموه . تفسير غريب القرآن لمحمد بن ابي بكر السجستاني ص ٨٩ : ٩٠

(٣) سورة المائدة آية / ٣ .

(٤) سورة الانعام آية / ١٤٥ .

المحرم مطلق الدم لخلا القيد - وهو " مسفوحا " - من الفائدة . (١)

وليحمل المرید لتفسیر کتاب الله العام على الخاص ، ومثاله

قوله تعالى :

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

الآية . (٢)

فكلمة (المَيْتَةُ) هنا جاءت عامة شاملة لجميع أنواع الميتة ، لكن

وردت آية في نفس السورة خصمت نوعا من الميتة غير محرم ، بل

هو حلال حتى على المحرم .

يقول تعالى :

(أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ

الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) . (٣)

كما يقول جل وعلا في سورة النحل :

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) . (٤)

وليحمل المجمل على المبين ، ومثاله قوله تعالى :

(أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْقُ إِلَى نِسَاءِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ

(١) علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ١٩٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٣ /

(٣) سورة المائدة آية ٩٦ /

(٤) سورة النحل آية / ١٤ .

لَهُنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ
 قَالَتَنَّ بِشُرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
 الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . (١) الآية .

فقوله (مِنَ الْفَجْرِ) فسر وبين مجمل قوله تعالى " حتى يتبين لكم
 الخيط الأبيض من الخيط الأسود " اذ لولا كلمة (الْفَجْرِ) لبقى الكلام
 على تردده واحتماله وهذا التبين كما نراه هنا متصلا وقد ورد كذلك منفصلا
 في آية أخرى ومثاله قوله تعالى : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) من سورة
 الفاتحة فالمنعم عليهم فسرهِ وبينهُ (٣) قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
 النَّبِيِّينَ وَالْمُتَّقِينَ (٤) وَالشُّهَدَاءِ وَالْمَلْحِينَ وَحَسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) . (٥)

(١) سورة البقرة آية / ١٨٧ .

(٢) سورة الفاتحة آية / ٧ .

(٣) الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبي شهبه ص ٦٥ .

(٤) جاء في المفردات لغريب القرآن للاصفهاني ص ٢٧٧ أن الصديقين هم قوم دوين

الأنبياء في الفضيلة كما ورد أنهم الذين وافقت أفعالهم أقوالهم فصدقها .

(٥) سورة النساء آية / ٦٩ .

الثاني : تفسير القرآن بالسنة :

تعتبر السنة النبوية الشريفة في المرتبة الثانية لتفسير القرآن الكريم
وإذا صحّت نسبتها واسنادها للرسول صلى الله عليه وسلم فلا يجوز
أبدا العدول عنها الى غيرها ، ولأن وظيفته صلى الله عليه وسلم
البيان كما وضع ذلك المولى عزوجل بقوله :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (١)

هذا وتعتبر السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع ، فكيف لنا أخذ
منها تفسير كتاب الله وهو جل وعلا قد نصّ على ذلك ؟ ، كما حث على
اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعته وكان يقرن - دائما - طاعته
جل وعلا بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يؤكّد كون السنة المصدر
الثاني للتشريع .

يقول تبارك وتعالى :

(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (٢)

ويقول أيضا :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (٣)

(١) سورة النحل آية / ٤٤

(٢) سورة النساء آية / ٨٠

(٣) سورة النساء آية / ٦٥

كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بنفسه حين سأل معاذ بن جبل قبل أن يبعثه الى اليمن فقال : " كيف تقضي ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ؟ ، قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن في سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أجتهد رأيي . قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله (1) صلى الله عليه وسلم .

وقال صاحب الموافقات :

" وقد كملت قواعد الشريعة في القرآن والسنة فلم يتخلف عنها شئ ، والاستقراء يبين ذلك ويسهل على من هو عالم بالكتاب والسنة ولما كان السلف الصالح كذلك قالوا به ونصوا عليه". (2)

وهذا القول يريد به : أن السنة النبوية الشريفة شرحت ما جاء في القرآن وكملته وبينته في أمور كثيرة كأمر الصلاة والزكاة والحج والصوم فلا بد من الرجوع اليها بعد كتاب الله الكريم . وهناك آيات وأحاديث وأقوال كثيرة في بيان مرتبة السنة الشريفة وما ذكرته ما هو الا اشارة لا غير .

(١) سنن الترمذى كتاب الاحكام باب ما جاء في القاضي كيف يحكم ج ٢ ص ٣٩٤ ، وقال فيه : هذا حديث لا نعرفه الا من هذا الوجه " . قال الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن : وهذا الحديث في المسند والسنن باسناد جيد : ج ١ ص ٣ . ورواه احمد في مسنده ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ٢٩ .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة :

(١) بينت السنة الشريفة كثيرا مما أجمل من عبادات وأحكام وردت في القرآن الكريم ، كالزكاة التي لم يبين مقاديرها ، وأنواعها وأوقاتها ، فوضحت ذلك السنة ، وكذلك الأمر بالنسبة للحج ، وبالنسبة للصلاة ، فالصلاة لم يبين القرآن أوقاتها ولا عدد ركعاتها ، ولا كيفيتها ولا كل ما يتعلق بها من شروط أو أركان أو واجبات وجاء كل هذا موضحا في أفعاله صلى الله عليه وسلم وفي أقواله التي منها قوله عليه الصلاة والسلام : " صلوا كما رأيتموني أصلي" (١) .

(٢) وقيدت بعض ما جاء مطلقا في الكتاب الكريم كما في قوله تعالى :

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمْ) (٢)

يقول صاحب : السنة قبل التدوين :

" فان قطع اليد لم يقيد في الآية بموضع خاص فتطلق اليد على الكف وعلى الساعد ، وعلى الذراع ، ولكن السنة قيّدت القطع بأن يكـون من الرسغ (٣) ، وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) صحيح البخارى كتاب التمنى باب ما جاء في اجازة خبر الواحد ج ١٣ ص ٢٠٠ / من فتح البارى .

(٢) سورة المائدة آية / ٣٨ .

(٣) الرسغ : مفصل ما بين الكف والذراع وقيل الرسغ : مجتمع الساقين والقدمين وقيل : مفصل ما بين الساعد والكف والساق والقدم / لسان العرب ج ١ ص ١١٦٥ .

عندما (أتى بسارق فقطع يده) (١)، هذا وقد أتت السنة مبينة للقرآن الكريم فكانت تفسر مبهمه (٢) ، وقيد مطلقه (٣) وتوضح مجملته وتخصص ماكان عاما فيه وتشرح أحكامه بتفصيل مبسط كما وضحت أيضا الناسخ والمنسوخ منه ، وجاءت بأحكام زائدة على ما في القرآن الكريم (٤) ، فجزى الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

-
- (١) سنن الدار قطني ج ٣ ص ١٨١ ، وقال فيه ضعيف ، ولكن جاء في السنن أيضا ج ٣ ص ٢١٢ أن عليا رضي الله عنه كان يقطع من المفصل ويحسمها ولكن في السند حجية ابن عدى " تابعي " بضم الحاء وفتح الجيم وشدة مثناة تحت . المعني في ضبط الأسماء والكنى ص ٧٢ .
- قال فيه أبو حاتم : شبه المجهول ، وقال ابن حجر في الفتح ج ١٢ ص ٨٧ : الجمهور على القطع من الكوع ، ونقل بعضهم فيه الاجماع والسنة القطع من المفصل من حديث جابر وغيره ، وعمر كان يفعل ذلك . فالحديث كما نرى والله اعلم يتقوى بشواهد ، والكوع رأس اليد مما يلي الابهام . النهاية ٢٠٩/٤
- (٢) المبهم : هو الذي لا يفهم المراد منه ويأتي مرادفا لمعنى المجمل ، وهو مالم تتضح دلالته ج ٢ ص ٢٦ من كتاب الاتقان للسيوطي وقد سبق ذكر المثال عليه .
- (٣) المطلق : الدال على الماهية بلا قيد " ج ٢ ص ٤٠ من الاتقان للسيوطي " وقد سبق مثاله .
- (٤) كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها حيث ورد في صحيح مسلم بشرح النووى ج ٩ ص ١٩٠ وتحريم لحوم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ورجم الزاني المحصن وغير هذا كثير . المرجع نفسه : ١١ / ١٨٨ .

الثالث : تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

تأتي تفاسير الصحابة - رضوان الله عليهم - في المرتبة الثالثة وذلك لأن عدالتهم مقطوع بها ، فالآيات التي تشهد بفضلهم ومكانتهم - نتيجة اخلاصهم وصدقهم في نشر الدين - كثيرة أذكر منها قوله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فئازه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة (١) واجراً عظيماً) .

وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة التي تشهد بفضلهم وتبين مدى حُب النبي صلى الله عليه وسلم لهم كثيرة أذكر منها عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خير امتي قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) (٢) . وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا أصحابي لاتسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) (٣) .

(١) سورة الفتح آية / ٢٩ .

(٢) البخارى في كتاب الفضائل باب فضائل أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم ج ٧ ص ٤ - ٥ من فتح البارى واللفظ للبخارى ومسلم في

كتاب الفضائل باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ج ١٦ ص ٨٤ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب تحريم سب الصحابة ج ١٦ ص ٩٢ .

وقد سبق أن ذكرت في مبحث سابق^(١)، أقوال العلماء في وجوب الرجوع إلى أقوال الصحابة إذا لم نحصل على التفسير في كتاب الله ، ولم نجده أيضا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

(١) ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن أبي مليكة يحدث عن ابن عباس قال : وسمعت أخاه^(٢) أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال : قال عمر رضي الله عنه يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت :

(أَيُّودٌ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ)^(٣)

قالوا: الله اعلم فغضب عمر ، فقال قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس :

في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، قال عمر : يا ابن أخي قل ولا

تحقر نفسك ، قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل ، قال عمر : أى عمل ؟ ،

قال ابن عباس : لعمل ، قال عمر لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله

له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى اغرق اعماله .^(٤)

(١) وذلك في مبحث اهتمام العلماء بالتفسير.

(٢) القائل : وسمعت أخاه هو ابن جريج ، وأبو بكر بن أبي مليكة لا يعرف اسمه وعبيد بن عمير ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وسماعه من عمر صحيح / فتح الباري ، شرح صحيح البخارى لابن حجر ج ٨ ص ١٥١ .

(٣) سورة البقرة آية / ٢٦٦ .

(٤) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله أيود أحدكم أن تكون له جنّة ج ٨ ص ١٥١ من فتح الباري ، وذكره السيوطي في الاتقان ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) ما رواه مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها يا أمتهاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ، فقالت : لقد قفّ شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ثم قرأت :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (١)

(وَمَا كَانَ لِيَبْشِرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ) (٢)

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت :

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا) (٣)

ومن حدثك أنه ككّم فقد كذب ثم قرأت :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) (٤)

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين . (٥)

(١) سورة الأنعام آية / ١٠٣

(٢) سورة الشورى آية / ٥١

(٣) سورة لقمان آية / ٣٤ .

(٤) سورة المائدة آية / ٦٧ .

(٥) صحيح مسلم كتاب التفسير في تفسير بعض آيات من سورة النجم " ١١ - ١٣ " ج ٨ ص ٤٦٦ من فتح الباري .

(٣) وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء مشركوا قريش

يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي القدر فنزلت : (١)

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) . (٢)

وأكتفي أخيرا بقول ابن تيمية في تفسير القرآن بأقوال الصحابة

قال : " وإذا لم يتيسر التفسير بالقرآن والسنة رجعنا الى أقوال الصحابة

ولاسيما كبارهم ، فهم الذين شاهدوا التنزيل وعاصروا أسباب النزول

وعرفوا الناسخ والمنسوخ ، وتلمسوا الجوانب المحيطة بالقرآن والمعاني

التي أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهم انضر الناس منهم

وأقدرهم على الاجتهاد والاستنباط " . (٣)

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ج ١٦ ص ٢٠٥ بشرح النووي ، وأخرجـه

الواحدى في كتاب أسباب النزول ص ٢٢٨ .

(٢) سورة القمر آية / ٤٨ - ٤٩ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٦ .

الرابع : تفسير القرآن بأقوال التابعين :

يعتبر تفسير التابعين أقل درجة من تفسير الصحابة لأنهم لم يعاصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يدركوا الأحوال والقرائن وأسباب النزول التي اختلف بها الصحابة رضوان الله عليهم ، لذا عدّه العلماء - أي تفسير التابعين - في المرتبة التي تلي مرتبة تفسير الصحابة نظرا لاحتكاكهم بهم ، وتلقى غالب تفاسيرهم وعلومهم عنهم ، ولقربهم أيضا من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفرغ الكثير منهم لخدمة العلم والدين - وعدم تشاغلهم بالدنيا - فما جاء منقولاً - بطريق صحيح - عن التابعين رحمهم الله تعالى وان كان فيه خلاف فيكفي فيه ما يأتي :

أولا : وروده في كتب التفسير بالمأثور ، وخاصة ابن جرير وابن كثير .

ثانيا : قول ابن تيمية فيهم : اما اذا اجتمعوا على الشيء - ويقصد

التابعين - فلا يرتاب في كونه حجة فان اختلفوا فلا يكون قول

بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى

القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة . (١)

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥ .

ومن أمثلة تفسير القرآن بأقوال التابعين :

ما رواه ابن جرير عن عمرو بن قنادة قال : (سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يفسر هذه الآية :

(**قَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**) (١)

قال : من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عنده خير .

(**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**) (٢)

من مؤ من يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء) . (٣)

يروى ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم - في تفسير نفس الآية وسبب

نزولها - عن سعيد بن جبير قال (لما نزلت :

(**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**) (٤)

كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل اذا اعطوه فيجئ المسكين الى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمر والكسر والجوزة ونحو ذلك فيردونهم ويقولون ما هذا بشيء ، انما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظر

(١) سورة الزلزلة آية / ٧ .

(٢) سورة الزلزلة آية / ٨ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ، المجلد الثاني عشر ص ١٧٣ ج ٣٠ .

(٤) سورة الانسان آية / ٨ .

والغيبة وأشباه ذلك ويقولون انما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فانه يوشك أن يكثر وحذرهم اليسير من الشر فانه يوشك أن يكثر ، فنزلت : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (١)

فهذا المثال يعطينا دلالة على أن قول التابعين حجة في هذه المسألة لاتفاقهم على نفس المعنى ، كما يفيد أن المحققين من العلماء والمفسرين قد جمعوا الكثير من أقوال التابعين في كتبهم " دلالة منهم على أنهم ارتضوا ما ذهب اليه التابعون .

أما بالنسبة لتفسير القرآن بمطلق اللغة فقد ذكرت أنه من الشروط الواجب توافرها في المفسر ، وهذا الشرط لابد من الإشارة اليه لأنه متعلق بالتفسير بالمأثور - من ناحية مجيئه عن صحابي أو تابعي - واللغة العربية متعددة اللهجات - ولذا كان من الضروري الرجوع اليها ومعرفتها دقائقها وأسرارها ، والغريب منها .

قال ابن عباس في ذلك :

" التفسير أربعة :

- (١) حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته .
- (٢) تفسير تفسره العرب بألسنتها .
- (٣) تفسير العلماء .

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٤١ ، ولباب النقول في اسباب النزول للسيوطي

ص ٢٣٣ كما ورد نفس المعنى في كتاب اسباب النزول للواحدى ص ٢٥٨ .

(٤) تفسير لا يعلمه الا الله . (١)

فجعل ابن عباس من انواع التفسير تفسيراً تفسره العرب بألسنتها وصدق في ذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب بقوله تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (٢)

كما يقول جل وعلا :

(وَإِنَّا لَنَنْزِلُكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلٰى

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (٣)

فلا بد للمفسر الذي لم يجد بغيته في تفسير كلمة أو آية وهو قليل - من القرآن أو السنة أو أقوال الصحابة رضوان الله عليهم لابد له من الاجتهاد والتعمق في معرفة اللغة العربية وما يتعلق بها من اعراب ومعان ومفردات ، وبيان وبديع وغيره . (٤)

-
- (١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٧٥ ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١١٥ .
 (٢) سورة يوسف آية / ٢ .
 (٣) سورة الشعراء آية / ١٩٢ - ١٩٥ .
 (٤) البيان : هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح ، الدلالة عليه .
 والبديع : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة .
 الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح وتعليق د/ محمد خفاجي ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٤٧٧ .

هذا وقد اهتم بضرورة الرجوع الى العربية والتمكن منها كثير من العلماء^(١) ، فجعلوها من شروط المفسر حيث بها يدرك الاعجاز القرآني ولذا قال مالك بن أنس : لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا^(٢) ، ومن امثلة تفسير القرآن بلغة العرب .

* ما ذكر عن كثير من الصحابة والتابعين في التفسير خاصة ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه فقد أوتى من قوة الفهم وسعة الادراك ، وقوة الحفظ الشيء الكثير ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " .^(٣)

فكان رضي الله عنه يفسر القرآن بحسب المنهج القويم للتفسير : فهو اذا لم يجد المعنى في المأثور فسرهما بما جاء في لغة العرب .^(٤) وأمثلة ذلك كثيرة ، ولقد ذكر السيوطي مسائل نافع بين الازرق لابن عباس في تفسير القرآن بلغة العرب اذكر منها :

-
- (١) اذكر منهم السيوطي في الاتقان ج ٢ ص ٢٢٩ ، والشيخ محمد أبا شهبه في كتابه الاسرائيليات ص ١١٩ ، والشيخ الذهبي في التفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٨ .
 - (٢) البرهان للزركشي ج ٢ ص ١٦٠ .
 - (٣) أخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب معرفة الصحابة ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقال عنه : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ج ٣ ص ٥٣٤ ، وعلق الذهبي على الحديث بقوله انه صحيح .
 - (٤) وهذا أيضا لا يخرج التفسير عن كونه مأثورا لأنه عن صحابي كريم عاش في زمن الوحي ونزول القرآن .

(١) قال نافع : أخبرني عن قوله تعالى :

(وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) (١)

(٢) قال الوسيلة الحاجة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم

أما سمعت عنقرة وهو يقول :

(٣) ان الرجال لهم اليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

(٢) كما قال له : أخبرني عن قوله تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) (٤)

(٥) قال : فازوا وسعدوا . قال : هل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم

أما سمعت قول لبيد بن ربيعة .

(٦) فأعقلني ان كنت لما تعقلني ولقد أفلح من كان عقول

أى فاز وسعد .

* * *

(١) سورة المائدة آية / ٣٥

(٢) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) ديوان عنقرة ص ٣٣ داربيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ .

(٤) سورة المؤمنون آية / ١

(٥) الاتقان للسيوطي ج ١ ص ١٦٠ .

(٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة لابراهيم جزيين ص ١٤٤ منشورات دار القاموس الحديث

بيروت .

المبحث الثالث

استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور



المبحث الثالث

استعانة المؤلف بالتفسير بالمأثور

أولا : تفسير القرآن بالقرآن :

بيننا فيما سبق^(١) مدى اهتمام سيد قطب بالقرآن الكريم وحفظه ، ومحاولة اظهار مافيه من جمال التأويل ، ثم ارجاعه في احساس المسلمين جديدا كما تلقاه العرب أول مرة فسمروا به جميعا^(٢) ، كما اهتم بتفسير القرآن الكريم .

يقول رحمه الله محمدا اسلوبه في التفسير ومعتمدا فيه على القرآن نفسه : " وكل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن ، وما استطردت اليغير ما يوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية أو اجتماعية أو انسانية وما أحفل القرآن بهذه الايحاءات " .^(٣)

ويذكر أيضا أنه حاول أن يعبر عما خالج نفسه من احساس بالجمال العجيب في هذا الكتاب المعجز ، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير .^(٤)

وكما علمنا أن أول ماعاد التفسير وأهمها هو القرآن نفسه لأنه يفسر بعضه بعضا ، فما أطلق في مكان قد قيد في مكان آخر ، وما

(١) عند الحديث عن قرينته وتأثره بها .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ٧ .

(٣) ظلال القرآن ط ١ ج ١ ص ٦ ، دار احياء الكتب العربية .

(٤) المصدر نفسه : ج ١ ص ٦ ، ٧ .

أوجز في موضع قد بسط في موضع آخر ، وبقراءة كتاب المؤلف
 " في ظلال القرآن " نراه قد اهتم بتفسير القرآن بالقرآن بصورة عامة
 ولكنه لم يتبع المنهج المشهور في تفسير القرآن بالقرآن الا قليلا ،
 والملاحظ أنه اتبع طريقة أخرى حيث انه في اوائل السور كان يعطي فكرة
 عامة عن السورة المراد تفسيرها ثم يقسم السورة الى مقاطع ودروس بحسب
 تسلسل الآيات ويجمع أهم الآيات التي تتحدث عن موضوع معين ويعلق
 عليها بأسلوب سهل ممتنع ، بكلمات قليلة معبرة بعد أن يقدم لها
 بما يربط بينها وهو بهذا يقرب المعنى في الأذهان ، ويجعل الآيات
 تشترك في تقديم صورة متكاملة .

ولعل اتباعه لهذه الطريقة أنه يؤمن - وقد أصاب في ذلك - أن السورة
 القرآن نية ذات وحدة موضوعية متكاملة وأياتها دائما تدور حول هذا
 الموضوع .

ولذلك كانت طريقته في التقديم والختام جزءا من تفسير القرآن بالقرآن
 بصورة موضوعية حسنة ، وهذه الطريقة جديدة في بابها ولم يسبقه
 إليها - فيما اعلم - الا المرحوم أبو الأعلى المودودي رحمه الله
 في كتابه " تفهيم القرآن " . (١)

والملاحظ بشكل عام أنه اتبع طريقة ظاهرة في كتابه - رحمه الله -
 وهي أنه كان يأتي في أول كل سورة يحدد ملامحها العامة ويستعرض مسع

(١) تم ترجمة جزءين من هذا المؤلف الى العربية وطبعا بالقاهرة وقدمت رسالة
 عنه في جامعة أم القرى قسم الكتاب والسنة .

كل ملمح أهم الآيات المتعلقة به فكانت هذه الآيات تتعاون لتعطي معنى واحدا وان لم تأت في المصحف على الترتيب فيمكن - مع شيء من التجاوز - اعتبار هذا الأسلوب داخلا في التفسير .

ومثال ذلك :

(١) ماجاء في التعريف بسورة آل عمران حيث قال (١) في هذا المقطع الأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة ممثلا في أمثال هذه النصوص :

اذكر منها :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى قَرِيبٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ) (٢)
 (وَدَّت طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) . (٣)

(يَا هَلْ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٤)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ١ ص ٣٥٣ .

(٢) سورة آل عمران آية / ٢٣

(٣) سورة آل عمران آية / ٦٩

(٤) سورة آل عمران آية / ٧١

(قُلْ يَا هَلْ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا هَلْ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) . (١)

فالمؤلف قد أحسن في جمع هذه الآيات بعضها الى بعض ليبين الموقف
الحقيقي لأهل الكتاب من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة الممثلة في
الاسلام .

* فهم أولا لم يقبلوا تحكيم كتاب الله المنزل على النبي صلى الله عليه
وسلم واعرضوا عنه رغم أنه قد جاءهم كتاب من عند الله - وهو التوراة -
من قبل .

* وثانيا يودون خداع المسلمين وضلالهم وابعادهم عن حقيقة الدين
الحق وتلك غايتهم الثابتة الدفينة ، ولكن هيهات أن يكون النصر حليفهم
في ذلك .

* وثالثا يحاولون أن يغلبوا الجماعة المسلمة على عقيدتها فيخلطون
الحق بالباطل ويحاولون جهدهم إخفاء الحقيقة وخداع المسلمين مع علمهم
بأن هذا خطأ فادح وأى خطأ .

* ورابعا يبذلون قصارى جهدهم في أن يبعدوا الجماعة المسلمة عن حقيقتها
الايمانية ويحاولوا بشتى الطرق أن يحددوا بها عن منهج الله وطريقته

(١) سورة آل عمران آية / ٩٨ ، ٩٩ .

وما اللبـه بغافل عن كل ما يعملون ، لذا كشف نواياهم المستترة ووسائلهم
القدرية وأهدافهم الخطرة على الاسلام والمسلمين . (١)

وهكذا نراه قد وفق في ايضاح المعنى المشترك لهذه الآيات بربط

بعضها الى بعض

(٢) ومثاله كذلك :

ما جاء في مقدمة سورة الانفال حيث قال (٢) " ويبرز في سياق السورة
بصفة خاصة - الى جانب خط العقيدة - خط آخر هو خط الجهاد ، وبيان
قيمه الايمانية والحركية وتجريده من كل شائبة شخصية واعطاء مبرراته
الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء
الى آخر الزمان والسورة بجملتها تتضمن هذا الایحاء ، فنكتفي
ببعض النصوص في هذا التعريف .

يقول تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ
الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا
إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٣)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ١ ص ٣٥٤ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٤٦٦ .

(٣) سورة الأنفال آية / ١٥ ، ١٦

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ
فَمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَحَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ) (٢)
(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (٣)
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا بِأَتَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا نَبِيَّ قَوْمَ لَا يَفْقَهُونَ) (٤)
(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٥)

وبالنظر في النصوص السابقة ترى أن الآيات فعلا قد تعاونت لاعطاء
معنى مشترك يكاد يكون متكاملا عن الجهاد بل يربطه بالايمان . فالنص
الأول يأمر الله المؤمنين فيه بالثبات والصبر عند لقاء

(١) أى تغلبهم بهم في الحرب كما جاء في تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٢) سورة الانفال آية / ٥٥ - ٥٧ .

(٣) سورة الانفال آية / ٦٠ .

(٤) سورة الانفال آية / ٦٥ .

(٥) الاثنان : كثرة القتل والمبالغة فيه . والمعنى حتى يذل الكفر ويضعفه باشاعة
القتل في أهلة ويعز الاسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر ثم الأسر بعد ذلك :

الكشاف ج ٢ ص ١٦٨ .

(٦) سورة الانفال آية / ٦٧ .

الكفار^(١)؛ الذين لامعين لهم ويبين أن هروب المؤمن من مواجهة الكفار - مهما كثروا - يمس ايمانه وعقيدته وحر كته تلك ربما أحدثت تأثيرا في صفوف اخوانه المسلمين ، فاستحق لذلك سخطا من الله ومأوى ومستقرا في جهنم ،

والنص الثاني لا يصف الكفار بأنهم دواب فقط لعدم ايمانهم بل يثبتت أنهم شر الدواب - نتيجة اصرارهم على الكفر ورسوخهم فيه - فهم دائما ينقضون عهدهم في كل مرة^(٢)، ولا ينتقون الله مرة واحدة فكان جزاؤهم تخويفهم وتشريدهم وتغليظ عقوبتهم - هم ومن يؤيدهم من ورائهم من أمثالهم على أيدي المسلمين^(٣) وليخاف من سواهم من الاعداء ويصيروا لهم عبرة .^(٤)

والنص الثالث : يأمر باعداد مافي وسع المسلمين من قوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها لالقاء الرعب والرهبه والخوف في قلوب الاعداء ومن ماثلهم^(٥) ، وقد بيّن الله أن انفاق الممال

-
- (١) وذكر حالهم زحفا يعنى كونهم كالجيش الدهم الذى يرى لكثرتة كأنه يزحف " الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ١٤٨ " .
- (٢) جاء في الكشاف انهم بنو قريظة لأن شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهد ج ٢ ص ١٦٤ .
- (٣) في ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٤٨٧ : ١٥٤١ بتصرف .
- (٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٣٢٠ .
- (٥) قال مجاهد : يعنى بنى قريظة ، وقال السدى : الفرس ، وقال غيرهم : الشياطين ، ورجح ابن كثير المنافقين : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٢٠ .

في سبيل الله وان كان قليلا سيجزي الله عليه الجزاء الأوفى يوم القيامة والنص الرابع : يأمر الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بحسب المؤمنين على الجهاد والقتال والمبالغة فيه مطمئنا اياهم بأن النصر حليفهم ما صبروا ومهما كان عدد اعدائهم من الكفار الذين لا يدركون قيمة الايمان بالله والجهاد في سبيله فاستحقوا لذلك القهر والخذلان^(١)

والخامس : يوضح فيه مراده جل وعلا من الجهاد فهو يريد الاخلاص له وطاعتهم المطلقة له ، ويريد تمكين المسلمين في الأرض واضعاف شوكة المشركين ، كما يريد لهم الخير الكثير والثواب الجزيل المعسد لهم في الآخرة .

* كان المؤمن لف رحمه الله عند تفسيره لبعض الآيات يورد آيات من سور أخرى ليوضح المراد ويؤكد ، ومثال ذلك :

أ - عند تفسيره للمقطع الأخير من سورة هود الذي يبدأ من قوله تعالى :

((ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقَمُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ))^(٢)

الى قوله تعالى :

(وَلِيَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ)

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .^(٣)

(١) ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم لابي السعود ج ٢ ص ٥٠٥ ،

٥٠٦ بتصرف وايجاز .

(٢) سورة هود آية / ١٠٠ .

(٣) سورة هود آية / ١٢٣ .

قال رحمه الله : " هذه خاتمة السورة تشمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة مبنية على ما سبق في سياق السورة من المقدمة والقصص . وهـذـه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة متكاملة معه في اداء أهدافها كذلك " (١)

وعند تفسير قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

قال : " وهكذا اختتم السورة التي بدئت بالتهويد في العبادة والتوبة والانابة والرجعة الى الله في النهاية بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه اليه وحده والرجعة اليه في نهاية المطاف ، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون " (٢)

ثم قال أيضا : " ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص ١٩٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص ١٩٢٤ ، والطبي : نقيض النشر ، وأطواء

الثوب والصحيفة والبطن : طرائقه ومكاسر طيه .

لسان العرب لابن منظور ج ٢ ص ٦٣١ .

وطوى الله لنا البعد أى قربه : القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٦١ ، ويكون

أطواء القرون بمعنى ازمان القرون المطوية .

وغور كل شيء عمقه وبعده ، والغور : المطمئن من الأرض والغار الحجر الذي

يأوى اليه الوحش . . والجمع القليل من ذلك اغوار والكثير غيران : لسان العرب

ج ٢ ص ١٠٢٦ : ١٠٢٧ وعليه يكون اغوار بمعنى اعماق النفس .

بالأمر والنهي معا يؤكد أحدهما الآخر " .

وذكر نماذج لذلك من سورة هود ومن غيرها فمثلا يورد قوله

تعالى :

(الْبَرِّ كَتَبْنَا أَحْكَامَهُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) (١) مَنْ

سورة هود . ومنها أيضا قوله جل وعلا :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْاٰيْمِ) (٢)

ومنها أيضا قوله تعالى :

(وَاللَّيَّ عَادِ اٰخَاهُمْ هُوْدًا قَالَ يَقَوْمِ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلٰهٍ
غَيْرُهُ اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُونَ) (٣)

ثم يجمع معها الآيات الموضحة لنفس المعنى من سور أخرى فيورد قوله

تعالى :

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا اِلٰهَيْنِ اِثْنَيْنِ اِنَّمَا هُوَ اِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاِيَّ اِيَّ
فَارْهَبُوْنَ) . (٤) من سورة النحل .

(١) سورة هود آية / ١ ، ٢

(٢) سورة هود آية / ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة هود آية / ٥٠

(٤) سورة النحل آية / ٥١

وقوله تعالى :

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (١) من سورة آل عمران .

وقوله تعالى :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٢) من سورة الانعام .

ب - وعند ايراد المؤلف لقصة نوح عليه السلام - التي تناولتها سورة هود - مع ابنه ، وذكره لحقيقة الوشيحة الوحيدة التي يعتبرها القرآن الكريم - وهي الايمان بالله - ذكر أمثلة مستشهدا عليها بآيات قرآنية من سور أخرى جاءت على هذا النحو :

أ - مثل ما يكون بين الولد والوالد كما في قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وهو قوله تعالى :

(وَانْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَ نِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
صِرَاطًا سَوِيًّا ، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

(١) سورة آل عمران آية / ٦٧ .

(٢) سورة الانعام آية / ٧٩ .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٤ ص ١٨٨٦ .

لِلرَّحْمَنِ عَمِيًّا ، يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ
الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ
يَا بَرَاهِيمَ لِمَنْ لَمْ تَنْتَه إِلا رَجْمَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ^(١) قَالَ
سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي
شَقِيًّا قَلَمًا اِعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا
وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ^(٢)

ب - ومثل ما يكون بين الزوج وزوجه ^(٣) ، كما في قوله تعالى :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عَبَادِنَا مَلْحِيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِيْنَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِيْنَ
ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِيْ عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَنَجِّنِيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِيْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ) ^(٤)

- (١) قال الحسن ومجاهد مليا : دهرا طويلا : القرطبي ج ٥ ص ٤١٥٠ ،
والحفي : المبالغ في البر والالطاف ، وقال الفراء " انه كان بي حفيا " أي عالما
لطيفا يجيبي اذ دعوته : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج ٥ ص ٤١٥٢ .
ويمثله عن ابن عباس وقتادة ومجاهد في تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ .
- (٢) سورة مريم آية / ٤١ : ٥٠
- (٣) في ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٨٧ .
- (٤) سورة التحريم آية / ١٠ : ١١

جـ - مثل ما يكون بين المؤمنين وأرضهم وقومهم وأهلهم وممالحهم كما
 وقع لأصحاب الكهف مع قومهم^(١)، وكما وقع لابراهيم عليه السلام
 ومن معه مع أهلهم .

(١) وذلك في قوله تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ
 وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا
 هَؤُلَاءِ قَوْمَنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ
 بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ
 وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْهَىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
 وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) (٢)

(٢) وقوله تعالى :

(لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَمِيرٍ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
 إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا
 بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَحَدَّهُ) (٣)

(١) في ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٨٧ .

(٢) سورة الكهف آية / ١٣ : ١٦ .

(٣) سورة الممتحنة آية / ٣ - ٤ .

ب - وفي سورة الفرقان أيضا كان يستشهد^(١) لتفسيره بآيات قرآنية من سور
أخرى ليزداد المعنى وضوحا وذلك :

(١) عند تفسيره لقوله تعالى :

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)^(٢)

أراد أن يبين أن صفة العبودية وردت في القرآن الكريم ويراد بها بيان
موضع التكريم والتعظيم للمصطفين من بنى الانسان فقال : " كذلك وصفه
في مقام الاسراء والمعراج في سورة الاسراء :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَا)^(٣)

وكذلك وصفه في مقام دعائه ومناجاته في سورة الجن :

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)^(٤)

وكذلك يصفه هنا في مقام تنزيل الفرقان عليه كما وصفه في مثل هذا
المقام في مطلع سورة الكهف :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)^(٥)

(١) في ظلال القرآن م ٥ ص ٢٥٤٧ .

(٢) سورة الفرقان آية / ١

(٣) سورة الاسراء آية / ١

(٤) سورة الجن لية / ١٩

(٥) سورة الكهف آية / ١

والوصف بالعبودية في هذه المواضع له دلالتة على رفعه هذا المقام وأنه أرفع ما يرفع اليه بشر من بنى الانسان ، كما أن فيه تذكيرا خفيا بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لايزيد على أن يكون مقام العبودية لله . ويبقى مقام الالهية متفردا بالجلالة متجردا من كل شبهة شـرك أو مشابهة . ذلك أن مثل مقام الاسراء والمعراج أو مقام الدعاء والمناجاة أو مقام الوحي والتلقي كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل منها نشأت أساطير النبوة لله أو الصلة القائمة على غير الالهية والعبودية ، ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية في هذا المقام بوصفها أعلى أفق يرتفع اليه المختارون من بنى الانسان . (١)

(٢) وعند تفسيره لقوله تعالى :

(وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَكَةُ تَنْزِيلًا الْمَلَائِكَةُ
يَوْمَ يَدْعُ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) . (٢)

قال المؤلف : " وهذه الآية وكثير غيرها في القرآن يقرر أن أحداثنا فلكية ضخمة ستم في ذلك اليوم . وكلها تشير الى اختلال كامل في النظام الذى يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه ونجومه وكواكبه والى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته تكون به نهاية العالم ، وهو

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٤٨ .

(٢) سورة الفرقان آية / ٢٥ - ٢٦ .

انقلاب لا يقتصر على الأرض إنما يشمل النجوم والكواكب والافلاك ، ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور: متعددة - اذكر منها -

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّجَتْ
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) (١) (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ
وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَدَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ) (٢)
(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) (٣) (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا
وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا) (٤) (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ
وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) (٥)

ثم قال : وفي السورة - الفرقان - يخوف الله المشركين بتشقق السماء بالغمام ، وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين كما كانوا يقترحون ، لا لتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم (وكان يومئذ على الكافرين عسيرا) (٦) بما فيه من هول وبما فيه من عذاب ، فمأ لهم يقترحون نزول الملائكة وهم لا ينزلون الا في مثل ذلك اليوم العسير. (٧)

(١) سورة الانفطار آية / ١ : ٤

(٢) سورة الانشقاق آية / ١ : ٥

(٣) سورة الرحمن آية / ٣٧

(٤) سورة الواقعة آية ٤ : ٦

(٥) سورة القيامة آية ٧ : ٩

(٦) سورة الفرقان آية / ٢٦

(٧) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٦٠ .

جـ - وفي سورة الحاقة كذلك كان المؤلف عند تفسيره لبعض الآيات يورد آيات قرآنية من سور أخرى ليوضح المراد ويؤكدده كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

يقول رحمه الله : " ولقد كان قول المشركين على القرآن وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وانه كاهن ، وهذا القول شبهة سطحية منشؤها أن القرآن الكريم فائق في طبيعته على كلام البشر وأن الشاعر في ظنهم له رئي من الجن يأتيه بالقول الفائق وكذلك الكاهن فهو متصل بالجن ، فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع .

وهذه الشبهة الواهية تسقط بتدبير طبيعة القرآن والرسالة ومقارنتها بطبيعة الشعر والكهانة .

هذا الى أن التصور الثابت الذي جاء به القرآن وأنشأه في كلياته وجزئياته مع تعيين مصدره الالهي يوحي بأنه ليس للبشر القدرة على انشاء تصور كوني كامل كهذا التصور ... لم يسبق لهم هذا ولم يلحق (٢) ، ولم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف فاتجه الى مثل هذه الصورة التي جاءت في القرآن : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا

(١) سورة الحاقة / آية ٢٨ : ٤٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٦٨٦ بتصريف .

إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
(١) (الأنعام ٥٩)
 وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١)

أو الى مثل هذه الصورة :

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
 يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٢)

أو الى مثل هذه الصورة :

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ إِلَّا يُنْقِصُ
 مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (٣)

أو الى قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
 الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ
 اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 قَدْ قَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ
 فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ قَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

(١) سورة الانعام آية / ٥٩

(٢) سورة الحديد آية / ٤

(٣) سورة فاطر آية / ١١

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مَّتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
 وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ
 انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٢)

ونحن نرى أن المؤلف بذكره لهذه الآيات الكريمة يريد أن يثبت ما أثبتته القرآن الكريم نفسه من أنه - أي القرآن - منزل من عنده رب العالمين جل وعلا رب السموات والأرض ومن فيهن ٠٠٠٠ الذي عنده هذا العلم الشامل الدقيق والذي بيده مقاليد كل شيء فما من صغيرة ولا كبيرة حاصلة الا باذنه فهو وحده الذي يمكن أن ينسب اليه هذا القرآن العظيم ، ومن ثم يعقب المؤلف - رحمه الله - بعد هذه الآيات فيقول :

" وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب - مع ذكره لوجود كثير غيرها يدل دلالتها - " . (٣)

ثم يقول : " فما كان قولهم : ساحر أو كاهن الاحيلة ما ككرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا ، والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لا يحتاج الى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون

(١) الطلع : أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو : تفسير الخازن ج ٢ ص ٣٨ ، وقنوان جمع قنو ، والقنو بالكسر والضم والقناء بالكسر والفتح الكباسة وهو العذق بما فيه من الرطب :

تاج العروس ج ١٠ ص ٣٠٤ .

ويقول أبو السعود : القنوان جمع قنو وهو عنقود النخلة : تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٥٦ (٢) سورة الانعام من آية ٩٥ : ٩٩ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦٨٧ .

" انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن انما هو —
تنزيل من رب العالمين ، وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعنى أنه من انشائه
ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر لا يقوله شاعر ولا يقوله كاهن
انما يقوله رسول يرسل به من عند الله فيحمله من هناك من ذلك المصدر
الذى أرسله " . (١)

(٢) وهناك بعض السور فسّر المؤلف آياتها بدون استعانة بأمثالها
- من الآيات - من سور أخرى مثل سورة الرعد وسورة ابراهيم وسورة
الليل .

والحاصل أن مؤلف الظلال لم يغفل في تفسيره المأثور المفسر آيات
القرآن الكريم وقد استفاد به وفق منهجه الخاص به على النحو
الذى أشرت اليه .

* * *

(١) في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٦٨٨ .

ثانيا : استعانته بالسنة الشريفة في تفسير القرآن :

لما كانت السنة الشريفة بيانا للقرآن الكريم وتنفيذا لأمر الله
المائل في قوله تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)^(١)

كان تفسير القرآن بالسنة من التفسير بالمأثور ، ولا يجوز العدل عن السنة بحال في
تفسير القرآن اذا صحت نسبتها الى المصطفى صلى الله عليه وسلم
في هذا المجال .

وقد اهتم العلماء بالاحاديث الشريفة في تفسير القرآن الكريم ، ولكن
على درجات متفاوتة ، فمنهم من كان يضع الحديث أيا كانت درجته ، ومنهم
من كان يتحرى الصحيح ومنهم من يستشهد بالحديث ثم يلفت النظر الى
صحته أو الى أن في اسناده غرابة أو ضعفا أو خلافه .^(٢)

والاستاذ المؤلف سيد قطب كان كبقية المفسرين يهتم بتفسير القرآن
الكريم بالاحاديث الشريفة ولكنه لم يكن يسير في استعانته بالاحاديث على
اسلوب معين ويمكن أن أضع منهجه في ذلك بشكل عام في نقاط هي :

(١) كان يهتم بالاستفادة بالحديث بصورة عامة وخاصة في القضايا الأساسية
في الشريعة حتى أننا نجده في بعضها يكاد يستقصى ما ورد من

(١) سورة النحل آية / ٤٩

(٢) من كتاب لمحات في أصول الحديث للدكتور محمد أديب صالح ص ٧٩ - ٨٠ -

أحاديث ، ومن أمثلة هذا المنهج :

أ - ماجاء عند تفسيره لقوله تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ

الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (١)

يقول عن الأمة الاسلامية :

هذه صفتها ليدلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا الا أن تتوافق

فيها هذه السمة الأساسية ، التي تعرف بها في المجتمع الانساني

فاما أن تقوم بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- مع الايمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة ، واما أن لا تقوم بشيء

من هذا فهي غير موجودة ، وغير متحققة فيها صفة الاسلام . وفي

القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة ندعها لمواضعها

وفي السنة كذلك طائفة سالحة من أوامر الرسول صلى الله عليه

وسلم (٢) وتوجيهاته نقطف بعضها .:

(أ) عن أبي سعيد الخدري قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع

فبقلبه وذلك أضعف الايمان " . (٣)

(١) سورة آل عمران آية / ١١٠

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٤٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الايمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر

من الايمان ج ٢ ص ٢١ والترمذي في كتاب الفقه باب ماجاء في تغيير

المنكر ج ٣ ص ٣١٨ ، وقال فيه حسن صحيح .

(ب) وعن أبين مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماءؤهم ، فلم ينتهوا فجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فغضب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى بن مريم ثم جلس - وكان متكئا - فقال : " لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا " . (١)

(ج) وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم " . (٢)

(د) وعن العرس ابن عميرة الكندي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " . (٣)

-
- (١) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المائدة ج ٤ ص ٣١٨ وقال فيه : حسن غريب ، وأبو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ج ٤ ، ص ٥٠٨ بلفظ آخر وفيه " ولتأطرنه على الحق أطرا " أى لتردنه عن الجور ، وأصل الأظر : العطف والتثنى . عون المعبود شرح سنن أبي داود ، ج ١١ ص ٤٨٨ ، ورواه أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٩١ ، وجاء في القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٨ الأظر عطف الشيء وأن تجعل للشيء أطرة ، والفعل كضرب ونصر كالتأطير فيهما ومنحنى القوس والسحاب واتخاذ الاطار للبيت وهو بالمنطقة حوله .
- (٢) رواه أبو داود في كتاب الملاحم باب الامر والنهي ج ٤ ص ٥١٠ بنحوه ، والترمذى في ابواب الفتن باب ماجاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٣ ص ٣١٧ ، وقال فيه هذا حديث حسن .
- (٣) رواه ابو داود في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ج ٤ ص ٥١٥ . وسكت عنه ، وينظر درجة الحديث في مشكاة المصابيح رقم ٥١٤٤ للتبريزى ، المكتب الاسلامي ، واسناده حسن كما جاء في مشكاة المصابيح برقم (٥١٤١) في كتاب الآداب باب الأمر بالمعروف ج ٣ ص ١٤٢٢ .

(هـ) وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " . (١)

(و) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام الى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله " . (٢)

فالأحاديث الشريفة تعاونت لإقرار حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالحديث الأول : يأمر فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بتغيير المنكر باليد ما استطاع الرائي له الى ذلك سبيلا فان لم يتمكن فليغيره بلسانه ، فان لم يتمكن فليغيره بقلبه .
والحديث الثاني : يحث فيه على أخذ جميع الناس - ولو كانوا علماء غافلين - بالحق وردهم اليه ان أخطأوا الطريق .

والثالث : يلزمهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاذا لم يمتثلوا لذلك عرضوا أنفسهم لنزول العذاب عليهم وعدم استجابة دعواتهم .
والرابع : يبين فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن من حضر خطيئة أو ، معصية فأنكر فهو كمن لم يشهدها أما من لم يشاهدها ولكن

(١) رواه الترمذى في كتاب الفتن باب أفضل الجهاد كلمة عدل ج ٣ ص ٣١٨ وقال فيه حسن غريب من هذا الوجه ، ورواه ابو داود بلفظ " أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر " في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ج ٢ ص ٥١٤ ط ١ دار الحديث للطباعة والنشر حمص - سورية .
(٢) رواه الحاكم في المستدرک كتاب معرفة الصحابة باب أفضل الشهداء حمزة بسن عبد المطلب ج ٣ ص ١٩٥ وقال فيه : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافق عليه الذهبي .

رضيها فهو كالمشاهد لها المشترك فيها ،

والخامس : يوضح فيه أن من أعظم الجهاد وأفضله كلمة عدل وحق

عند امام ظالم .

والسادس : يبين أن من قتله الامام الظالم لقوله الحق وأمره بالمعروف

اعتبر من سادة الشهداء .

ب- ما أتى به عند تفسير قوله تعالى :

(لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ

وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) . (١)

حيث قال : "ومن ثم ارتجفت نفوسهم وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه

يجزون به ارتجفت نفوسهم كالذى يواجه العاقبة مثلا ويلامسها

وهذه كانت ميزتهم أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ويعيشوا فيها

فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب

ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الاكيد " (٢)

وأورد عددا من الاحاديث يفسر الآية ويوضحها منها :

مارواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : " لما نزلت : (مَنْ

يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ) شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول

(١) سورة النساء آية / ١٢٣ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٦٣ .

الله صلى الله عليه وسلم : سدوا وقاربوا فان في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها " . (١)

فالحديث يوضح أن المسلمين يجزون بما يعملون من سوء في الدنيا ويوجههم الى أن يسدوا حتى يلقوا الله وليس عليهم ذنبٌ — أما غيرهم من المشركين والكفار فيجمع لهم ذلك حتى يجزون به يوم القيامة .

و - وما أورده عند تفسير قوله تعالى :

(إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٢)

حيث ذكر أن للتعبير بالود في هذا الجو نداوة رضية تمس القلوب ، وروح رضى يلمس النفوس وهو ود يشيع في الملائكة الأعلى ثم يفيض على الأرض والناس فيمتليء به الكون كله ويفيض . (٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 " ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال يا جبريل اني أحب فلانا فأحبه ، قال فيحبه جبريل ثم ينادى في أهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول

(١) صحيح البخارى كتاب المرض باب أشد الناس بلاء الأنبياء ج ١٠ ص ٩٧ من فتح البارى ، ومسلم في كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ج ١٦ ص ١٣٠ واللفظ له ، والترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة النساء ج ٤ ص ٣١٤ وقال فيه هذا حديث حسن غريب ، والنسائي في كتاب الايمان وشرائعه في باب الجهاد ج ٨ ص ١٢١ .

(٢) سورة مريم آية / ٩٦

(٣) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٢١ .

في الأرض ، اذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : أنسى
أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل
السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم
توضع له البغضاء في الأرض . " (١)

وانها لمكرمة من أعظم المكارم أن يتكرم المولى عز وجل بمحبة
عبده ومن ثم تشيع محبة ذلك العبد في الملاء الأعلى الطاهر فتغمره
وتفيض بعد على الأرض ومن فيها .

ان المحبة وصفاء السريرة مكرمة من مكارم الأخلاق الحميدة تكفي
المسلم وتغمره بالسعادة اذا وجدها من شخص مثله تماما فكيف
اذا كانت من رب العباد وخالق الكون .

٢ - كان سيد قطب يهتم بايراد الأحاديث الصحيحة وغالبا كان يأخذ
من الصحيحين أو غيرهما من الكتب الستة ومثال ذلك :

أ - ماجاء به عند تفسير قوله تعالى :

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ
اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (٢)

(١) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ج ٤ ص ٩٤
وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب البر والصلة باب اذا أحب الله عبدا ج ١٦ ص ١٨٤
واللفظ له ، ورواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ج ٤ ص
٣٧٨ ، ٣٧٩ وقال فيه حديث حسن صحيح ، وفي مسند احمد ج ٥ ص ٢٦٣ .

(٢) سورة النساء آية / ٩٥

حيث قال : وهذه الدرجة يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه في الجنة ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض " .

(١)
رواه البخارى ومسلم .

ب - وما جاء به عند تفسير قوله تعالى :

(ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . (٢)

حيث ذكر ما معناه : أن النحل تتخذ بيوتها - حسب فطرتها - في الجبال والشجر وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق ، والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب ، وهو ثابت بمجـرد نص القرآن عليه وهكذا يجب أن يعتقد المسلم فيه - أى العسل - فشاؤه للناس ثابت في كتاب الله (٣) كما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث روى البخارى ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء ج ٨ ص ٢٢٢

بلفظ "كل درجتين ما بينهما كما بين السماء . . ." و ج ١٣ ص ٣٤٩ من فتح البارى ، وصحيح مسلم كتاب الامارة باب ما أعد الله للمجاهدين ج ١٣ ص ٢٨ .

(٢) سورة النحل آية / ٦٩ .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الرابع ص ٢١٨٠ باختصار وتصرف .

جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى استطلق
 بطنه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسقه عسلا
 فسقاه ثم جاءه فقال : انى سقيته عسلا
 فلم يـزده الا استطلقا فقال له ثلاث مـرات
 ثم جاء الرابعة فقال : اسقه عسلا فقال:
 لقد سقيته فلم يـزده الا استطلقا فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله
 وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ .
 (١)

وذكر المؤلف تعليقا على الحديث فقال : ويرونا في هذا
 الأثر يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام ما بدا واقعا
 عمليا من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه ، وقد انتهى هنا
 اليقين - بتصديق الواقع له في النهاية - وهكذا يجب أن يكون
 يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله .
 (٢)

٣ - كان يقدم الحديث على ما عده من أقوال الصحابة والتابعين
 اذا ذكر أقوالهم ومثال ذلك : ما ذكره عند تفسير قوله تعالى :

(١) عند البخارى بالفاظ مختلفة .

وعند مسلم واللفظ له .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٨١ .

(١) (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم)

حيث يقول : اختلف السلف في تفسير آية الدخان ، فقال بعضهم :

(٢) انه دخان يوم القيامة ، وقال بعضهم بل هو قد وقع فعــــــــــــلا
 واستشهد لذلك بحديثين رجع الثاني منهما فيما بعد .

الحديث الأول :

عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في كندة فقال : يجــــــــــــىء
 دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماء المنافقين وأبصارهم
 يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ففرعنا فأتيت ابن مسعود وكان
 متكئا فغضب فجلس فقال : " من علم فليقل ومن لم
 يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول لما يعلم
 لا أعلم فان الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل
 ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين " وان قریشا
 أبطوا عن الاسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليه
 وسلم فقال : " اللهم اعن عليهم بسبع كسبع يوسف "

(٣)
 فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها .

(١) سورة الدخان آية / ١٠ - ١١ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٢١٠ .

(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب سورة الروم ج ٨ ص ٣٩٤ من فتح
 البارى .

- وفى رواية أخرى - فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بين يديه وبينه وبين السماء كهية الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السمام بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم) قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل يارسول الله استسقى الله لمضر فانها هلكت قال : لمضر ؟ انك لجرىء فاستسقى فسقوا فنزلت (انكم عائدون) فلما اصابتهم الرفاهية عادوا الى حالتهم حين اصابتهم الرفاهية فأنزل الله عز وجل (يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) . قال يعنى يوم بدر .

وعن مسروق عن عبدالله بن مسعود قال : خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان . (٢)

(١) سورة الدخان آية ١٦ .

(٢) ومعنى اللزام اى يوم بدر وفي القاموس المحيط لزوم ككتاب الموت والفيصل ج ٤ ص ١٧٧ وسميت بدر بذلك لأنها فصلت بين الحق والباطل ، لذا سميت ايضا بيوم الفرقان في قوله تعالى : (وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) من سورة الانفال آية ٤١ والبطشة الكبرى ايضا كانت يوم بدر وهو ما ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح البارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة الروم ج ٨ ص ٣٩٤ ، والترمذى في كتاب التفسير ج ٥ ص ٥٧ والحديث ذكره مؤلف الظلال بتصرف فيه .

والحديث الثاني :

في أنه لم يمضى بعد بل هو من امارات الساعة حيث
ورد عن ابي سريحه حذيفه الغفاري قال :
اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن
نتذاكر فقال : ماتذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة
قال : انها لن تقوم حتى تبيرون
قبلها عشر آيات فذكر الدخان
والدجال والدابة وطلوع الشمس
من مغربها ونزول عيسى ابن مريم صلى
الله عليه وسلم وياجوج وماجوج وثلاثة
خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف
بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن
(١)
تطرد الناس الى محشرهم .

ثم ذكر قول لابن عباس في ذلك : عن ابن ابي مليكه قال غدوت على

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ٢٧ - ٢٨ كتاب الفتن

واشراط الساعة .

ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال ما نمت الليلة حتى أصبحت قلت لم؟ قال: قالوا طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت".

يقول ابن كثير، وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس رضي الله عنهما -
 حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة
 والتابعين رضي الله عنهم مع الاحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان،
 وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان
 من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن. (١)

والاستاذ سيد - رحمه الله - لم يجمع بين الحديثين باعتبار صحتهما
 بل تركهما هكذا، مع أنه من الأفضل ذكر قول النووي رحمه
 الله فيهما وهو: يحتمل انهما دخانان للجمع بين هذين
 الأمرين (٢) دخان حدث استجابة لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم
 ودخان لم يحدث وهو من علامات الساعة الكبرى.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ٢٧ .

(٤) كان يفسر الآيات في بعض الحالات بمعنى الحديث ، وان لم يشـر إليه - وهذا جائز عند المحدثين . (١)

ومثال ذلك : مذكـره المؤلف في تفسير صفات المؤمنين الواردة

في قوله تعالى :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (٢) حيث

قال : والجماعة المسلمة مسئولة عن أماناتها العامة مسئولة

عن عهدها مع الله تعالى وما يترتب على هذا العهد من تبعات

والتعبير القرآني هنا يشمل كل أمانة وكل عهد ويصف المؤمنين

بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون . فهي صفة دائمة لهم ففي

كل حين وما تستقيم حياة الجماعة الابتدائية الأمانات ورعايتها

العهود واطمئنان كل من فيها الى هذه القاعدة الأساسية للحياة

المشتركة الضرورية لتوفير الثقة والأمن والاطمئنان " (٣)

فـقوله هنا : " وما تستقيم حياة الجماعة الا أن تؤدى فيها الأمانات"

يقدم به والله اعلم حديث أنس بن مالك قال : " ما خطبنا

نبي الله صلى الله عليه وسلم الا قال : " لا إيمان لمن لا أمانة

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث - لابن كثير - تأليف أحمد

محمد شاكر ص ١٤١ .

(٢) سورة المؤمنون آية / ٨

(٣) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٦ بتصريف .

له ، ولادين لمن لا عهد له " (١)

(٥) كان يستعمل منهج القدماء في تخريج الحديث حيث يذكر الكتب من غير تحديد لموضع الحديث في الكتاب ورقم الجزء والمفحمة أو الكتاب والباب ومثال ذلك : ما ذكره عند تفسير قوله تعالى :

(١) مسند أحمد ج ٣ ص ١٣٥ - ١٥٤ وفي مجمع الزوائد ج ١ ص ٢٧٨ ، قال الهيثمي : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه أبو هلال ، وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره ، وللحديث شواهد من حديث أبي امامه رفعه : " لا ايمان لمن لا أمانة له " وعن ابن مسعود رفعه : " لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولادين لمن عهد له وفيه راويان مجهولان : ١ : ٢٧٩ مجمع الزوائد .
وفي رواية ابن عمر مرفوعا : لا ايمان لمن لا أمانة له . . . الحديث رواه الطبراني في الأوسط والصغير وقال : تفرد به الحسين بن الحكم الحبري : مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١ ، وفي رواية عبادة بن الصامت يرفعه : لا ايمان لمن لا أمانة له : " الحديث " ، وقال : رواه الطبراني في الكبير واسناده منقطع فلم يسمع اسحاق بن يحيى من جده عبادة :
مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٣٥ .

وذكر المنذرى رحمه الله - زيادة على ما ذكره الهيثمي - أن ابن حبان رواه في صحيحه الا أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : فذكر الحديث ج ٤ ص ١١ في الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ط دار الفكر . ج ١ ص ٢٠٨ من صحيح ابن حبان كتاب الايمان " باب ذكر خبر يدل على أن المراد بهذه الأخبار نفى الأمر عن الشيء للنقص عن الكمال : ط ١ دار الكتب العلمية .

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنَّ
لَا تَشْعُرُونَ) (١)

فقال : ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ انهم أولئك " الذين
يقتلون في سبيل الله " في سبيل الله وحده دون شركة في شارة ولا
هدف ولا غاية الا الله . في سبيل الحق الذي أنزله ، والمنهج
الذي شرعه ، والدين الذي اختاره في هذا السبيل وحده لا في
سبيل آخر ولا تحت أى شعار آخر . وفي هذا شدد القرآن وشدد
الحديث حتى ما تبقى في النفس شبهة أو خاطر غير الله . (٢)

ثم ذكر الحديث : عن أبي موسى رضي الله عنه قال سئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاقل حميئة
ويقاقل رياء . أى ذلك في سبيل الله ؟ قال : " من قاتل لتكـون
كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " (٣) ذكره وعقب
عليه بقوله : أخرجه مالك والشيخان . هكذا بالجمع دون تفصيل

(١) سورة البقرة آية / ١٥٤

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٤٤ بتصريف .

(٣) صحيح البخارى كتاب التوحيد باب قوله تعالى : " ولقد سبقت كلمتنا " ج ١٣ ص ٣٧١ من فتح البارى .

وصحيح مسلم كتاب الامارة باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا
ج ١٣ ص ٤٩ ، والترمذى في فضائل الجهاد باب ماجاء من يقاقل رياء
وللدنيا ج ٣ ص / ١٠٠ ، وقال فيه حسن صحيح . والحديث ليس
في موطأ مالك كما نبه على ذلك المؤلف .

مع أن رواية البخارى وردت بتقديم كلمة (حمية) ثم (يقاتل شجاعة) كما أنه لم يذكر رجال الاسناد ويمكن أن نجمل طريقته في ايسراد الأحاديث بما يلي :

(١) كان اذا أخرج الحديث اثنان أو اكثر لا ينسب اللفظ لصاحبه أى أنه يلتزم التخريج الحرفي لمتن الحديث ، ومثال ذلك :

أ - ما أورده من أحاديث في تفسير قوله تعالى :

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآرَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (١)

حيث قال : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله الخلق - وعند مسلم : لما خلق الله الخلق - كتب في كتاب عنده فوق العرش : " ان رحمتى سبقت غضبي " ، وعند البخارى في رواية أخرى " ان رحمتى غلبت غضبي " (٢) بينما لفظ الامام مسلم : " سبقت رحمتى غضبي " (٣) ولفظ الامام البخارى : " ان رحمتى تغلب غضبي " (٤) وهو وارد أيضا في

(١) سورة الأنعام آية ١٢/

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ١٠٥٠

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سعة رحمة الله ج ١٧ ص ٦٨٠

(٤) رواه البخارى في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ويحذرکم الله نفسه ج ١٣

ص ٢٢٥ من فتح الباری .

مسلم بنفس اللفظ ، ومن ثم بداية الحديث أيضا عند البخارى بلفظ " لما خلق الله الخلق " وليست بلفظ " لما قضى الله " أما بدايته عند مسلم فهذه اللفظين . (١)

ب - وكذلك في حديث يتعلق بالرحمة قال فيه : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءا واحدا . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " . (٢)

وهذا اللفظ لمسلم (٣) ، ولفظ البخارى باختلاف يسير عنه جاء التمييز المذكورا في جملة في الحديث على هذا النحو " فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا " كما جاء في لفظ " الخلق " بدلا من " الخلائق " ولفظ " الفرس " بدلا من " الدابة " . (٤)

(٢) كان في استشهاده بالأحاديث الشريفة لا يذكر أسانيد معظم الأحاديث الا قليلا ، ومثال ذلك :

-
- (١) صحيح مسلم بشرح النووي في كتاب التوبة باب سعة رحمة الله ج ١٧ ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ١٠٥
- (٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى ج ١٧ ص ٦٨ .
- (٤) رواه البخارى في كتاب الادب باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ج ١٠ ، ص ٦٣٢ من فتح البارى .

أ - عند تفسيره لقوله تعالى (وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلِيًا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ ،
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَكُلُّهُم نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) . (١)

بيِّن العقود التي أقرتها الشريعة الإسلامية والتي أبطلتها ثم قال:
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حلف في الإسلام ، وأيما
حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام الا شدة " (٢) رواه احمد ومسلم . (٣)
فهذا الحديث علاوة على أنه لم يذكر سنده اقتصر في تخريجه
على رواية أحمد ومسلم بينما الحديث موجود في البخارى وغيره . (٤)

ب - وعند تفسيره لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءًا تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ
وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ
لَهَا سَبِقُونَ) . (٥)

(١) سورة النساء آية / ٣٣

(٢) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٦٤٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب فضائل الصحابة باب مؤخاة النبي
صلى الله عليه وسلم أصحابه ج ١٦ ص ٨٢ ، ورواه احمد في مسنده ج ١ ،
ص ١٩٠ ، ٣١٧ .

(٤) رواه البخارى في كتاب الكفالة باب قول الله تعالى (وَالَّذِينَ عَقَدْتَ
أَيْمَانُكُمْ) ج ٤ ص ٢٨٧ من فتح البارى باختلاف في اللفظ ، وكذلك
أبو داود في كتاب الفرائض باب في الحلف ج ٨ ص ١٤١ من عون المعبود والترمذى في
كتاب السير في باب في الحلف ج ٥ ص ٧٣ وقال فيه : حسن صحيح .
(٥) سورة المؤمنون آية / ٦٠ ، ٦١ .

بيّن صفات بعض المؤمنين الذين يشفقون من ربهم خشية وتقوى
 وذكر أنهم يؤمنون بأياته ولا يشركون به ويأتون من الطاعات
 ما استطاعوا ولكنهم (يُوْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ)
 لاحساسهم بالتقصير في جانب الله بعد أن بذلوا ما في طوقهم
 وهو في نظرهم قليل ثم قال : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :
 يارسول الله (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ) هـ
 الذي يسرق ويبنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ، قال :
 " لا يابنت الصديق : ولكنه الذي يملى ويصوم ويتمدق وهو يخاف
 الله عز وجل " وذكر في الهامش أخرجه الترمذى (١) وعند
 الرجوع إليه (٢) وجدته لم يعلق على الحديث بشيء كما أنه رواه بلفظ
 الجمع وليس بصيغة المفرد التي ذكرها المؤلف فـ
 الظلال .

جـ - وعند تفسيره لقوله تعالى : (إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)
 وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) (٣)

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٧٢ .

(٢) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمنين ج ٥ ص ٩ ،
 وقد سكت عنه بلفظ : " قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر
 ويسرقون ؟ " قال : " لا يابنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون
 ويتصدقون وهم يخافون الا تقبل منهم أولئك الذين يسارعون في
 الخيرات وهم لها سابقون " سورة المؤمنون آية / ٦١ ، والحديث صحيح
 كما في السلسلة الصحيحة للألباني رقم ١٦٢ .

(٣) سورة النساء آية / ٤٨

بين مدى رحمه الله بعباده المؤمنين الذين يقعون في الذنوب ثم يستغفرون الله ويتوبون اليه حيث يغفر الله سبحانه وتعالى لمن يشاء منهم برحمته وعلم منهم صدق توبتهم ثم ذكر حديثا فـي ذلك وأورده بسنده قال : أخرج البخارى ومسلم كلاهما عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن عبد العزيز بن رفيع عن زيد بن وهب عن أبي ذر قال خرجت ليلة من الليالي فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وحده وليس معه انسان قال فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد ، قال : فجعلت أمشى في ظل القمر فالتفت فرأيتني فقال : " من هذا " فقلت أبو ذر جعلني الله فداك قال : " يا أبا ذر تعال " قال فمشيت معه ساعة فقال لي : " ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من اعطاه الله خيرا فجعل يبيته عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا " قال فمشيت معه ساعة فقال لي : " اجلس ها هنا " فأجسني في قاع حوله حجارة فقال لي " اجلس ها هنا حتى ارجع اليك " قال : فانطلق فـي الحرة^(١) حتى لا أراه فلبث عنى حتى اذا طال اللبث ثم اني سمعته وهو مقبل يقول : " وان زنى وان سرق " قال : فلما

(١) الحرة هي الأرض المليسة حجارة سوداء : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ ص ٧٦ ، كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة .
والحرة مكان معروف بالمدينة في الجانب الشمالي منها : فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١١ ص ٢٢٢ كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون .

جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله جعلني الله فداك ممن
تكلمه في جانب الحرة فاني سمعت أحدا يرجع اليك " هكذا " قال:
ذلك جبريل عرض لي جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات
لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت " يا جبريل وان سرق وان زنى
قال نعم ، قلت وان سرق وان زنى قال : نعم ، وان شرب الخمر " . (١)
وهذا الحديث بسند واحد في البخارى ومسلم (٢) ، وأما بالنسبة
لمتنته ففيه اختلاف يسير وزيادة ونقص .

أ - اما الاختلاف ففي قوله " فجعل يبيته عن يمينه " بينما الصحيح
" فنفيخ فيه يمينه وشماله " وكذلك في قوله : " فاني سمعت أحدا "
والصحيح " ماسمعت أحدا " ، وكذلك في قوله : " فلما جاء لم
أصبر حتى قلت " فحتى هنا موجودة في البخارى فقط ، أما في رواية
مسلم " لم أصبر فقلت " وكذلك قوله " ذلك جبريل " لفظ
البخارى فقط أما في مسلم فاللفظ عنده " ذاك جبريل " .

-
- (١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٦٧٨ .
(٢) البخارى في كتاب الرقاق باب المكثرون هم المقلون ج ١١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ من
فتح البارى وصحيح مسلم في كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة
ج ٧ ص ٧٥ - ٧٦ .
(٣) " فنفيخ " أى ضرب يديه فيه بالعتاء والنفيخ الرحي والضرب في صحيح
مسلم بشرح النووى ج ٧ ص ٧٦ كتاب الزكاة باب الترغيب في
الصدقة .

ب- أما الزيادة فهي في قوله " من تكلمه في جانب الحرة " فالهاء هنا زائدة ، وكذلك قوله " وان شرب الخمر " فهي زيادة مسلم فقط . (١)

ج- وأما النقص فهو في قوله " ما سمعت أحدا يرجع اليك شيئا " فكلمة " شيئا " غير موجودة هنا وكذلك في قوله " عرض لي في جانب الحرة " فحرف " في " غير موجود وكذلك قوله : " وان سرق وان زنى " فهي هنا مرتان فقط ، أما في الصحيح فهي مكررة ثلاث مرات .

(٣) وكان أيضا يأخذ ببعض الأحاديث دون أن يذكر لها سندا أو تخريجا فلا يتبين للقارىء درجة هذه الأحاديث ومثاله :

أ- ما أورده في تعقيبه على تفسير قوله تعالى : (قَاذًا سَوِيَّتُهُ وَنَفَخْتُ

فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ) . (٢)

حيث قال " ومن أجل هذا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من أراد أن يترهين فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال : " فمن رغب عن سنتي فليس مني " (٣) فهذا الحديث صحيح في البخارى ومسلم (٤) إلا أنه لم يشر الى موضعه .

-
- (١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة باب الترغيب في المدقة ج ٧ ص ٧٦ .
 (٢) سورة الحجر آية / ٢٩ .
 (٣) المجلد الرابع في ظلال القرآن ص ٢١٣٩ .
 (٤) رواه البخارى في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح ج ٩ ص ٩٠ من فتح البارى ، وصحيح مسلم كتاب النكاح لمن تاققت نفسه اليه ج ٩ ص ١٧٦ .

ب - ماجاء به عند تفسير قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِكْثَارِ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . (١)

يبين رحمه الله حديث الاكث المفتري ويقول : " والذي تولى كبره وقاد حملته واضطلع منه بالنصيب الا وفي كان هو عبد الله بن ابي بن سلول رأس النفاق وحامل لواء الكيد ولقد عرف كيف يختار مقتسلا لولا أن الله كان من ورائه محيطا وكان لدينه حافظا ولرسوله عاصما وللجماعة المسلمة راعيا - ولقد روى أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملاء من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا عائشة رضي الله عنها فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة بينكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها . (٢)

وبالبحث عن هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ وانما قال فيه ابن حجر " وفي مرسل سعيد بن جبير وقذفها عبد الله بن ابي فقال ما برئت عائشة من صفوان ولا برىء منها " . (٣)

فالحديث اذن مرسل والمرسل من أقسام الضعيف .

(٤) كما كان رحمه الله يذكر روايات للحديث مما رواها المفسرون في كتبهم - دون الرجوع الى مصادرها ، ومن أمثلة ذلك :

-
- (١) سورة النور آية / ١١
 (٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٥٠١ .
 (٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٣٥٢ .

أ - ما رواه عند تفسير قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا

أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ
أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ
غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) . (١)

حيث قال : وقال بعض الناس : (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا) لا يحدد
عقيدتهم (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) وبما كانوا عليه من عقيدة
وقال أصحاب السلطان في ذلك إلا وان (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) والمقصود
معبدًا على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر
الأنبياء والقديسين وكما يمنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين
مخالفين لهدى الرسول صلى الله عليه وسلم " لعن الله اليهود
والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " . (٢)

فهذا الحديث في الصحيحين وغيرهما (٣) ، بدون لفظ : " وصالحيهم "
حيث انفرد به مسلم (٥) في حديث آخر وورد بالمعنى فـي
حديث آخر عند النسائي . (٦)

-
- (١) سورة الكهف آية / ٢١
(٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٦٤ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٨
(٣) البخارى في كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور
ج ٣ ص ١٦١ من فتح البارى ومسلم في كتاب المساجد باب النهي عن
بناء المسجد على القبور ج ٥ ص ١٢ .
(٤) النسائي في كتاب المساجد باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ج ٢ ص ٤١ ،
ومسند احمد ج ٥ ص ٢٠٤ .
(٥) مسلم في باب النهي عن بناء المسجد على القبور ج ٥ ص ١٣ .
(٦) النسائي ، باب النهي عن اتخاذ القبور ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ .

ب- وما رواه عند تفسير قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ
 إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ
 صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ
 وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (١)

ارتد عنه ايثارا للحياة الدنيا على الآخرة فرما هم بغضب من
 الله وبالعذاب العظيم والحرمان من الهداية ووصمهم بالغفلة
 وانطماس القلوب والسمع والأبصار وحكم عليهم بأنهم في الآخرة
 هم الخاسرون الى أن قال : واستثنى من ذلك الحكم الدافع
 من اكره وقلبه مطمئن بالايمان أى من أظهر الكفر بلسانه
 نجاة لروحه من الهلاك ، وقلبه ثابت على الايمان مرتكن اليه
 مطمئن به وقد روى أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر
 روى ابن جرير باسناده عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ
 المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا -
 فشكا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه
 وسلم : " كيف تجد قلبك قال : مطمئنا بالايمان ، قال النبي صلى الله

(١) سورة النحل آية / ١٠٦ - ١٠٨ .

عليه وسلم : " ان عادوا فعُد " ، فكانت رخصة في مثل هذا الحال . (١)

وهذا الحديث لم أجده في الكتب الستة ولا في مسند أحمد ، أو الدارمي ، أو الموطأ ، وإنما هو في تفسير ابن جرير . (٢)
كما ذكره ابن كثير^(٣) ، وعزاه الى البيهقي وقال : رواه البيهقي بأبسط من ذلك ، لكنه نبه على أن في السند عطية العوفى وهو ضعيف ، وكذلك الألوسي في روح المعاني^(٥) نبه على هذه الرواية وصدّرها بكلمة روى تنبيها على ضعف سندها ، لكن الحاكم رواه بسند ليس فيه عطية العوفى وجزم بصحته . (٦)

* * *

-
- (١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٩٦
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير ج ١٤ ص ١٢٢
(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٧ ، وانظر السنن الكبرى للبيهقي ج ٨ ص ٢٠٨ ،
(٤) تقريب التهذيب لابن حجر ج ٢ ص ٢٤ ط ٢
(٥) روح المعاني للألوسي ج ١٤ ص ٢٣٧ .
(٦) المستدرک للحاكم ، كتاب التفسير باب حكاية أسر عمار بن ياسر بيد الكفار ج ٢ ص ٢٥٧ ، وقال فيه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي " في التلخيص " على ذلك .

استعانت به بأقوال الصحابة في التفسير :

أقوال الصحابة رضوان الله عليهم تعتبر من المصادر الأساسية المهمة للتفسير وله الدرجة الثالثة فيها فمن أراد أن يفسر كتاب الله أو يوضح بعض كلماته التي تعتبر غامضة على بعض الناس وخاصة في العصر الحديث - نتيجة ابتعادهم عن القرآن الكريم، وعن اللغة العربية الفصحى - كان من الضروري جدا له أن يستعين بأقوال الصحابة إذا لم يجد المعنى في القرآن نفسه أو في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ما أخذ به مؤلف الظلال في تفسيره لبعض السور ومن أمثلة ذلك :

(١) ما أورده في تفسير قوله تعالى : (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا إِنَّ لِلْعَبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) . (١)

حيث قال : والقرآن ينهى عن التبذير ، والتبذير - كما يفسره ابن مسعود وابن عباس - الانفاق من غير حق . وقال مجاهد : لو انفق مدا في غير حق كان مبدرا . (٢)

فليس المراد بالتبذير في الآية الكثرة والقلّة في الانفاق ، انما

(١) سورة الاسراء آية / ٢٦ - ٢٨ .

(٢) هذا القول في تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٦ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج ٤ ص ١٧٧ .

هو موضع الاتفاق ، ومن ثم كان المبذرون اخوان الشياطين لأنهم —
 ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية
 فهم رفقاء الشياطين وصحابهم (وكان الشيطان لربه كفورا) لا يؤدي
 حق النعمة كذلك اخوانه المبذرون لا يؤديون حق النعمة ، وحقها
 أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين . (١)

(٢) وما جاء المؤلف به من أقوال الصحابة عند تفسير قوله تعالى :

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن
 يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) . (٢)

حيث أتى بحديث رواه البخارى عن طاووس أنه سمع ابن عباس رضي الله
 عنه وهو يسأل عن قوله تعالى : (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) فقال
 سعيد بن جبير " قربى آل محمد " فقال ابن عباس : " عجبت أن النبي
 صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من بطون قريش الا كان لــــه
 فيهم قرابة ، فقال الا أن تملوا ما بيني وبينكم من القرابة " . (٣)
 ويكون المعنى على هذا : الا أن تكفوا إذاكم مراعاة للقرابة وتسمعوا
 وتلينوا لما أهدىكم اليه فيكون هذا هو الأجر الذي أطلبه منكم

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٢٢ .

(٢) سورة الشورى آية / ٢٣ .

(٣) رواه البخارى في كتاب التفسير ، باب قوله : " الا المودة في القربى " ج ٨ ص ٤٣٣ من فتح البارى . " سورة حم عسق " .

لا سواه (١) وهذا القول الأول معنى (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) .

القول الثاني :

إن القربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم : أى لا أسألكم
أجرا الا أن تودوا قرابتي وأهل بيتي . وهذا القول قول علي بن
الحسين وعمرو بن شعيب وسعيد بن جبير ، وقول ثاب لابن عباس . (٢)

القول الثالث :

إن القربى هي التقرب الى الله والتودد اليه بالعمل الصالح : والمعنى
الا أن يتوددوا الى الله عز وجل ويتقربوا اليه بطاعته . وهذا
القول ورد عن الحسن وقتادة ومجاهد (٣) فالقربى على القول الأول القرابة بين
الرسول وقومه وعلى القول الثاني القرابة التي هي بمعنى الأقارب
وعلى الثالث هي فعل من القرب وطاعة الله . وأولى الأقوال بالصواب
ما ذهب اليه ابن عباس رضي الله عنه - وهو ما اختاره مؤلف الظلال -
رحمه الله - وهو : " قل لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش الا أن
تودوني في قرابتي منكم وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم . وقد
ذكر ابن جرير - رحمه الله - تعليلا وجيها لهذا الاختيار حيث

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٥٤ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ج ٢٥ ص ١٦ ، ١٧ وتفسير الفخر الرازي المجلد
١٤ ص ١٦٥ ، وتفسير القرطبي المجلد السابع ص ٥٨٤١ .

(٣) تفسير الطبري ج ٢٥ ص ١٧ ، وتفسير الفخر الرازي المجلد ١٤ ص ١٦٦ ،
وتفسير القرطبي المجلد السابع ص ٥٨٤٢ .

قال : " وانما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية لدخول (في) في قوله (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال " الا أن تودوا قرابتي " أو " تقربوا الى الله " لم يكن لدخول (في) في الكلام في هذا الموضع وجه معروف ، وكان في التنزيل " مودة القربي " وان عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو (الا المودة بالقربي أو ذا القربي) وان عنى به التودد والتقرب ، وفي دخول (في) في الكلام أوضح دليل على أن معناه الا مودتى في قرابتي منكم " . (١)

(٣) ومن الأمثلة على استعانته بأقوال الصحابة ما ذكره المؤلف في تفسيره قوله تعالى :

(وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا فَالْحَمَلَاتِ وَقِرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَمَادِقٍ وَإِنَّ الْإِنِّ لَوَاقِعٌ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبِّكَ) (٢)

حيث قال : قال ابن كثير في التفسير ، قال شعبة بن الحجاج عن سماك ابن خالد بن عرعة أنه سمع عليا رضي الله عنه وشعبة أيضا عن القاسم بن بزة عن أبي الطفيل أنه سمع عليا رضي الله عنه وقد صعد منبر الكوفة فقال : " لا تسألوني عن آية في كتاب الله

(١) تفسير ابن جرير الطبري ج ٢٥ ص ١٧ .

(٢) سورة الذاريات آية ١ / ٦ .

تعالى ولا عن سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنبأتكم
بذلك فقام ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى :
(وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا) قال علي رضي الله عنه الريح ، قال : (فَالْحِمْلَاتِ
وَقَرَأَ) قال رضي الله عنه السحاب قال : (فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا)
قال رضي الله عنه السفن ، قال فالمقسّمات أمرا . قال رضي الله عنه:
الملائكة " . (١) .

وقال صاحب الظلال : أقسم الله سبحانه بالرياح التي تذرّو ما تذرّوه من
غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الانسان وما يجهب
وبالسحاب الحاملات وقرا (٢) من الماء يسوقها الله به الى حيث
يشاء ، وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته ، وبما
أودع الماء وأودع السفن ، وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا
الجريان اليسير ، ثم بالملائكة المقسمات أمرا تحمل أوامر
الله وتوزعها وفق مشيئته فتفصل في الشؤون المختمة وتقسم الأمور
في الكون بحسبها . (٣) .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق الأربع على (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ
وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) .

-
- (١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ ورواه الحاكم في مستدركه وقال فيه : هذا
حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه : كتاب التفسير ج ٢ ص ٤٦٧ ووافقه
الذهبي .
- (٢) وقراً : التي تحمل اثقال الامطار التي فيها حياة البشر : والوقر :
ثقل الحمل على الظهر أو في البطن : التفسير الواضح للدكتور محمد
حجازي ج ٢٦ ص ٨٣ .
- (٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٣٧٥ .

فنرى أنه استشهد - رحمه الله - بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم
 في تفسير بعض الآيات القرآنية^(١) وليست واردة داخل أى حديث^(٢)
 كما نلاحظ أنه أوردها غير مسندة لروايتها وغير مخرجة^(٣)، وربما
 اتبع طريقة ابن كثير في تفسيره فهو أحيانا يورد أقوال الصحابة
 رضي الله عنهم غير مسندة وغير مخرجة .

* * *

-
- (١) وليست كلها فهو لم يتبع طريقة ابن جرير مثلا في تفسيره لجميع الآيات
 القرآنية بالمأثور .
 (٢) سواء أكان هذا الحديث صحيحا أم حسنا أم ضعيفا .
 (٣) أى لم يذكر من أى كتب التخريج - ككتاب البخارى ومسلم أو الترمذى - أخذ
 هذه الأقوال .

اهتمامه بسبب النزول

اهتم مؤلف الظلال - رحمه الله - بأسباب النزول على اعتبار أنها نوع من أنواع التفسير بالمأثور ومتعلقة به ، فكان يأتي بروايات أغلبها صحيحة ان لم تكن حسنة ، وكان رحمه الله يذكر - ابتداء مطلع السورة المراد تفسيرها ، ثم يورد غالبا تعليقا مناسبا يعطي القارئ فكرة عن الموضوع الذي تدور حوله السورة وبعدها يقسمه الى مقاطع ويجعل لكل مقطع جزءا ثم يبدأ في تفسيره للآيات ، واذا كان لهذه الآيات أو لمطلع السورة أسباب للنزول ذكرها وله رحمه الله طريقته في ايراد الأسباب اذا كان يورد السبب في أول السورة ان تعلق بها أو قبل بعض الآيات في أثناء السورة ان كان متصلا بهذه الآيات فقط كما نلاحظ أنه في بعض الحالات كان يورد السبب مسندا ومخرجا وبنفس ألفاظه في المرجع الذي أخذ منه وفي أحيان أخرى كان يورده مخرجا وغير مسند ، وفي بعض الحالات كان يأتي بمعنى النص الوارد في السبب من غير اشارة لذكر مرجعه ، وكان رحمه الله اذا تكرر السبب مع عدة آيات يورد السبب الراجح في موضع واحد مفصلا مع الاشارة الى مواضع الأخرى بايجاز ، وبالنسبة لمروياته في أسباب النزول نلاحظ أن أغلبها كان صحيحا وبعضها كان حسنا أو ضعيفا .

وهذه الطريقة التي اتبعها المؤلف في الظلال تحتاج الى أمثلة تشهد لها وتدلل عليها وذلك ما سأحاوله في هذا المبحث باذن الله تعالى .

أولا : ايراد السبب في أول السورة :

ومثاله :

- (١) ما ورد في سورة المجادلة : يقول بعد ذكره الآيات الأولى الأربع من السورة : كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من أمراته فيقول : أنت علي كظهر أمي فتحرم عليه ولا تطلق منه ، وتبقى هكذا ، لاهي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ، ولاهي مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر ، وكان هذا طرفا من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية ، فلما كان الاسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير اليها هذه الآيات ولم يكن قد شرع حكم للظهار .
- قال الامام احمد : حدثنا سعد بن ابراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبي حدثنا محمد بن اسحاق ، حد ثني معمر بن عبد الله بن حنظلة ، عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت : في واللّه وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت فدخل عليّ يوما فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة ثم دخل علي فاذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص الي ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى قالت : ثم خرجت الى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له مالقيت منه ، وجعلت أشكو اليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه " قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لي " ياخويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا " ثم قرأ علي : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) الى قوله : (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) . قالت : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " مريه فليعتق رقبة " قالت : فقلت يارسول الله ما عنده ما يعتق . قال : " فليصم شهرين متتابعين " قالت : فقلت : والله انه لشيخ ماله من صيام . قال " فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر " (١) . قالت : فقلت : والله يارسول الله ماذا عنده قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فانا سنعيه بعرق (٢)

-
- (١) الوسق : بالفتح ستون صاعا وهو ثلاثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلافهم في مقدار الصاع والمدّ والأصل في الوسق الحمل . وكل شيء وسقته فقد حملته ، والوسق أيضا : ضم الشيء الى الشيء : النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٥ ص ١٨٥ ، ونفس المعنى في لسان العرب ج ٣ ص ٩٢٦ .
- (٢) العرق : قال ابن الأثير : وهو زنبيل منسوج من نسائج الخوص وكل شيء مضمور فهو عرق وعرقه بفتح الراء فيهما : لسان العرب ج ٢ ص ٧٥٢ ، وهو سعة خمسة عشر صاعا أو ستة عشر صاعا : الترمذي في كفاية الظهار ج ٢ ص ٢٣٥ .

من تمر " قالت : فقلت : يارسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر
قال : " قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصديقي به عنه ، ثم استوصى بابن
عمك خيرا " قالت : ففعلت . (١) ، (٢)

فترى أنه بعد أن أعطانا المؤلف الملخص العام لموضوع السورة
ذكر سبب النزول في صدرها قبل البدء في التفسير والايضاح ، وكما
نعلم أن ذكر السبب يهيئ الأذهان للاستيعاب ويعين على فهم
المعنى ، والملاحظ أن سبب النزول هنا مهّد له المؤلف
وأورده في اول السورة مسندا مع ذكر مرجعه .

ثانيا : ايراد السبب في ثانيا السورة مع الآيات المتعلقة بها :

ومثاله :

ما ورد في سورة مريم عند تفسير قوله تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ يَتَذَكَّرُ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ يُؤْتِيهِمْ
أَطَّلِعَ الْغَيْبَ إِنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
وَنُمِدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَا يُدْرِكُ الْبُصُرَ وَمَا يُحِيطُ بِالسَّمِيعِ وَلَا يَخْتَرِقُ) (٣)

- (١) مسند أحمد ج ٦ ص ٤١٠ - ٤١١ ، ورواه أبو داود في كتاب الطلاق بسبب
حكم الظهار ج ٢ ص ٢٦٣ ، وأيضا الترمذى في الطلاق باب كفارة الظهار
ج ٢ ص ٢٢٥ ، وقال فيه : هذا حديث حسن .
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٥٠٥ .
(٣) سورة مريم آية / ٧٧ : ٨٠ .

حيث قال : ورد في سبب نزول هذه الآيات - باسناده - عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قينا " حدادا " ^(١) وكان لي على العاصي بن مائل دين فأتيته اتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حتى تموت وتبعث ، قال : فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله (أَفْرَاءَ يَتَ الذِّي كَفَرَ بآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا) ^(٢) وبدأ في تفسيره للآيات بعد ذلك قائلًا : وقولة العاصي بن مائل نموذج من تهكم الكفار واستخفافهم بالبعث والقرآن يعجب من أمره ويستنكر ادعاءه : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) فهو يعرف ما هنالك (أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) فهو واثق من تحققه ثم يعقب (كَلَا) وهي لفظة نفى وزجر . كلالم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا انما هو يكفر ويسخر فالتهديد اذن والوعيد هو اللائق لتأديب الكافرين السافرين (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) سنكتب ما يقول فنسجله عليه ليوم الحساب فلا ينسى ولا يقبل المغالطة (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) أي نأخذ

(١) القين : الحداد يذهب به الى معنى العبد لأنه في العمل والصنعة بمعنى العبد قال الأزهري " رحمه الله " كل عمل بالحديد قين عند العرب : تاج العروس ج ٩ ص ٣١٦ .

(٢) رواه البخاري بلفظ مختلف في كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ج ٨ ص ٣٢٧ من فتح الباري ومسلم في كتاب صفة القيامة الجنة والنار باب سؤال اليهود النبي عليه الصلاة والسلام عن الروح ج ١٧ ص ١٣٨ ، والترمذي كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ج ٤ ص ٣٧٩ وقال فيه حديث حسن صحيح . ومسنده احمد ج ٥ ص ١١٠ .

ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت
المورث (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) لا مال معه ولا ولد ولا نصير ولا سند
مجردا ضعيفا وحيدا فريدا . (١)

والمؤلف في هذا المثال - كما رأينا - أورد سبب النزول في ثنايا
السورة - أي وسطها - مع الآيات المتعلقة بها بدون إشارة إلى مرجعه
أو ذكر لسنده .

ثالثا : إيراد السبب مسندا ومخرجا مع الحكم عليه :

ومثاله :

ما ذكره المؤلف من سبب للنزول بدون تمهيد أو تعليق مسبق .
يقول رحمه الله : ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ووقت
نزولها ما سبق ذكره عن سورة المزمل ، فهناك روايات بأنها هي
أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهـ
بالدعوة ، وايداء المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم .
قال البخاري : حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى
ابن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من
القرآن ؟ فقال : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) قلت : يقولون :
(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن
عبد الله وقلت له مثل ما قلت ، فقال جابر لا أحدثك الا ما حدثنا

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣١٩ - ٢٣٢٠ .

به رسول الله صلى الله عليه وسلم " جاورت بحراء فلما قضيت
 جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت
 عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت
 خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة
 فقلت : " دشروني وصبوا علي ماء باردا " قال فدشروني وصبوا علي
 ماء باردا قال فنزلت (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ)^(١)،^(٢)
 وقد زواه مسلم من طريق عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة قال : أخبرني
 جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن
 فترة الوحي فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا
 من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء
 قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثيت^(٣) مذه حتى هويت^(٤)

-
- (١) سورة المدثر آية / ١ : ٣ .
 (٢) رواه البخارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة المدثر ج ٨ ص ٥٢٠ من
 فتح البارى .
 (٣) جثيت : تأتي بمعنى جلست على ركبتي خوفا منه لأنه ورد أن جثا يجثو
 ويجثي جثوا ، وجثيا : جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها : لسان
 العرب ج ١ ص ٤٠٢ .
 (٤) هويت : بمعنى سقطت الى الأرض ، لأن معنى هوى الشيء يهوى : سقط
 من فوق الى اسفل كسقوط السهم وغيره : تاج العروس ج ١٠ ص ٤١٥ .

الى الأرض فجئت أهلي فقلت : زملوني فدثروني^(٢) فأنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) (٥٥٥٠) النبي (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ثم حمى الوحي وتتابع^(٣) ، ورواه البخاري من هذا الوجه ايضا . وهذا لفظ البخاري . (٤)

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله : " وهذا السياق هو المحفوظ وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله " فاذا الملك الذي جاءني بحراء " وهو جبريل حين أتاه بقوله :

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) . ثم انه حصل بعد هذا

- (١) زملوني : أي لفوني وغطوني لأن المزمّل أصله المتزمل والتاء تدغم في الزاي لقربها منها يقال تزمل فلان اذا تلفف بثيابه وكل شيء لفف فقد زمل : لسان العرب ج ٢ ص ٤٦ ، ويقال : تزمل بثوبه اذا التلف فيه : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ٢ ص ٣١٣ .
- (٢) فدثروني : أي غطوني بما أدفا به : النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٢ ص ١٠٠ وتدثر بالثوب : أي اشتمل به داخلا فيه ، وقد تدثر فلان أي تلفف في الدثار : لسان العرب ج ١ ص ٩٤٦ .
- (٣) رواه مسلم في كتاب الايمان باب بدء الوحي ج ٢ ص ٢٠٧ بشرح النسوي .
- (٤) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى والرجز فاهجر ج ٨ ص ٥٢١ من فتح الباري .

فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شيء نزل
بعد فترة الوحي هذه السورة " . (١)، (٢)

فهذه رواية وهناك رواية أخرى : قال الطبراني حدثنا محمد بن
على بن شعيب السمسار حدثنا الحسن بن بشر البجلي حدثنا
المعا في بن عمران عن ابراهيم بن يزيد سمعت ابن أبي مليكة
يقول سمعت ابن عباس يقول : ان الوليد بن المغيرة صنع لقريش
طعاما فلما أكلوا منه ، قال ما تقولون في هذا الرجل ، فقال
بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم
كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال
بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر ، فأجمع
رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه
وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى :

(قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ
وَلَا تَقْنُنْ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) . (٣)

وبالنظر في أسباب النزول التي أوردها المؤلف نرى أنه
قد أتى بها مسندة برواتها ومراجعتها غير أنه لم يمهّد

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج ٤ ص ٤٤٠ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ج ٦ ص ٣٧٥١ .

(٣) سورة المدثر آية ١ / ٧ :

لها هنا كما أنه كان من الأفضل الميل الى رأى ابن كثير ورأى
السيوطي^(١) أيضا : في أن هذه الروايات هي أسباب لنزول سورة
المدثر دون غيرها تبين أنها من أوائل السور التي أنزلت بتمامها
وكمالها وقد سبقها في النزول اقرأ باسم ربك الذى خلق
الآيات " . (٢)

رابعاً : ايراد السبب مخرجاً وغير مسند :

ومثاله :

ما جاء به عند تفسير قوله تعالى :

(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) . (٣)

حيث قال : روى الامام أحمد^(٤) باسناده عن ثابت قال : عمي

أنس بن النضر رضي الله عنه - سميت به - لم يشهد مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فشق عليه وقال : أول مشهد

شده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه لئن أراني الله

تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين

الله عز وجل ما أصنع ، قال : فهاب^(٥) أن يقول غيرها ،

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٣٢
(٢) سورة العلق آية ١ / وما بعدها الى آية (٥)

(٣) سورة الاحزاب آية / ٢٣

(٤) مسند أحمد ج ٣ ص ١٩٤ .

(٥) هاب الشيء بها اذا خافه واذا وقره واذا عظمه : لسان العرب ج ٣ ص ٨٥١

فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فاستقبل
 سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا
 عمرو أين ؟ قال : واهماً لريح الجنة أجده دون أحد . قال فقا تلهم
 حتى قتل رضي الله عنه ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة
 وطعنة ورمية فقا لت أخته :- عمتي الربيع ابنة النضر - فما عرفت
 أخي الابنانه قال : فنزلت هذه الآية :

(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الخ)

قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنه . (١)
 وفي هذا المثال نراه أورد لنا سبب النزول مخرجا - وان لم يكن
 نخريجا كاملا .

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٤٤ وقال فيه : " رواه مسلم والترمذى
 والنسائي " ففي مسلم في كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ج ١٣ ص
 ٤٧ - ٤٨ ، وفي الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة الاحزاب ج ٥ ص
 ٢٨ ، وقال فيه هذا حديث حسن صحيح ، والأثر لا يوجد في سنن النسائي
 المجتبى - ولعله في سنن النسائي الكبرى ، وقد عزا الأثر الى النسائي
 السنيوطي في الدر المنثور ١٩٠/٥ ، والأثر في صحيح البخارى من رواية
 أنس بن مالك رضي الله عنه - انظر فتح البارى بشرح البخارى : ١٦ / ٦
 كتاب الجهاد باب قول الله تعالى : من المؤمنين رجال ٠٠ الآية
 كما رواه البخارى في المغازى باب غزوة أحد ، وفي كتاب التفسير
 باب فمنهم من قضى نحبه . مقتصرأ على سبب النزول ج ٨ ص ٢٩٨ من
 فتح البارى .

خامساً : ايراد السبب بمعناه دون لفظه :

ومثاله :

ما جاء في سورة "الضحى" فبعد أن ذكر المؤمن لف موضوع السورة ومضمونها قال : ورد في روايات كثيرة^(١) أن الوحي فتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عليه جبريل عليه السلام فقال المشركون ودع محمدا ربه فأنزل الله تعالى هذه السورة . ومع أن النص يختلف عما رواه البخاري^(٢) إلا أن ذكره بهذه الصورة جائز . كما أن ذكره في موضعه - كما ذكرت - يعين على تفهم المعنى واستيعابه عند تفسير الآيات وشرحها خاصة إذا علمنا أنه قال معلقا بعد ذكره لسبب النزول : فلما فتر الوحي انقطع عنــــه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب وبقــــي لها جرة^(٣) وحده بلا زاد وبلا رى وبغير ما اعتاد من رائحة

(١) أذكر منها رواية الترمذى عن جندب البجلي قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله تبارك وتعالى (ما ودعك ربك وما قلى) وقوله هذا حديث حسن صحيح سنن الترمذى ج ٥ ص ١١٢ ، كتاب التفسير باب سورة والضحى . وانظر لباب النقول للسيوطي ص ٢٣٠

(٢) ورواه البخارى في كتاب التفسير باب قوله تعالى " والضحى " ج ٨ ص ٥٤٥ من فتح البارى وفيه يقول عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجات امرأة فقالت يا محمد انى لأرجوا أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قريب منذ ليلتين أو ثلاثا فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) .

(٣) الهاجرة قد تكون بمعنى الهجر ، والهجر من الهجران : ===

الحبيب الودود ، وهو أمر فوق الاحتمال ٠٠٠٠ عندئذ نزلت هذه
السورة بما تحمل من الود والحب والرحمة والايناس والقربى والأمل
والرضى والطمأنينة واليقين . (١)

ونلاحظ أن المؤلف في هذا المثال أشار الى سبب النزول بروايات
عامة بلا تحديد لمرجع أو سند أو تحديد للألفاظ الواردة في
سبب النزول ، الا أنه ذكره بعد أن مهد له .

سادسا : موقفه من تكرار السبب لعدة آيات :

ومثاله :

قوله عند تفسير قوله تعالى :

(وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِىَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَمَا جِئْتَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ
ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ) (٢)

=== وهو ترك ما يلزمك تعا هذه : لسان العرب ج ٣ ص ٧٧٢ .

وقد تكون في معنى الهجير والهجرة ، والهجر والهجرة وهو :
نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر : لسان العرب ج ٣ ص ٧٧٣ ،
فعلى المعنى الأول يكون الكلام : وبقى وحيدا متروكا ممن كان
يتعا هذه ويرعاه وعلى المعنى الثاني يكون الكلام : وبقى
لها جرة أى عند اشتداد الحرارة والشمس وحده بلا زاد وبلا رى .

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩٢٥ بتصريف يسير .

(٢) سورة لقمان آية / ١٥ .

قال المؤلف رحمه الله : روى أن هذه الآية نزلت هي وآية العنكبوت^(١) ، وآية الأحقاف^(٢) ، كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه ، وروى أنها نزلت في سعد بن مالك ، ورواه الطبراني في كتاب العشرة^(٣) بأسناده عن داود بن أبي هند والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص^(٤) وهو الأرجح .^(٥)

ولا نقف عند سبب النزول فالآية عامة ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفي صلة الوالدين لفضلهما وبرهما وفضل

(١) سورة العنكبوت آية / ٨ : قال تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(٢) سورة الاحقاف آية / ١٥ : قال تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِطْرُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي نُرَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

(٣) المقصود به عشرة النساء أشار اليه الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٦ ص ١٢٨ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل سعد بن أبي وقاص ج ١٥ ص ١٨٥ بشرح النووي .

(٥) قال وهو الأرجح اعتمادا على أن سعد بن مالك ليس هو سعد بن أبي وقاص والصحيح أنه هو كما أثبت ذلك ابن حجر في " الاصابة " ج ٣ ص ٨٣ وسنرى تفصيلا لذلك أكثر بعد قليل .

الله سابق ونعمه سابغة على سائر خلقه ... فحمد الله هو
الواجب الأول والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكد لها فـي
كل مناسبات ، وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن
واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض (١) ، والمؤلف رحمه
الله لم يذكر أي سبب عند تفسير آية الاحقاف وإنما ذكر
السبب الراجح هنا بالجزم عند تفسير آية العنكبوت التي ورد قوله
تعالى :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ) (٢)

فقال : روى الترمذي عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد
ابن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمه بنت أبي سفيان وكان
بارا بأمه فقالت له ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ والله
لا أكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتغير بذلك
أبد الدهر يقال يا قاتل أمه . ثم أنها مكثت أربعين يوما
وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد إليها وقال : يا أمه
لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني
فكلي إن شئت - وإن شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٨٩ بتصرف .

(٢) سورة العنكبوت آية / ٨ .

وشربت^(١) ، فأنزل اليه هذه الآية آمرا بالبر بالوالدين
والاحسان اليهما وعدم طا عتهما في الشرك .^(٢)
وقد لاحظت هنا أنه حينما وردت روايتان لآية واحدة كسبب
نزول رجح المؤلف الصحيحة منها - دون تحقيق - واعتبر سعد بن
أبي وقاص هو صاحب القصة ولكن النووى رحمه الله حقق ذلك فذكر
أن سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك^(٣) كما أكد ابن حجر

(١) رواه الترمذى في كتاب التفسير باب تفسير سورة العنكبوت ج ٥ ص ٢٢
بلفظ : أن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال : أنزلت في أربع
آيات فذكر قمته وقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر والله
لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر . قال فكانوا
إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فهاها فنزلت هذه الآية : (ووصينا
الإنس بولديه حسنا) وقال فيه : هذا حديث حسن صحيح ومعنى
شجروا فهاها : أى أدخلوا في شجره عودا ففتحوه ، والشجر :
مفرج الفم وقيل هو ما انفتح من منطبق الفم : لسان العرب ج ٢ ص :
٢٧٢ .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٧٢٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب فضل سعد بن أبي وقاص
ج ١٥ ص ١٨٥ .

ما ذهب اليه النووي . (١)

* * *

(١) تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ٢٨٩ تحقيق وتعليق
عبد الوهاب عبد اللطيف ، وفي الاما بة : ٢ / ٨٢ ما يفيد
أن سعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص .
قال ابن حجر : سعد بن مالك أبو اسحاق بن أبي وقاص أحد
العشرة وآ خرهم موتا .

طريقة المؤلف في عرضه للوقائع التاريخية :

كان المؤلف - رحمه الله - في بعض الأحيان يذكر في ظلاله
الوقائع التاريخية لبعض الآيات القرآنية وفق منهج معين تفرد به
دون غيره من المفسرين .

ومن المعلوم أن الاحاطة بالوقائع التاريخية الذي أشارت اليه الآيات
يساعد على فهم المراد من الآية ، ويمكن المسلم من الاستفادة
وأخذ العبرة اذ من الحقائق المسلمة أن عصر نزول القرآن الكريم
كان عصرا ظهرت فيه العديد من السنن الالهية في حياة الناس
ولذلك كان ربط الآية بالأحداث التي نزلت فيها خير معين على
الاتعاظ والتذكر ، وكان المؤلف - رحمه الله - يتبع طريقة في
عرضه للوقائع التاريخية الذي نزلت فيه الآيات وهي :

أولا : يجمع الوقائع التاريخية للمجتمع وقت النزول .

ثانيا : يؤيد هذا الوقائع بالأحداث المروية في كتب السيرة والتاريخ
الدالة على وجود هذا الوقائع .

ثالثا : يربط هذا الوقائع بالآية أو بالآيات .

رابعا : يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله
تعالى .

وهذا المنهج يتضح بالأثلة التي سأذكرها وأعلق عليها بما
يوضح المراد .

المثال الأول :

ما جاء في سورة الأحزاب حيث ذكر الآيات من قوله تعالى :

(وَأَوْزَعْتُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدَيْتَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوهَا وَكَانَ
اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) . (١)

ثم وجدناه يجمل لنا الواقع التاريخي للمجتمع وقت النزول فيقول :
" وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث ———
الاحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وفي تاريخ
الجماعة المسلمة ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة
وهو غزوة الأحزاب في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة^(٢)
الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ولكل قيمها وتصوراتها
ومن تدبر هذا النص القرآني وطريقة عرضه للحدث وأسلوبه
في الوصف والتعقيب ووقفه أمام بعض المشاهد والحوادث ، والحركات
والخوارج ، وابعاده للقيم والسنن

من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربي هذه الأمة بالأحداث
والقرآن في آن ، ولكي ندرك طريقة القرآن الخاصة في العرض
والتوجيه فاننا قبل البدء في شرح النص القرآني نثبت روايته

(١) سورة الاحزاب من آية / ٩ : ٢٧

(٢) في سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢١٤ : أنها وقعت في شوال في السنة الخامسة للهجرة تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الابيارى - عبد الحفيظ شليبي . وفي ==

الحادث كما عرضتها كتب السيرة مع الاختصار المناسب " (١) .
أقول ، وأنا أيضا سأختصر بعضا منه - قال سيد قطب فعن محمد بن
اسحاق قال باسناده عن جماعة انه كان من حديث الخندق أن نفرا من
اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وأخوه كنانة ، وحي بن
أخطب ونفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل هم الذين حزّبوا
الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا حتى قدموا على
قريش في مكة فدعواهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت
لهم قريش يا معشر يهود انكم اهل الكتاب الأول : والعلم بما
أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ .

قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه ، فهم
الذين أنزل الله تعالى فيهم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ
نَصِيرًا ؕ أَمْ لَمْ يَكُن لَّهُمْ نَصِيحٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا ؕ أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ

مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا) . (٢)

== البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٩٤ : أن الغزوة وقعت أيضا في السنة
الخامسة للهجرة .

(١) من ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٨٢٢

(٢) سورة النساء آية / ٥١ : ٥٥

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وخرجت غطفان ، وخرجت جماعة قبيلة أشجع . (١)

" فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل معه المسلمون فدأب فيه ودأبوا " . (٢)

وأضاف المؤلف قائلا : " ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال (٣) من رومة فـ في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى (٤)

-
- (١) السيرة النبوية لابن هشام تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد ج ٣ ص ١٢٨ باختصار .
- (٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٢٨ .
- (٣) مكان بأسفل المدينة حيث تجتمع سيول العتيق وبطحان وقناه : معالم بلاد الحجاز لعاتق البلادي ج ٢ ص ٢٩ .
- (٤) مكان جنوب رابغ على عشرين كيلو فيه مرفأً صغير لصيادي السمك ومخفر لسلاح الحدود ، معالم بلاد الحجاز ج ٢ ص ٢٥٨ ، ونقمتى فى الظلال مشكلة باسكان القاف ، لكن المواب فتحها كما في معجم البلدان حيث قال هي بالتحريك والقصر من النقمة وهي العقوبة على وزن جمزى وذنب نقمة موضع من اعراض المدينة كان لآل أبي طالب . معجم البلدان .

الى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع^(١) في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام^(٢). فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم تكن بينه وبينهم حرب الا الرمي بالنبل والحصار^(٣) فلما اشتد على الناس الحال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينه بن حصن والى الحصارث ابن عوف - وهما قائدا غطفان - يفاوضهما في الصلح ، وبعث الى سعد بن معاذ " سيد الأوس " وسعد بن عباد " سيد الخزرج " فذكر ذلك لهما - أى صالح القوم على اعطائهم ثلث ثمار المدينة - واستثناهما فيه فقالا له : " يا رسول الله أما تحبه فنمنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لاندلنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : " بل شئ، أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك الا لأنني رأيت العسرب

(١) هو جبل بسوق المدينة / معجم معالم بلاد

الحجاز ج ٤ ص ٢٢١ .

(٢) وهي الحصون وأكثر ما يسمى بهذا الاسم حصون المدينة : معالم بلاد

الحجاز ج ١ ص ١١٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٣٣ تقديم وضبط طه عبد الرؤوف سعد .

قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم^(١) من كل جانب فأردت أن أكسر
 عنكم من شوكتهم الى أمر ما ، فرد سعد بن معاذ : " واللله
 مالنا بهذا - أى الصلح - من حاجة واللله لانعطيهم الاالسييف
 حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 " فأنت وذاك " فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من
 الكتاب ثم قال : " ليجهدوا علينا " (٢) ، (٣) وعاش الرسول
 صلى الله عليه وسلم وأصحابه أياما في خوف وقلق وشدة لتظاهرو
 الاعداء عليهم حيث أتوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، ثم كان قدر
 الله جل وعلا بقدم نعيم بن مسعود الغطفاني الى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم مؤمنا وعرضه المساعدة ، فطلب منه عليه
 الصلاة والسلام أن يخدع الاعداء من اليهود والمشركين

-
- (١) أى توائبوا عليكم وضايقوكم ، لأنه يقال هم يتكالبون على كذا ، أى
 يتواشبون عليه ، وكالب الرجل مكالبا وكلابا : ضايقه مضايقة
 الكلاب بعضها بعضا عند المهارشة : لسان العرب لابن منظور
 م / ٣ ص ٢٨٣ .
- (٢) يقصد الحرب لأن الجهد : ماجهد الانسان من مرض أو أمر شاق ،
 والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق
 من شيء : لسان العرب ج ١ ص ٥٢٠ - ٥٢١ ، وانظر السيرة
 النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٢٣ - ١٢٤ بتصرف واختصار .
- (٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٣٤ .

المتحزبين^(١) بخدعة توقع بينهم وأجاز عليه ماسيقوله — من كلام^(٢)؛ وأراد الله أن تسرى عليهم الخدعة فاختلفوا فيما بينهم — وطلبت اليهود من الاحزاب تأخير الحرب الى ما بعد السبت ، ولكن بشرط أن يعطوهم رهنا من رجالهم الأشراف حتى يقاتلوا معهم — محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه^(٣) فكان هذا الاختلاف والتأخير لحكمة ٠٠٠ حيث ارسل الله عليهم ريحا شديدة في ليلة شاتية باردة فهدمت خيامهم وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم ، وفعلت فيهم جنود الله - المرثية وغيرها - الأفاعيل فامتلت قلوبهم رعبا وخوفا وساد الهرج والمرج والاصياح^(٤) فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فدعا حذيفة بن اليمان فبعثه اليهم لينظر ما فعله القوم

-
- (١) وهذه الخدعة أوصى فيها نعيم بن مسعود ليهود بني قريظة أن قريشا وغطفان سيخلون بمعاهدتهم معهم في قتال المؤمنين فلا بد من مطالبتهم ببعض اشرافهم رهينة لدى اليهود - حتى يوفوا بعهدهم ثم انه ذهب لقريش أولا ثم غطفان ثانيا ، وأوصى لهم مخالفة اليهود لعهدهم وأنهم سيطالبونهم بأشرافهم رهينة ، ثم يغدرون بهم ويدفعونهم للمؤمنين ثم ينضم اليهود لصف المؤمنين ضدهم : السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٩ تعليق طه عبد الرؤوف بتصريف واختصار .
- (٢) المغازي لمحمد بن عمر الواقدي ج ٢ ص ٤٨١ تحقيق د . مارسدن جونس وانظر فتح الباري شرح صحيح البخارى كتاب المغازي باب غزوة الخندق وفي الاحزاب ج ٧ ص ٣٠٢ .
- (٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١١٢ .
- (٤) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ، الطبعة الثانية ص ٢٢٧ .

ليلا فأمثل أمره عليه الصلاة والسلام ، ثم دعا ليخبره أن القسوم
قررروا الرحيل ٠٠٠ وصدق الله العظيم حيث قال :

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) (١)

وبعد ذكر المؤلف للوقائع التاريخية - لغزوة الخندق - مؤيدا بما جاء
في كتب السيرة والتاريخ وجدناه يربط هذا الواقع بما جاء في الآيات
الكريمة حيث قال : ان النص القرآني يترك اسماء الأشخاص والتفصيلات
الدقيقة ليصور نماذج البشر وانماط الطباع وليصور القيم الثابتة
والسنن الباقية بحيث لا تنتهي بانتهاء الحادث ولا تنقطع بذهاب
الاشخاص بل تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ، ولكل قبيل ، كما أن النص
القرآني يحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على
الاحداث والاشخاص ويظهر تدبيره - جل وعلا - اللطيف ، ويقف
عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب ،^(٢) مع أنه كان يقص
القصة على الذين عاشوها وشهدوا أحداثها فانه كان يزيدهم بها
خيلا ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها
ويلقى الأضواء على خفايا النفوس وأسرار القلوب ومخبات الضمائر
ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في اعماق الصدور^(٣)

(١) سورة الاحزاب آية / ٢٥

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٨٢٥ - ٢٨٣٦ باختصار
وتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ص ٢٨٣٦ بتصرف .

كما وجدنا المؤلف - أخيرا - يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله فيقول : " ان النص القرآني معد للعمل - لافي وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب • ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ • معد للعمل في النفس البشرية اطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهة في الآماد الطويلة ، والبيئات المتنوعة بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى " . (١)

فتراه في هذا المثال استوفى النقاط الأربع - التي ذكرتها سابقا - في منهجه لعرض الواقع التاريخي •

المثال الثاني :

ما جاء في تفسيره لسورة البلد عند قوله تعالى :

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) . (٢)

حيث بدأ في ايضاح ما تضمنته الآيات مركزا على الواقع التاريخي السائد المتعلق بها ثم مستشهدا على ذلك من كتب السيرة •

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨٣٦

(٢) سورة البلد آية / ١٠ - ١٤ •

قال رحمه الله :

" هذه هي العقبة التي يقتحمها الانسان - الامن استعان بالايمان - (١)
 هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة • لو تخطاها لوصل
 وتصويرها كذلك حافز قوى ، واستجاشة للقلب البشرى ، وتحريك
 له ليفتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين
 هذا الكسب الضخم (فلا اقتحم العقبة) ففيه تحضيض ودفوع
 وترغيب •

ثم تفخيم لهذا الشأن العظيم (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) انه ليس
 تضخيم العقبة ولكنه تعظيم شأنها عند الله ليحفز به الانسان الى
 اقتحامها وتخطيها مهما تتطلب من جهد ومن كبد (٢) : فالكبد
 واقع واقع وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم
 عما يكابده ولا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال •
 ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة
 التي تواجهها الدعوة في أمس الحاجة اليه • فك الرقاب ، واطعام
 الطعام وخاصة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة ، وينتهي بالأمر
 الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص وتواجهه النفوس جميعا

(١) الاستعانة لتكون الا بالله وحده •

(٢) الكبد : الشدة والمشقة ، ويقال في كبد : أى انه خلق يعالج ويكايد أمر
 الدنيا وأمر الآخرة - ويقال في كبد : أى خلق متصبيا يمشى على رجليه :
 لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ٢١٠ •

وهي تتخطى العقبة الى النجاة ، " ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة " وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها وأن العتق هو الاستقلال بهذا^(١) ، وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والاسلام في مكة محاصر وليست له دولة تقوم على شريعته وكان الرق عاماً في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها ، وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الاطلاق ، فلمّا أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته ، وبلال بن رباح ، وصهيب وغيرهم - رضي الله عنهم - أشد عليهم البلاء من سادتهم العتاه وأسلموهم الى تعذيب لا يطاق فلم يكن الخلاص الا بتحريرهم بشرائهم من سادتهم وكان أبو بكر - رضي الله عنه - هو السابق كعادته

(١) لم يشر الى من أورد هذا المعنى ، وانما ذكره الألويسي ج ١٠ ص ١٧٥ في روح المعاني حيث ذكر حديثاً أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٤ ص ٢٩٩ ، ورواه البيهقي في سننه ج ١٠ ص ٢٧٣ عن البراء بن عازب أن اعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال : " اعتق النسمة وفك الرقبة " . قال : أوليستا بواحدة قال : " لا ان عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في عتقها " قال الألويسي : " ومن الفك بهذا المعنى : اعطاء المكاتب ما يصرفه في جهة فكاك نفسه . ولكن ما وجدته في كتب التفسير الاخرى أن فك الرقبة بمعنى العتق فقط ، وبمعنى تخليص النفس ===

حيث يلبي في ثبات وطمأنينة واستقامة . (١)

وقال ايضاً مستشهداً على هذا الوضع التاريخي من كتب السيرة قال ابن اسحاق : وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعـض بني جمح عبداً رقيقاً وكان صادق الاسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجـه اذا حميت الظهرية فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد احد حتى مر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يوماً وهـم يصنعون ذلك به فرأى أن يبادل أمية بن خلف بـغلام عنده على دينه وهو أقوى وأجلد من بلال فقبل أمية فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا واعتقه ، ثم اعتق معه على الاسلام قبل ان يهاجر الى المدينة ست رقاب بلال سابعهم .

وقال ابن اسحاق : ان أبا قحافة قال لأبي بكر : يا بني اني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك اذا فعلت ما فعلت اعتقت رجلاً جليداً يمنعونك ويقومون دونك قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : " يا أبت اني انما أريد ما أريد لله " . (٢)

=== باجتناب المعاصي وامتنال الأمر ، انظر تفسير الطبري ج ٣ ص ١٢٩ ، تفسير القرطبي ج ٨ ص ٧١٥٨ ، أحكام القرآن لابن العربي ج ٤ ص ١٩٣٩ ، فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ، وتفسير الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ٣٥٤ .

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٢ باختصار وتصرف يسير .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٣١٩ .

ويعقب المؤلف على ذلك بما يفيد أن أبا بكر رضى الله عنه كان يفتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية^(١) . لله وكانت الملايسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله . (٢)

وأخيرا نراه يشير الى طرق الاستفادة من هذه الآيات في مجال الدعوة الى الله تعالى حيث يقول عند تفسير قوله تعالى : (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)^(٣) ثم : هنا ليست للتراخي

الزمنى ، وانما هي للتراخي المعنوى باعتبار هذه الخطوة هي الأشملى والأوسع نطاقا والاعلى أفقا فاذا كان الصبر هو العنصر الضرورى للايمان بصفة عامة ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، فالتواصى به درجة اعلى من درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الايمان ، حيث يوصى بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاضل ويقوى بعضها بعضا فلا تنهزم . فواجب المؤمن في الجماعة داعية المؤمنة ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

-
- (١) العانية : الاسيرة الخاضعة الرقيقة لأن العاني : الاسير والعاني : الخاضع والعاني : العبد : لسان العرب ج ٢ ص ٩١١ .
 (٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٣ بتصرف .
 (٣) سورة البلد آية / ١٧ .

وكذلك التواصي بالمرحمة فهو أمر زائد على المرحة ، انه اشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، واتخاذها واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته يتعارف عليه الجميع ويتعاون عليه الجميع" . (١)

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩١٣ باختصار وتصرف يسير .

الفصل الثاني

الوحدة الموضوعية

ويشتمل على

- * المبحث الأول : مفهوم الوحدة الموضوعية
- * المبحث الثاني : أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضوع
- * المبحث الثالث : تعدد الموضوع الواحد بحسب دواعيه
- * المبحث الرابع : مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية
- * المبحث الخامس : الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي

المبحث الأول

مفهوم الوحدة الموضوعية



الفصل الثاني

الوحدة الموضوعية

* المبحث الاول : مفهوم الوحدة الموضوعية :

* معنى الوحدة في اللغة :

قال سيبويه : الوحدة في معنى التوحيد ، وتوحد برأيه تفرد به (١)
وقال ابن سيده : ورجل أحد ووحد ووحد ووحد ووحد ، ومتوحد أى :
منفرد . (٢)

وذكر الراغب الاصفهاني أن الوحدة الانفرادية والواحد في الحقيقة هو
الشيء الذي لا جزء له البتة ، ثم يطلق على كل موجود . (٣)

* معنى الموضوعية في اللغة :

قال في لسان العرب : الوضع ضد الرفع ، وضعه يضعه وضعا وموضوعا . (٤)
وذكر الراغب : أن الوضع أعم من الحط ، واستعمل في القرآن الكريم
على عدة معان ، ومن أمثلة ذلك :

-
- (١) لسان العرب لابن منظور ، المجلد الثالث : ص ٨٨٨
 - (٢) لسان العرب ، لابن منظور المجلد الثالث . ص ٨٨٧
 - (٣) المفردات للراغب الاصفهاني . ص ٥١٤ .
 - (٤) لسان العرب المجلد الثالث . ص ٩٤١ .

- (١) قوله تعالى : (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)^(١) بمعنى انها خلقت ووجدت .
 (٢) وقوله : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ)^(٢) بمعنى بنى للناس للعبادة .
 (٣) وقوله : (وَلَا وُضِعُوا خِلَافَكُمْ)^(٣) بمعنى حملوكم على الاسراع
 في السير . (٤)

أما الوحدة الموضوعية باعتبارها مركبا وضعيا فمعناها : اتحاد الموضوع الذى ذكر متناثرا وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية كاملة . كما نقول بعبارة أخرى وحده الموضوع .
 اما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها : " البحث عن القضايا الخاصة التى عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذى نبخته لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم " . (٥)
 وعليه فتكون الوحدة الموضوعية في السورة :

" هي البحث عن الهدف الواحد الذى عرضت له كل سورة من سور القرآن الكريم ومدى ارتباطه بأجزاء السورة وموضوعاتها الاخرى " - من جندل الى قصص الى تشريع الى وصف - فايجاد الوشائج التى تربط

- (١) سورة الرحمن آية / ١٠
 (٢) سورة آل عمران آية / ٩٦
 (٣) سورة التوبة آية / ٤٧
 (٤) المفردات للراغب الاصفهاني : ص ٥٢٥ - ٥٢٦
 (٥) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازى : ص ٣٣ - ٣٤ .

بين موضوعات السورة من أحكام ومبادئ، وما تذكره القصص ، ومشاهد
والخروج من ذلك كله الى هدف واحد يجمع بينها هو الوحدة الموضوعية
للسورة .

أما ربط السورة - أى سورة - بهدفها مع السور التي قبلها بأهدافها
والسور التي بعدها أيضا بأهدافها فهو ما نطلق عليه : " الوحدة
الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم " حيث ترتبط هذه الاهداف بعضها
ببعض ويصدق بعضها بعضا ، ونصل في النهاية الى عبادة الله
وحده لا شريك له وامتثال أمره واجتناب نهيهِ .

المبحث الثاني

أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضوع

* المبحث الثاني : أنواع سور القرآن بالنسبة لوحدة الموضوع :

من المعروف أن القرآن الكريم كتاب الله العزيز كان - وما زال - سوراً محكمات وكل سورة مكونة من عدد من الآيات أقصرها ثلاث آيات وأطولها يزيد على الثمانين بعد المائتين^(١) وأغلب السور وان جمعت بين آيات مختلفة النزول مكاناً وزماناً لكنها تهدف إلى غرض واحد أو تعالج موضوعاً معيناً له في الغالب مقدمات ونتائج فمثلاً سورة البقرة تناولت الأحكام بالتفصيل ، سورة النساء تناولت ما يتعلق بالنساء ، وسور الانعام والرعد و ابراهيم والنحل ، ويس في العقيدة وأصول الإيمان ، وسور الاعراف وهود ويوسف في قصص الانبياء ، وسورة الرحمن في بيان النعم على الانس والجن ، وسورة الحزاب تناولت بيت النبوة ، وسورة التكويد تحدثت عن يوم القيامة .^(٢)

وهكذا جميع السور .

ثم ان السور المكية تكاد تجتمع حول موضوعات معينة مثل :

- (١) الدعوة إلى العقيدة وأصول الإيمان ، وتصوير الجنة والنار .
- (٢) مجادلة المشركين بضرب أمثلة وإتيانهم بكل دليل وتسفيه أحلامهم وبيان ما هم فيه من ضلال .

(١) سورة البقرة آية / ٢٨٦

(٢) باختصار من كتاب إيجاز البيان في سور القرآن لمحمد علي الصابوني ص ١٦ ، ٢٤ ، ٥٧ ، ٢٨١ .

(٣) لتعريف المكي والمدني راجع مناهل العرفان ج ١ ص ١٨٦ والبرهان ج ١ ص ١٨٧ .

- (٣) شرح أصول الاخلاق الحميدة والدعوة الى التمسك بها والاستقامة على الخير .
- (٤) بيان قصص الانبياء والامم الغابرة للاتعاظ وأخذ العبرة .
- وكذلك الامر بالنسبة للسور المدنية فهي تكاد تتحد موضوعاتها
في الآتى :
- (١) التحدث عن تفاصيل أحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية والحربية .
- (٢) مجادلة أهل الكتاب في عقائدهم الباطلة وبيان جنایاتهم على الحق ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم .
- (٣) بيان أحوال المنافقين وصفاتهم . (١)
- والملاحظ أن سور القرآن من حيث وحدة الغرض أو تعدده نوعان :

* النوع الاول :

اقتصر على غرض واحد أو موضوع واحد وأغلب ذلك في المفصل وأمثله كثيرة منها :

أ - سورة المسد التي يقول فيها تبارك وتعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَمَلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) . فنرى أن غرضها بيان هلاك عدوى الله ورسوله : " أبي لهب وزوجته " الذي حاول هو

(١) مميزات المكي والمدني بتصريف من مناهل العرفان ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٧ والمدخل لدراسة القرآن لمحمد أبي شهبة ص ٢٢٨ - ٢٣٢ ومباحث في علوم القرآن لمبهي الصالح ص ١٨٢ / ١٨٣ .

هو وزوجته بشتى الطرق افساد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وصد الناس عن دين الله .

وقد بيّن ذلك الاستاذ سيد قطب في الظلال فذكر الحديث الذى يعتبر سببا لنزول السورة فقال : ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الاول للدعوة . (١)

أخرج البخارى باسناده عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى البطحاء (٢) ، فصعد الجبل فنادى "يا صباحاه " فاجتمعت اليه قريش فقال : " أرأيتم ان حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ : قالوا : نعم ، قال : " فانى نذير لكم بيمن يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا تبا لك ، فأنزل الله عز وجل تبت يدا أبا لهب الى آخرها . (٣)

ثم بدأ في تفسير السورة بقوله :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) والتباب الهلاك والبوار والقطع

" وتبت " الاولى دعاء وتب تقرير لوقوع هذا الدعاء فى آية قصيرة

واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتحقق وتنتهى المعركة ويسدل

الستار . (٤)

-
- (١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٩٩
 (٢) البطحاء : الحمى الصغار والمراد الحمى اللين في بطن المسيل يعنى بطحاء مكة وهو مسيل واديبها : النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ١٣٤ .
 (٣) رواه البخارى في كتاب التفسير باب تفسير سورة تبت ج ٨ ص ٥٦٧ من فتح البارى ، وعين الواحدى الجبل بأنه الصفا في رواية اخرى في كتاب اسباب النزول ص ٣٠٩ .
 (٤) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٤٠٠٠

وهناك ملحوظة ذكرها الخازن في تفسيره حيث قال : فان قلت : لم كناه
 وفي التكنية تشريف وتكرمة ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أنه كان
 مشتهرا بالكنية دون الاسم فلو ذكره باسمه لم يعرف ، والثاني : أنه
 كان اسمه عبد العزى فعدل عنه الى الكنية لما فيه من الشرك - لان العزى
 صنم فلم تضاف العبودية الى صنم .

الثالث : أنه لما كان من أهل النار وما له الى النار ، والنار ذات لهب
 وافقت حاله كنيته وكان جديرا بأن يذكر بها . (١)

وأكمل الاستاذ سيد قطب تفسير السورة بقوله : فأما الذى يتلوه
 آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان : (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ
 وَمَا كَسَبَ) لقد ثبت يده ، وقد يراد نفسه كلها لان العزب
 تعبر ببعض الشيء عن كله . (٢) وهلكنا وتب هو وهلك - فعبر بالماضى
 لتحقيق وقوعه - فلم يغن عنه ولم يذفع عنه ما حل به من التباب
 والهلاك وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من الارباح
 والجاه ؛ وهذا حكم الله فيه في الدنيا ، أما في الآخرة فانسه
 (سيملى نارا ذات لهب) أى ذات توقد واشتعال فيذكر

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٣١٧

(٢) فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٥١١

(٣) تفسير البيضاوى مع حاشية الشهاب ج ٨ ص ٤٠٩

(٤) فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٥١٢ .

اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وايحاء بتوقدها وتلبيها التلى

سيمليه الله فيها .

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) أى وستملى هذه النار معه امرأته - ولم

يقل زوجه لتحقيرها - حالة كونها حمالة للحطب أى أنها تحمل

يوم القيامة حزمة من حطب جهنم ، أو أنها مع كثرة مالها كانت تحمل

الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل^(١) ، أو أنها

حمالة الخطايا والذنوب بمعادة الرسول صلى الله عليه وسلم وحمل

زوجها على ايذائه أو أنها حمالة حزمة الشوك والحسك^(٢) ، فانها

كانت تحملها فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه

وسلم . (٣)

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) أى في عنقها حبل من مسد - أى

فُتِلَ فُتْلًا شَدِيدًا - من الحبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها

في جيدها كما يفعل الخطابون تخسيسا بحالها^(٤) . قال المؤلف

رحمه الله هذا الحبل اما أن تشد هي به في النار أو تشد به الحطب

الذى ستحملة ، وهذا على المعنى الحقيقى ان كان المراد هو الشوك

(١) تفسير ابي السعود ج ٥ ص ٥٨٩

(٢) الحسك : هو شوك في عشبة تضرب الى الصفرة ، يسمى الحسك ، مدحرج لا يكاد

أحد يمشى فيه ، اذا يبس ، الا أحد في رجليه خف أو نعل : تاج العروس ج ٧ ص ١١٩

(٣) تفسير البضاوى مع حاشية الشهاب ج ٨ ص ٤١٠

(٤) تفسير ابي السعود ج ٥ ص ٥٨٩

أو المعنى المجازى ان كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر ، والسعى
بالاذى والوقيعنة . (١)

ب- سورة الفيل ، التى يقول جل وعلا فيها : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ فَأَكَلُوا

فهى تتحدث عن قصة أصحاب الفيل ، وكيف أهلكهم الله بظلمهم وحمى
بيته الحرام من تسلطهم وطغيانهم ٠٠٠٠ وفي ذلك أعظم العظة والعبرة
لاهل مكة بدفع أعدائهم عنهم ، وكون ذلك الحدث في العام الذى ولد
فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ارهاصا^(٢) عظيما دالا على نبوته
عليه الملاة والسلام .

ولقد قال مؤلف الظلال فيها :

تشير هذه السورة الى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية
قبل البعثة عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى
اختارها الله لتكون ملتقى النور الاخير ، ومحض العقيدة الجديدة ،
والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء
الارض ، واقرار الهدى والحق والخير فيها .

(١) في ظلال القرآن م ٦ ص ٤٠٠٠ بتصريف يسير .

(٢) الارهاص : الاتبات ، يقال أرهص الشيء ، اذا أثبته وأسسه ومنه ارهاص النبوة :
تاج العروس للزبيدي ج ٤ ص ٤٠٠ فكأن ذلك الحدث مقدمة للنبوة وايدان بها
ويثبتها ويمهد لها .

ثم استطرد المؤلف في التعليق على الاقوال الواردة في قصة أصحاب الفيل ، وبعدها بدأ في التفسير بقوله : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) ؟ وهو سؤال للتعجب من الحادث والتنبيه الى دلالة العظيمة فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم حتى لقد جعلوه مبدءاً لتاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات ، والمشهور أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الفيل ذاته ، ولعل ذلك من بدائع الموافقات الالهية المقدره . (١)

وذكر أبو السعود في تفسيره : " أما تعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لابنفسه فكان لتحويل الحادثة والايذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظيم قدرة الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته ورفعته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام ، فان ذلك من الارهاصات لما روى أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم . (٢)

هذا ولقد ذكر الرازي في تفسيره ملحوظة دقيقة في قوله تعالى : " بأصحاب الفيل " ملخصها : " أن الجماعة المخربة كانت من جنس الفيل في البهيمه وعدم الفهم والعقل ، بل اذا حصلت المماحية بين

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٧٩

(٢) تفسير أبي السعود ج ٥ ص ٥٧٦

شخصين يقال للادون أنه صاحب الاعلى ، ولا عكس ، ويؤيد ذلك أنهم كلما وجهو الفيل الى جهة الكعبة كان يبتعد عنها ولا يتقدم ، وكلما وجهوه الى جهة أخرى كان يسير فكأنه كان يقول لهم " لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق (١) فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالا منهم. (٢)

ثم ذكر سيد قطب في تفسير قوله تعالى : (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي سَفِيلٍ) ما معناه ان الله جل وعلا أضل مكرهم فلم يبلغ هدفه وغايتته وقال الشوكاني : " والهمزة للتقريب كأنه قيل : " قد جعل كيدهم في سفيل ، والكيد : هو اراادة المضرة بالغير ، لانهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبي ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم (٣) ، أما كيفية جعل كيدهم في سفيل فقد وضحته الآيات التي بعده :

(وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) والطير اختلف في وصفه على أقوال منها : أنها طيور سود بحرية ، ومنها أنها طيور خضر بحرية لها رؤوس كرؤوس السباع ، ومنها أن لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب (٤)

-
- (١) رواه أحمد في مسنده ج ١ ص ١٢١ بلفظ " لاطاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل ، ورواه مسلم في كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية ج ١٢ ص ٢٢٧ بلفظ " لاطاعة في معصية الله ، انما الطاعة في معروف " .
- (٢) تفسير الفخر الرازي المجلد ١٦ ص ٩٨ بتصريف
- (٣) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٤٩٥ وذكر الالوسي : قد جعل كيدهم في تضييع وابطال بأن دمرهم أشنع تدمير ، المجلد العاشر ص ٣٠٢ .
- (٤) تفسير القرآن لابن كثير ج ٤ ص ٥٥١ وفتح القدير ج ٥ ص ٤٩٥ .

أما الابابيل : فهي الجماعات الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا .
والسجيل : اختلف فيه أيضا على أقوال منها أنه علم للديوان الذي
كتب فيه عذاب الكفار فكانت تلك الحجارة من جملة العذاب المكتسوب
لهم .

ومنها أنه الطين المتحجر أو الحجارة الملوثة بالطين^(١) وهو الصحيح بدليل^(٢)
قوله تعالى : (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) .^(٣)
والعصف المأكول : هو ورق الزرع الذي وقع فيه الآكال^(٤) أو التبن
أو قشرة الحب الذي أكل لبه .^(٥)

وذكر المؤ لف سيد قطب أن كيفية جعل كيدهم في تضليل ماهي الا صورة
حسية للتمزيق البدني لاصحاب الفيل نتيجة ما رمتهم به جماعات
الطير من حجارة ، ولا ضرورة لذكر كونها تمويرا لحال هلاكهم وعذابهم
بمرض الجدرى أو الحصبة .^(٦)

-
- (١) تفسير الفخر الرازي المجلد ١٦ ص ١٠١ ، وتفسير ابي السعود ج ٥ ص ٥٧٨
(٢) تفسير أحكام القرآن للقرطبي ج ٤ ص ٣٣١٠
(٣) سورة الذاريات آية / ٣٣
(٤) الآكال : بالفتح الطعام ، والآكال : مآكل الملوك . وآكلت الشجرة : أطعمت . لسان العرب
ج ١ ص ٧٨ ، فكان الطير أو الدور أو الدواب أكلته كله أو معظمه .
(٥) تفسير القرآن لابن كثير ج ٤ ص ٥٥٢ والفخر الرازي المجلد ١٦ ص ١٠١
(٦) كأنه بذلك لا يرتضى ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده في تفسيره " جزء عم " من كونهم أصيبوا بمرض الجدرى أو الحصبة . والحقيقة ان قول الشيخ
هذا تأويل للقرآن وخروج به عن حقيقته .

* النوع الثانى :

وهو ما اشتمل على أغراض عديدة وتحدث عن موضوعات كثيرة الا أن هذه الموضوعات تدور حول هدف واحد ، وللذين تناولتهم الموضوعات نهاية واحدة وهذا من أروع معجزات القرآن الكريم التى امتاز بها .
والسور المكية كما عرفنا عالجت الاصول الكبرى للدين وهى :

- أ - تقرير الوجدانية لله تعالى .
ب - وتقرير النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقه فيما جاء به .
ج - واثبات البعث والحشر يوم القيامة وأن الناس فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .
وسورة المؤمنين من السور المكية التى جمعت أغراضا عديدة وموضوعات جليلة الا أنها تمتاز عن غيرها بأنه يغلب عليها طابع تقرير النبوة حيث أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تكبرا منهم أن يرسل اليهم بشرا مثلهم يقودهم وهم الاشراف فى قومهم . (١)
فجاءت هذه السورة تبين وصف البشرية وكمالها البشرى الذى يستحق الرفعة والاصطفاء حيث بدأت ببيان صفات المؤمنين - الذين كتب لهم الفلاح - التى استحقوا بها ميراث الفردوس الاعلى . ثم جاءت بعد ذلك بآيات بينت أدلة الوجدانية فى خلق الانفس والآفاق فعرضت أطوار

(١) الموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٤١٦ - ٤١٧ بتصرف

الانسان ، ثم تحدثت عن خلق السماء وانزال المطر الذي فيه حياة النفوس - واخراج أنواع النبات والنخيل والاعناب ، ثم ذكرت الانعام والفلك المسخرة للانسان .

ثم ذكرت السورة بعض قصص الانبياء السابقين مبينة أن سبب كفر الاقوام السابقين هو نفس السبب الذي كذب به قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أن البشرية تتنافى مع الرسالة ، وفي هذا كله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وبيان بأن طريقة التكذيب في جميع الاقوام واحدة^(٢) ، فمثلا :

أ - في موقف قوم نوح عليه السلام منه ومن دعوته ، قال تعالى :

(فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ) .^(٢)

قال سيد قطب - رحمه الله - حول هذه الآية :

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم^(٣) الى تلك الدعوة الكبيرة فما كانوا ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها وتعمى عليهم عنصرها وتقف حائلا

(١) باختصار من كتاب ايجاز البيان في سور القرآن لمحمد علي الصابوني ص ٩٨ - ٩٩ .
 (٢) سورة المؤمنون آية / ٢٤
 (٣) وهم السادة والاكابر والاشراف : وعينهم ابن كثير في تفسيره ج ٣ ص ٢٤٣ ، والنسفي ج ٣ ص ١١٧ .

بين قلوبهم وبينها ، فاذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لايفترق في شيء عنهم يريد أن يتفضل عليهم وأن يجعل لنفسه منزلة^(١) فوق منزلتهم .

وهم في اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التي يتوهمون أنه يعمل لها ويتوسل اليها بدعوى الرسالة في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده بل يردون فضل الانسانية التي هم منها ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر^(٢) وعجبا لقوم لم يرضوا بالنبوة للبشر ورضوا بالالوهية للحجج^(٣) (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) أي لو شاء الله ارسال رسول لارسل ملائكة ، وانما عبر بالانزال عن ارسال لان ارسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم : (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى) أي يمثل دعوى هذا المدعى للنبوة من البشر أو يمثل كلامه وهو الامر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعى هذه الدعوى في آياتنا الاولين ، أي في الامم الماضية قبل هذا .^(٤)

-
- (١) مثل ان يترأسهم ويترفع عليهم ويتعظم بدعوى النبوة : ابن كثير ج ٣ ص ٢٤٣ ، والكشاف ج ٣ ص ٢٩ .
- (٢) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٤ .
- (٣) الكشاف ج ٣ ص ٣٠ والنسفي ج ٣ ص ١١٧
- (٤) فتح القدير المجلد الثالث ص ٤٨١ .

ب- وفي موقف القوم الذين أتوا بعد نوح عليه السلام من رسلهم قال تغاللى
 (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتَرَفَنَّهُمْ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
 مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ) . (١)

قال مؤلف الظلال : لم يحدد من هم (٢) وهم على الأرجح عاد قوم هـ (٣) .

وقال الشوكانى : وصفهم بالكفر والتكذيب : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ
 الآخِرَةِ) أى كذبوا بما فى الآخرة من الحساب والعقاب أو كذبوا بالبعث
 (وَأَتَرَفَنَّهُمْ) أى وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه
 (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من كثرة الاموال ، ورفاهية العيش . (٤)

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) نفس الاعتراض على بشرية الرسول وهو الاعتراض
 الناشئ من انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة
 العلوية التى تصل الانسان بخالقه الكريم . (٥)

(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) فوصفوه بمساواتهم
 فى البشرية وفى الاكل والشرب مما تشربون منه وذلك يستلزم عندهم أنه
 لافضل له عليهم . (٦)

(١) سورة المؤمنون آية / ٣٣ : ٣٤

(٢) قال الطبرى : وعنى الرسول فى هذا الموضع صالحا ويقومه ثمود ج ١٨ ص ١٥

(٣) ورد ذلك فى الكشاف ج ٣ ص ٣١ ، والنسفى ج ٣ ص ١١٩ ، وفتح القدير ج ٣ ص ٤٨٢

(٤) فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٤٨٢

(٥) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٧

(٦) فتح القدير ج ٣ ص ٤٨٣ .

(وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلَكُمْ) فاتبعتموه وقبلتم مايقول وصدقتموه
 (إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ) أى المغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة فى
 الدنيا باتباعكم اياه . (١)

ج- وفي موقف قوم موسى وأخيه هارون منهما قال تعالى : (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ
 لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) . (٢)

قال سيد قطب - رحمه الله - ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض ذاته
 على بشرية الرسل . (٣)

وقال الشوكانى : والاستفهام للانكار : أى كيف نصدق من كان مثلنا
 فى البشرية ، والبشر يطلق على الواحد كقوله : * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ
 لِي غُلَامٌ * وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشُرٌ * (٤) ويطلق على الجمع كما فى قوله
 (فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا) (٤)

فتثنيته هنا باعتبار المعنى الاول وأفراد المثل لانه فى حكم المصدر
 ففرعون وملؤه سخروا من موسى عليه السلام ، وأخيه هارون وقالوا أنؤمن
 لبشرين مثلنا فنتبعهما وقومهما من بنى اسرائيل لنا عابدون أى مطيعون
 متذللون يأترون بأمرهم ويدينون لهم - والعرب تسمى كل من

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ج ١٨ ص ١٥

(٢) سورة المؤمنون آية / ٤٧

(٣) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٨

(٤) سورة مريم آية / ٢٠ ، ٢٦

(٥) فتح القدير ج ٣ ص ٤٨٥

دان الملك عابدا له (١) - وذلك أدعى كما قال سيد قطب - في اعتبار فرعون وملئته الى الاستهانة بموسى وهارون عليهما السلام . (٢)

وبالامثلة السابقة رأينا أن مؤلف الظلال - بتعليقاته على تلك الآيات وبتفسيره لها - يريد أن يقول : ان سورة المؤمنين بالرغم من أنها اشتملت على موضوعات كثيرة الا أن الطابع الغالب فيها الايمان ومنه تقرير النبوة واثباتها للبشر ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وهو لم يصرح بذلك ولكن بالتأمل فيما يلي نرى أنه يعنى ما أقول :

* أولا : قوله " جو السور كلها جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادى والمنطق الوجدانى واللمسات الموحية للفكر والضمير والظل الذى يغلب عليها هو الظل الذى يلقيه موضوعها . . . الايمان ففى مطلعها مشهد الخشوع فى الملاة : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (٣) وفي صفات المؤمنين فى وسطها : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَا تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) . (٤)

وفي اللمسات الوجدانية : (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (٥) وكلها مظلمة بذلك الظل الايمانى اللطيف . (٦)

-
- (١) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ١٩
(٢) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٦٨
(٣) سورة المؤمنين آية / ٢
(٤) سورة المؤمنون آية / ٦٠
(٥) سورة المؤمنون آية / ٧٨
(٦) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٣

* ثانياً: قوله في تقسيمه لمحتنويات السورة ما معناه: " ان الشوط الثاني منها فيه بيان حقيقة الايمان التي اتفق عليها الرسل من لدن نوح عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم وهي عبادة الله وحده والتي اعترض عليها الكفار بتكذيب الرسل بوصفهم بشرا ، وانتهاء الشوط بنداء الله سبحانه للرسول جميعاً . " (١)

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (٢)

حيث قال سيد قطب - رحمه الله - انه نداء للرسول ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون - كالاكل والعمل الصالح - وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، انما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه الى أفقها الكريم الوضئ ، الذي أراده الله لهـا، وجعل الانبياء روادا لهذا الاتق ومثلاً أعلى . والله هو الذي يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق . (٣)

كما يذكر الشاطبي ذلك في موافقاته حيث يقول :

" فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد ، وبالجملة فحيث ذكر قصص الانبياء عليهم السلام كنوح ، وهود وصالح ، ولوط

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٢ بتمرف .

(٢) سورة المؤمنون آية / ٥١

(٣) في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٤٦٩ .

وشيث^(١) وموسى وهارون ، فانما ذلك تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام
وتثبيت لفؤاده لما كان يلقي من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع
مختلفة فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله . وبذلك اختلف
مسايق القصة الواحدة بحسب اختلاف الاحوال ، والجميع حق واقع لا اشكال
في صحته " . (٢)

* * *

-
- (١) شيث : هو ابن آدم ومعناه : هبة الله لانهما أى آدم وحواء رزقاه بعد أن قتل
هابيل . قال محمد بن اسحاق لما حضرت الوفاة آدم عهد الى ابنه شيث وعلمه
ساعات الليل والنهار وعلم عبادات تلك الساعات واعلمه بوقوع الطوفان بعد
ذلك ، ويقال : ان انتساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى الى شيث وسائر اولاد آدم
غيره انقرضوا وبادوا . والله اعلم : البداية و النهاية لابن كثير ج ١ ص ٩٨ .
- (٢) الموافقات في اصول الشريعة ج ٣ ص ٤١٩ .

المبحث الثالث

تعدد الموضوع الواحد بحسب دواعيه



المبحث الثالث : تعدد الموضوع الواحد بحسب دواعيه :

لا ينكر أحد أن الشريعة الإسلامية كملت بمبادئها وأسسها العظيمة وصارت سالحة لكل زمان ومكان ، وكذلك هي تصلح كل زمان ومكان ، وذلك لسهولتها وعمومها وأصبحت أهداف القرآن الكريم من كل موضوع ذكر فيه واضحة جلية .

وقد يلاحظ المتدبر في القرآن العظيم - المصدر الأول للشريعة - أن بعض الموضوعات تكررت في عدد من السور ولكن كل موضوع ذكر في كل سورة جاء مناسبا كل المناسبة للسورة ، بل أحيانا يكرر نفس الموضوع في نفس السورة مثل الصلاة باعتبارها عماد الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، وباعتبار كونها عنوانا للمسلم المطيع لربه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فنرى أنه حينما ذكرت حقيقة النفس البشرية المواجهة للخير والشر في حالتها الإيمانية وعدمه فيها ٠٠٠٠ حينما ذكرت هذه الحقيقة في سورة المعارج استثنى المولى عز وجل المصلين المتصفين بصفة جليلة متمثلة في قوله تعالى :

(إِنَّ الْإِيمَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا
إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأِئِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ

إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ
 ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
 رِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ . (١)

وبتأمل هذه الصفات نجده جل وعلا يذكر المصلين مرتين :

- المرة الاولى في قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) .
- والثانية في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) .

ونجد أيضا مؤلف الظلال - رحمه الله - بين الفرق بين صفة الصلاة
 الاولى وصفها الثانية حيث ذكر في الاولى : أن صفتها الدوام الذي
 لا ينقطع ، ونظرا لكون الصلاة - وسيلة الاتمال بالله ومظهر العب-وديعة
 الخالصة له فالدوام يعني الاستقرار والاطمئنان والثبات على الاتصـال
 به جل وعلا ، فلا ترك ولا اهمال ولا كسل بل منتهى الاحتـرام
 لتلك الملة ^(٢) المختلفة عن كل الصلات التي يمكن أن توصل أو تقطع
 حسب المزاج . (٣)

وقال في الثانية ما معناه : ان صفة المحافظة على الصلاة تختلف عن صفة
 الدوام ، وتحقق بالمحافظة عليها في مواعيدها وفي فرائضها وفي سننها

(١) سورة المعارج من آية / ١٩ : ٣٥

(٢) حيدا لو قال سيد كلمة صلة بدلا من قوله " فليس هو لعبة توصل أو تقطع
 حسب المزاج .

(٣) المجلد السادس ص ٣٦٩٩ من ظلال القرآن بتصرف .

وفي هيئتها وفي الروح التي تؤدي بها .

ثم قال : " وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام وبهذا تختم سمات المؤمنين ٠٠٠٠ وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر : (أُولَئِكَ فِي جَنَّتٍ مُكْرَمُونَ) . ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى فهم فى جنات وهم يلقون الكرامة فى هذه الجنات فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم جزاء على هذا الخلق الكريم الذى يتميز به المؤمنون . (١)

والمؤلف بقوله هذا يريد أن يثبت مدى الاتفاق الحاصل بين هذا الموضوع - صفات المؤمنين المصلين - والموضوع العام الذى تعالجه السورة وهو تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء وموازين هذا الجزاء ٠٠٠ كما أن جميع المواضيع والحقائق المذكورة فى السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها .

وكذلك ورد ذكر الصلاة مرتين حينما ذكر المولى عز وجل صفات المؤمنين الفالحين الفائزين بالفردوس الاعلى فى سورة المؤمنين حيث قال تعالى :

(١) المجلد السادس من ظلال القرآن ص ٢٧٠٢ .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
 اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
 حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
 فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ
 وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . (١)

فبدأ الصفات بقوله : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) .
 وختمها بقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

ويبين الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - معنى هذه الصفات فيذكر : أن قلوب
 المؤمنين الصادقين في ايمانهم تستشعر رهبة الموقف في الصلاة بين يدي
 الله لذلك تسكن وتخضع فلا تشهد الا الله ولا تحس الا اياه ولا تتذوق
 الالذة مناجاته ، ولا تشغل ارواحهم وأذهانهم وأجسادهم الا بكل
 ما يصلهم بالله جلت قدرته وعظمته . (٢)

كما يذكر معنى المحافظة عليها فيبينه بعدم تركها اهمالا أو كسلا
 وبتأديتها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن مستوفية الاركان والواجبات .

(١) سورة المؤمنون آية / ١ : ١١

(٢) المجلد الرابع من ظلال القرآن ص ٢٤٥٤ بتصريف .

ويقول بعد ذلك : " ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة وختمت بالصلاة
للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الايمان بوصفها أكمل صورة من
صور العبادة والتوجه الى الله " (١)
وقوله هذا أيضا يثبت أن الوحدة الموضوعية في هذه الجزئية موجودة فليس
أدل على صدق الايمان - الموضوع العام لسورة المؤمنين - الا تأدية
الصلاة كما ينبغي أن تؤدي والمحافظة عليها .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥٧

المبحث الرابع

مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية

* المبحث الرابع : مقارنة بين السور في مجال الوحدة الموضوعية :

لقد كان مؤلف الظلال - رحمه الله - يقارن بين السور ويربط بينها أثناء تعريفه بها ، وتحديد موضوع كل منها علاوة على إظهاره الوحدة الموضوعية فيها وأمثلة ذلك كثيرة منها :

* أولاً: مقارنته بين سورتي الانعام والاعراف :

ففي هذه المقارنة بين أن موضوع السورتين هو العقيدة ولكن طريقتهما عرض الموضوع اختلفت في كل منهما فسورة الانعام عرضته في مجالها النظرى التقريرى ، وسورة الاعراف عرضته في مجالها الحركى الواقعى يقول رحمه الله : " سورة الانعام تعالج العقيدة في ذاتها ، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ، وسورة الاعراف تعالج موضوع العقيدة كذلك ولكنها تأخذ طريقاً آخر وتعرض موضوعها في مجال آخر ... انها تعرضه في مجال التاريخ البشرى في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملا الاعلى ، وعائدة الى النقطة التى انطلقت منها . (١)

ونتيجة لذلك كانت طبيعة التعبير في السورتين مختلفة .

يقول - رحمه الله - " فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها وطريقتها في عرض الموضوع

(١) انظر في ظلال القرآن المجلد ٣/ ص ١٢٤٤ بتصرف وانظر (المنهج الحركي)

للدكتور الخالدى ص ١٦١

وبينما يمضى سياق الآيات في الأنعام في موجات متدافقة ، وبينما تبلغ المشاهد دائما درجة التوهج والالتماع ويبلغ وقع الالفاظ درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع اذ السياق في الاعراف يمضى هادىء الخطو ، سهـل الايقاع تقريرى الاسلوب ، وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تؤوب ا وقد يشتد الايقاع أحيانا في مواقف التعقيب ولكنه سرعان ما يعود الى الخطو الوثيد الرتيب " . (١)

فسورة الأنعام تعالج موضوعها الأساسي " العقيدة " بصورة فريدة . . . انها في كل لمحة منها وفي كل موقف وفي كل موضع رائعة تبهر القلوب الحساسة وتهدف الى تعريف الناس بربهم الحق لتصل بذلك الى تعبيدهم وأرواحهم وتعبيد سعيهم وشعائرهم وسلوكهم لسلطان الله المتفرد الذى لاسلطان لغيره ، لافي السموات ولا في الأرض .

والسورة لا يمكن تجزئتها الى مقاطع ، فكل مقطع منها يتحدث عن جانب من الموضوع الرئيسي " العقيدة " وانما هي موجات وكل موجة تتفق مع التي قبلها (٢) وتكملها ، فالملاحظ أن السورة بدأت بمواجهة المشركين بحقيقة الألوهية يقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى

(١) انظر الظلال م ٣ ص ١٢٤٥ يتصرف وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدي ص ١٦١

(٢) ولي ملاحظة على قوله (موجة) فهي لا يصح اطلاقها على القرآن الكريم .

عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ، وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ بِرُكْمِكُمْ وَجَهْرِكُمْ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ * (١)

وهذه الحقيقة متجلية في لمسات عريضة : فاللمسة الأولى تشمل الوجود الكوني - خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور دائبين - المرثي المنظور الناطق بقدرة الخالق العظيم ، الشاهد على تدبيره الحكيم والمشركون مع ذلك لا يؤمنون ولا يوحدون بل يجعلون الله شركاء يعدلونهم به ويساؤونه .
واللمسة الثانية تشمل الوجود الانساني وتتفرع الى فرعين الأول يبين النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم الى نور الحياة البهيج ، والثاني يبين الأجل المؤدى للموت ، والأجل الثاني المسمى للبعث والمعرضون أيضا يشكرون ولا يستيقنون .

أما اللمسة الثالثة فتضم اللمستين الأوليين في اطار واحد ، وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الانسانية .
وهذه المواجهة التي تمثل الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة نرى أنها خاطبت القلب الانساني والعقل البشرى بدليل الخلق ودليل الحياة ممثليين في الآفاق وفي الأنفس . (٢)

ثم عقت السورة بموجة تالية يقول فيها المولى تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ
مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَتَبْنَا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ
قَرْنًا مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَّكُمْ ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ، وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ

(١) سورة الانعام آية : ١ : ٠٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٠٣٠ : ١٠٣١ بتصرف .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ
 ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ
 وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ * (١)

فذكرت موقف المكذبين - آيات الله المثبوتة في الكون والحياة - الغريب المنكر الدال على الاصرار والعناد والمكابرة ، وتركتمهم أمام تهديد لا يعرفون نوعه ولا مواعده ، وبينت لهم ممارع الأجيال السابقة المكذبة حيث أعطاهم المولى تبارك وتعالى من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للقرشيين - المكذبين - وأرسل المطر عليهم بالخير والنماء وزيادة الأرزاق ومع ذلك عصوا وكذبوا فأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر وما كان أهونهم على الله !! ثم أنشأ بعدهم أجيالا آخرين وكل جيل منهم فيه المؤمن وفيه المعاند الكافر الى أن أتى جيل القرشيين المعاندين . (٢)

كما بينت هذه الموجه مدى حلم الله الواسع عليهم فلو أنزل سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هذا القرآن مكتوبا في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ثم لمسها الكافرون بأيديهم فأسلموا بهذا الذي يرونه بل قالوا: ان هذا الا سحر مبين .

وقولهم هذا دليل على اصرارهم على الكفر و العناد ، ودليل على أن جبلتهم لا مجال معها لقبول أى حجة أو جدل أو دليل . واقترحوا اقتراحا عجيبا وهو انزال ملك على الرسول صلى الله عليه وسلم يصاحبه في تبليغ الدعوة ويصدقه .

(١) سورة الانعام آية / ٤ : ١١ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٢ ، ص ١٠٣٧ بتصرف .

واقترحهم ذاك دليل على جهلهم بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله في ارسالهم ورحمته بهم في عدم استجابته لهذا الاقتراح ، فسنة الله اقتضت أن ينزل الملائكة لتدمير المكذبين وهلاكهم : وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله ، والجانب الآخر أن لهم القدرة على اتخاذ هيئة البشر وفي هذا زيادة لبس عليهم^(١) واشكال وخلط فهم في شك من الحقيقة الواضحة - وهي كون محمد صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم لينذرهم ويبشرهم - فكيف سيصدقون الملك في أنه مرسل اليهم من عند الله سبحانه وتعالى وهم يرونه رجلا كأى واحد منهم .

يقول الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - : " وهكذا يكشف الله سبحانه جباههم بطبيعة خلائقه كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته ، وذلك بالاضافة الى كشف تعنتهم وعنادهم بلامبرر وبلا معرفة وبلا دليل " (٢)

ثم يذكر بعد ذلك ما جاء في التصور الاسلامي عن التعريف بالملائكة وبوظائفهم :

(١) فهم خلق من خلق الله يدين لله بالعبودية وبالطاعة المطلقة .

(٢) وهم يحملون عرش الرحمن ويحفون به يوم القيامة كذلك لاندرى كيف ، فليس لنا

من علم الا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب .

(٣) وهم خزنة الجنة وخزنة النار .

(٤) وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى :

- منهم من يقوم عليهم حفظة بأمر الله .

- ومنهم من يبلغون الوحي الى الرسل عليهم السلام .

- ومنهم من ينزلون على المؤمنين بالثبوت والمدد والتأييد .

(١) تفسير أبي السعود ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٠٤٢ .

- ومنهم من مشغولون بأمر المؤمنين يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين

آمنوا من ذنوبهم ويدعون ربهم لهم .

- ومنهم من يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد .

وانتهت هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسول ، ودعوة المكذبيين

الى تدبر هلاك اسلافهم ، وقصدت بيان غرضين ظاهرين :

* **الأول :** تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه مما يجده من

أذى المشركين وعناد المكذبيين بذكر أن جميع الرسل قبله قدلاقوا مالمقيسه

ولكن المستهزئين أخذوا جزاء هم الحق ، وحق بهم ماكانوا يستهزؤن به

من العذاب .

* **الثاني :** تذكير المكذبين بمصارع اسلافهم الأقوياء الأشداء والأكثر منهم قوة

وثناء ورخاء ، وبيان أن مثل هذه العاقبة تنتظرهم انهم تمادوا في سخريتهم

وتكذيبهم .

ثم بينت السورة موجة جديدة ثالثة . يقول المولى تبارك وتعالى فيها :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَرْبَبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمْ مَاسَكْنَ فِي

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَإِنْ يَمْسَكَ اللَّهُ بِضُرِّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ

وَإِنْ يَمْسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

الْخَبِيرُ . قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لَا تُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أُنَبِّئْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ
إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * (١)

فنرى أنها استهدفت إبراز حقيقة الألوهية ، وعرض حقيقة الألوهية هنا تختلف
عنه في الموجة الأولى فهو هنا مصحوب بحملة مؤثرات قوية وحقائق ثابتة تستقر
في قلوب الوادعين المدركين .

وتبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء ، ولجميع الخلائق فاستقصى المولى جل وعلا
جميع الخلائق في الآية الأولى من ناحية المكان وفي الآية الثانية استقصاهم
من ناحية الزمان .

ونلاحظ حقيقة أخرى تستوقف النظر وتسترعي الانتباه وهي ذلك التفضل والتكريم
من قبل الخالق المالك ذي السلطان بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة مكتوبة
عليه بمحض ارادته ومطلق مشيئته ، فمثل هذه الحقيقة تثير في القلب
الكثير من المشاعر وتدعه في عجب وفي دهشة كما تدعه في أنس وفسي
روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه . (٢)

ومن ثم الشعور برحمة الله تغمر المؤمن مع تقصيره وارتكابه للذنوب والأخطاء ،
يؤثر فيه تأثيراً قويا حيث يتعلم كيف يرحم وكيف يعفو وكيف يصفح
ولقد رأى قدوته في ذلك تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه هذه الأمور
مستمداً إياها من هذه الحقيقة الكبيرة . (٣)

وبعد تقرير حقيقة الخلق والملك تأتي حقيقة أخرى مؤثرة تستنكر العبودية
لغير الله والولاء لغيره وتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الاسلام لله

(١) سورة الانعام من آية / ١٢ : ١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٠٤٩ بتصرف وإيجاز .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٠٥٢ بتصرف .

فمنطق الفطرة القوى العميق يقتضي كون الولاء المحض لفاطر السموات والأرض ،
الذى أنشأهما وخلقهما ولرازق من في السموات والأرض الذى يطعم ولا يطلب
طعاما .

ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلن الاستنكار في وجه المشركين
الذين كانوا يدعونهم الى الملاينة والمداهنة ثم انه لماذا يتخذ غير الله وليا
ويعرض نفسه للشرك المنهي عنه ولما يعقب المعصية من عذاب عظيم ؟
هل يرجسو نصره الناس له في الضراء أم يرجو نفعهم له في السراء ؟ .
ان هذا كله بيد الله وله القدرة المطلقة وله القهر على عباده وعنده الحكمة
والخبرة في المنع والعطاء . (١)

وتنتهي هذه الموجة بموقف عظيم يواجهه به رسول الله صلى الله عليه وسلم
المشركين ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم وتوحيده وشركهم وبين
اسلامه وجاهليتهم في موقف الاشهاد والانذار والمفاضلة حيث يظهر حقيقة
أن الله سبحانه وتعالى هو أكبر شهادة فلا شهادة بعد شهادته ، ولا قول بعد
قوله وهو الذى أوحى بهذا القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم لننذرهم به
وينذر به كل من يبلغه ، فاذا بلغ أحدا وكذب به فقد حق عليه العذاب .
ويؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم باعلان نكرانه لشهادتهم وشركهم بالله
ويفاصلهم على ذلك ويتبرأ من شركهم بصيغة شديدة مؤكدة تهتز لها القلوب . (٢)
وتتوالى الموجات في السورة الكريمة وكل موجة تشتمل على حقائق ومشاهد
ومؤثرات وموحيات كثيرة وكل موجة تتفق مع الموجة التي قبلها وتكملها . . .

(١) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١٠٥٤ - ١٠٥٥ بتصرف وإيجاز .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٥٦ - ١٠٥٧ بتصرف وإيجاز .

يقول مؤلف الظلال : انها رحلة شاسعة الآماد عميقة الأغوار هائلــــــــــــــــة

الأبعاد . . . والتي قطعناها مع السورة رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة :

- (١) حقيقة الألوهية بروعتها وجلالها وجمالها .
 - (٢) وحقيقة الكون والحياة وما وراءهما من غيب ومن قدر ومن مشيئة لها التحكم في الاثبات والمحو ، وفي الانشاء والعدم ، وفي الاحياء والاماتة ، وفي تحريك الكون والاحياء والناس كما تشاء .
 - (٣) وحقيقة النفس الانسانية بأهوائها وشهواتها وما يوسوس لها من شياطين الانس والجن ، وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال .
 - (٤) ومشاهد القيامة ومواقف الحشر ، ولحظات الكرب والضيق ، ولحظات الأمل والاستبشار وغير ذلك من تاريخ الانسان في الأرض ومن تاريخ الكون والحياة .
- وأمثال هذه الحشود التي لايمكن أن تعبر عنها الا السورة نفسها .
- وأما سورة الاعراف فتعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشرى في صورة معركة مع الجاهلية وتعرضها في مشاهد ومواقف بها أناس أحياء يواجههم القرآن بقصة العقيدة ويخاطبهم بما فيها من عبر وانذارات ، ويخوض معهم معركة حقيقية حية فبدأت السورة بمقدمة قصيرة ثم انتقلت الى الحديث عن التمكين للجنس البشرى في الأرض وعرضت قصة النشأة الأولى واتخذتها نقطة تعقيب للانذار والتذكير المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظــــــــــــــــات ومؤثرات موحيات .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ

مِنَهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ

فِيهَا فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الْمَآغِرِينَ . قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَاتَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءًا وَمَأْمُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ * (١)

ونرى طلائع المعركة الكبرى بين هذا الشيطان وبين بني آدم جميعا كما نلاحظ

نقاط الضعف في المخلوق الانسان جملة ومنافذ الشيطان اليه منها .

ثم يأتي عقب هذا انذار لبني آدم لئلا يقعوا في فتنة هذا العدو ، وتحذير

من أن يكون مصيرهم كمصير أبو يهم . يقول المولى تبارك وتعالى : * يَا بَنِي آدَمَ

لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ

أولياء للذين لا يؤمنون * (٢)

(١) سورة الاعراف آية : ١١ : ٢٥ .

(٢) سورة الاعراف آية : ٢٧ .

هذا وقد استلهم المؤلف من قصة النشأة الانسانية حقائق تشارك في تقريـر
(مقومات التصور الاسلامي) وهي :

(١) التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الانساني التي هي قدر مرسوم لافلتنة
عارضه .

(٢) كرامة الكائن الانساني الفريد في العوالم الحية وضخامة دوره المنوط به وسعة
الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها .

(٣) كون الانسان ضعيفاً في بعض جوانب تكوينه بحيث يمكن قيادته الى الشر ، لكن
رحمة الله به اقتضت ارسال الرسل اليه للانذار والتذكير .

(٤) جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها واستمرارها وضراوتها . (١)

ونلاحظ أنه قبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري
بعد آدم وزوجته وتجربته الأولى يبادر بذكر نهاية الرحلة حيث عرضها بشطريها
في دار الابتلاء وفي دار الجزاء وقد جاء الحديث عن دار الجزاء مفصلاً حافلاً
بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع .

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد يعقب سياق السورة عليها مقرراً حقيقة
الألوهية وحقيقة الربوبية في مشاهد كونية حتى لايشذ هذا الانسان عن العبودية
لرب هذا الكون الذي له الخلق والأمر وهو رب العالمين .

فيسرد قصة خلق السموات والأرض بعد قصة خلق الانسان ويلفت الأنظار والبصائر
الى مافي هذا الكون من أسرار وظواهر طبيعية من ليل ونهار وشمس وقمر
ونجوم ورياح دائرة تحمل السحب الى بلد ميت فيحييه باذن الله ، وهذا العرض
لما في الكون هدفه أن يبين استسلام هذه المخلوقات جميعها لله وأن يرد البشر

(١) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٢٧٠ .

لربهم ويقرر أن عبوديتهم لله جل وعلا ماهي الا فرع من اسلام الوجود كله له ،
وليجعل قلوبهم تستشعر حقيقة العبودية وتتذوق طعمها الحقيقي في استسلام
وطمأنينة ويسر وبدون أى قهر أو قسر .

يقول تعالى : ﴿ إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ
الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً
يَأْتِيهِ لِيُجِبَ الْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِمْلَاجِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِن رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ . وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَالْبَلَدُ
الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُمِرُّ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿١﴾

وخلاصة ذلك - والله أعلم - : أن الله الخالق لهذا الكون المدير له المهيمن
عليه والمتمصرف فيه بقدرته هو الذى يستحق أن يكون ربا لكم يريبيكم بمنهجه
ويجمعكم بنظامه ويشرع لكم باذنه ويقضي بينكم بحكمه فهو صاحب الخلق
والأمر تبارك وتعالى جل شأنه .

وإذا كانت الشمس والقمر والنجوم - مخلوقات كأنها حية ذات روح - تتلقى
أمر الله وتنفذه وتخضع له وتسير وفق منهجه وتستجيب له .
فأولى بالبشر أن يدعوا ربهم - الذى لارب غيره - في انابة وخشوع وفي تضرع
خفي وخضوع - وهو الأنسب والأليق بجلال الله وبقربه من عباده - وأن يلتزموا

حدود عبوديتهم له لايعتدون على سلطانه ولا يفسدون في الأرض بترك شرعه
بعد أن أصلحها الله بمنهجه القويم . (١)

ويختم السياق هذا العرض في أرجاء الكون وأسرار الوجود بمثل يضربه للطيب
والخبث من القلوب ، يقول مؤلف الظلال رحمه الله : هذا المثل ينتزع
من جو المشهد المعروض مراعاة للتناسق في المرأى والمشاهدة وفي الطبائع
والحقائق .

فالقلب الطيب يشبه بالأرض الطيبة والتربة المالحة وكذلك القلب الخبيث
يشبه بالأرض الخبيثة ، والقلب والتربة كلاهما منبت زرع ومأوى ثمر ،
فالقلب ينبت نوايا ومشاعر وانفعالات واستجابات وأعمالا بعد ذلك وآثارا في
واقع الحياة والتربة تنبت زرعاً وثمرات مختلفا في أكله وألوانه ومذاقه
 وأنواعه ، وللشاكرين الذين يحسنون التلقي والاستجابة تصرف الآيات ، فهم
الذين ينتفعون بها ويصلحون لها وبها ، ونلاحظ أن الشكر يتكرر ذكره في
هذه السورة كالانذار والتذكير . (٢)

ويمضي بنا بعد ذلك سياق السورة بموكب الايمان يرفع أعلامه رسل الله
المكرمين : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين محاولين انقاذ البشرية من الهاوية التي يقودهم الشيطان
اليها هو وأعوانه من شياطين الانس المستكبرين عن اتباع الهدى والحق في
كل زمان .

(١) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٢٩٧ - ١٢٩٨ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٠٠ بتصرف يسير واختصار .

ثم يبين لنا المولى تبارك وتعالى أن البشرية المعاندة العاصية نسيت الله خالقها ونقضت الميثاق فلم تشكر الله على عطياه ولم ترع ذلك العهد الوثيق الذى قطعته على نفسها أمامه وقبل أن تظهر في الوجود .

يقول جل وعلا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَاتَّبَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا آيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا آيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

ونلاحظ في جملة هذه الآيات الكريمة أن الحديث يدور حول قضية التوحيد والشرك بعد مدار قصص السورة كله حول هذه القضية متخذا صورة التذكير من الرسل جميعا بحقيقة التوحيد والتحذير من عاقبة الشرك ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير .

فالآيات الأولى تتحدث عن قضية الفطرة والعقيدة يعرضها القرآن الكريم في صورة مشهد رائع فريد : مشهد الذرية المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر في الوجود وهي تعترف للخالق بالربوبية وتقر له بالعبودية والوحدانية وهي منثورة كالذر ومجموعة في قبضته جل وعلا ، هذا المشهد الفريد لم تعترف

له اللغة نظيرا في تصوراتها المأثورة ، وانه لمشهد عجيب رائع يرتعش له الكيان البشرى حين يتمثله .

ولكن هذه الفطرة لم ترع هذا العهد الوثيق بل تعرضت لعوامل الانحراف لذا اقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا فقد كان علمه جل وعلا سابقا لكل شيء ومحيطا بأن هذه الفطرة وهـذـه العقول لا تكفي وحدها للهدى دون رسل أو رسالات فـضـرب لنا مثلا لانحراف الفطرة عن سواء السبيل ونقضها لعهد الله المأخوذ عليها .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴾ (١)

ضرب مثلا لانسان أغدق المولى تبارك وتعالى عليه من نعمه الشيء الكثير فآتاه آياته وكساه من علمه وأعطاه من فضله . . . فاذا هو ينسلخ من هذا كله . . . بعنف وجهد ومشقة وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى فيهبط ويلتمس بالأرض ويتلوث بالطين ثم يمسخ في هيئة الكلب يلهث ان طورد ويلهث ان لسم يطارد ذلك مثلهم . . . فقد كانت آيات الهدى متلبسة بفطرتهم وكيانهم ثم اذا هم ينسلخون منها انسلاخا واذا هم ينحطون الى أسفل السافليين

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴾ .

وهل أسوأ مثل من الانسلاخ والتعري من الهدى ؟ .

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب
الفريد الا هذا القرآن الفريد . (١)

ثم يعقب سياق السورة على هذا المثل ببيان أن مشيئة الرحمن اقتضت أن يجرى
قدر الله بهداية من يجاهد للهدى ، وكذلك باضلال من لا يستعمل عقله ، أو لا يستخدم
ما أودعه الله فيه من نعمة الرؤية ونعمة السمع في ادراك الآيات المثبوتة في
الكون وفي رسالات الرسول الموحية بالهدى .

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ
كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢)

ثم تختتم السورة بتوجيهات ربانية من المولى تبارك وتعالى يقول فيها :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْمِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ
بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِمَّنْ
رَبَّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ . وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ . إِنَّا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيَسْجُدُونَ لَهُ وَاسْجُدُونَ ﴾ (٣)

(١) في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٩٧ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) سورة الأعراف من الآية : ١٩٩ - ٢٠٦ .

هذه التوجيهات موجهة الى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأخذ العفو والسماحة والبسر وألا يكلف بعضهم بعضا بأمور معقدة شاقة وأن يعرضوا عن الجاهلين فلا يجادلوهم ولا يضيعوا أوقاتهم معهم في رد فاحش ونقاش وعنـاد وذلك لتمضي الحياة سهلة ميسرة ، أما اذا مس أحدهم الشيطان وأعمى بصيرته فليتذكر الله وليتقه وليخشى غضبه ترجع له بصيرته ويذهب عنه مس الشيطان باذن الله .

وأرشدهم أيضا الى دوام ذكره جل وعلا تضرعا وخيفة ، رغبة ورهبة ولا يكونون من الغافلين المنشغلين بأمور الدنيا وشهواتها ، فهو جل وعلا يريد التذكـر المستمر المتواصل وانما ذكر الغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار (١) ، كما ذكر الليل في آيات آخر (٢) وذلك لما في هذه الأوقات من مؤثرات خاصة لا يعلم ماتفعله في الناس الا خالق الناس .

وامتدح في آخر السورة ملائكته الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وذلك ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم .

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله معقبا : وبعد فان ذكر الله كما توجهت اليه هذه النصوص ليس مجرد الذكر بالشفه واللسان ولكنه الذكر بالقلب والجنان الذكر الذى يرتعش له الوجدان ، ويخفق له القلب وتعيش به النفس ، والمصحوب بالتضرع والتذلل والخشية والخوف .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٢) كقوله تعالى : * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسيحه وأدبار السجود* سورة ق آية / ٢٩ . وكقوله تعالى : * يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * سورة المزمل : ١ : ٤ .

انما هو استحضار جلال الله وعظمته . . . ، والمخافة من غضبه وعقابه ، والرجاء فيه والالتجاء اليه حتى يصفو الجوهر الروحي في الانسان وحتى لا يأتي صغيرة ولا كبيرة الا وهو يعلم أن الله يراه ، فلا يغفل عن ذكره ولا ينشغل عن مراقبته وما أحوج الانسان الى أن يظل على اتصال دائم بربه . (١) ليتقوى على نزعات الشيطان .

ثم يلخص الاستاذ سيد قطب رحمه الله موضوعات السورة ويربط آخرها بأولها فيقول : (كانت السورة من قبل صورة للمعركة بين الانسان والشيطان فـي أوائها وظل سياقها يعرض موكب الايمان وشياطين الجن والانس تعترض طريقه كما ذكر الشيطان في نأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، وكما ذكر في آخرها نزع الشيطان والاستعاذة منه باللله السميع العليم وهو سياق متصل ينتهي بالتوجيه الى ذكر الله تضرعا وخيفة والنهي عن الغفلة

ويأتي هذا الأمر وهذا النهي في صدر توجيهه الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين .
فاذا هو تكملة لمعالم الطريق وتزويد لمصاحب الدعوة بالزاد وبالعون فـي الطريق الشاق الطويل) . (٢)

(١) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٤٢٧ بتصرف يسير .

(٢) المرجع السابق ، م ٣ ، ص ١٤٢٨ بتصرف يسير .

ثانيا : مقارنة بين سورتي يونس وهود وربطهما بالانعام والاعراف :

لاحظ المؤلف أن هذه السور الأربع يرتبط بعضها مع بعض في بعض النواحي وتختلف في الأخرى ، فقال في تعريفه بسورة يونس : " والعجيب أن هناك شبا كبيرا بين هاتين السورتين - يونس وهود - وتلكما - الانعام والاعراف - في الموضوع وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك (١) ... وأشار الى طريقة الانعام والاعراف في عرض العقيدة .

فبين أن سورة الأنعام تحدثت عن حقيقة العقيدة ذاتها وواجهت الجاهلية بها ثم فندت هذه الجاهلية وحللتها عقيدة وشعورا وعبادة وعملا . أما سورة الأعراف فتناولت حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ .

ثم قال المؤلف رحمه الله : وكذلك نحن هنا في سورتي يونس وهود نلاحظ ان الشبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا ... الا أن سورة الانعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الايقاع ، وسرعة وقوة في النبض ، وفي التصوير والحركة ... بينما تمضي سورة يونس في ايقاع رخي ونبض هادئ ، وسلاسة وديعة ١ ...

فاما هود فهي شديدة الشبه كثيرة الترادف بالاعراف ... هودا وعرضا و ايقاعا ونبضا. " ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة وملاحظها المميزة بعد كل هذا التشابه والاختلاف . (٢)

(١) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٤٥ . وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدي ص ١٦٢

(٢) المرجع السابق ، م ٣ ، ص ١٧٤٦ بتصرف يسير . وانظر (المنهج الحركي) للدكتور الخالدي ص ١٦٢ .

فسورة يونس مثلا واجهت موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي الـ
رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ، فقررت لهم
أن الوحي لا عجب فيه .

يقول تعالى : * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
مُّبِينٌ * (١)

فهذا السؤال - أبعث الله بشرا رسولا ؟ - يستنكر العجب الذي تلقى به
الناس حقيقة الوحي : فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ويتصل به
عن طريق الوحي ويكلفه هداية الناس ٠٠٠ مع أنه رجل منهم يعرفهم ويعرفونه
يطمئنون اليه ، وبأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا تحرج .

ونظرا لحاجة كل الناس الى التبليغ والبيان والتحذير فقد كانت قضية الوحي
تتلخص في انذار الناس بعاقبة المخالفة وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة من
طمأنينة وثبات واستقرار ... (٢)

كما أن سورة يونس واجهت اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية
وبينت لهم أن ما يعبدونه من دون الله لن ينفعهم ولن يضرهم شيئا ولن يكون
لهم شفعاء عند الله ، وقررت لهم صفات الاله الحق الذى يستحق العبادة
وآثار قدرته في الوجود .

يقول تعالى : * إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

(١) سورة يونس ، آية / ٢٠ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٥٩ - ١٧٦٠ باختصار وتصرف .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ
نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
يُقِيمُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ * (١)

فهذه هي القضية الأساسية الكبرى في العقيدة الربوبية . . . فهم كانوا يعتقدون وجود الله ولكنهم كانوا يشركون مع الله أربابا يعبدونها . . . اما ليقربوهم الى الله زلفى أو يكونوا لهم شفعا عنده . . . أو انهم يشرعون لأنفسهم مالم يأذن به الله .

ان قضية الربوبية سهلة واضحة لاتحتاج الى كد ذهني : ان الله جل وعلا هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن . . . وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ، وقدر اختلاف الليل والنهار ، . . . ان الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون ربا يدين له البشر بالعبودية * ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ قَاعِبُدُوهُ *

نعم ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يستطيع أحد أن يشفع عنده الا باذنه هو الذى يستحق الربوبية وحده وأن تقدم الشعائر التعبدية له ، ولا بد أن يكون هو ربهم الذى لارب غيره وحاكمهم الذى لا سلطان لأحد الا بسلطانه فان المرجع اليه والحساب عنده وهو يجزى المؤمنين والكافرين بالعدل والجزاء الذى يستحقونه . (٢)

(١) سورة يونس آية / ٦-٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦١ - ١٧٦٣ بتصرف واختصار .

ومن ثم فهناك آيات كونية تدل على قدرته الالهية واستحقاقه للربوبية في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ (١)

فهذه جميعها مشاهد بارزة من مشاهد الكون ننساها لطول ما ألفناها واعتدنا عليها فیرشدنا القرآن إليها ليثير في مشاعرنا الجدة ، وليحي في قلوبنا احساس التطوع الحي ، والتيقظ لما في خلقها وطبيعة تكوينها من التدبير المحكم .

وكما هو معلوم أن هذا هو منهج القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية . . . يخاطبها بجملتها من أقصر طريق ومن أوسع طريق ومن أعمقه . (٢) .

وقد لاحظت في تفسير الاستاذ سيد قطب لهذه الآيات أنه ذكر كلاما عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال فيه : الاستواء على العرش كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة باللغة التي يفهمها البشر ويتمثلون بها المعاني على طريقة القرآن في التصوير . (٣)

كما ذكر هذا الكلام عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٤) حيث قال : والاستواء على العرش كناية عن غاية السيطرة والاستعلاء . (٥)

فرجعت الى بعض الكتب لأتيقن من معنى الاستواء ولأعرف هل وافق رأى الاستاذ

(١) سورة يونس آية / ٦ ، ٥ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦٥ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ، م ٣ ، ص ١٧٦٢ .

(٤) سورة طه آية / ٥ .

(٥) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ٢٣٢٨ .

سيد قطب الصواب أم أنه أول الآية تأويلا لا ينبغي أن يرتضيه عالم مفكّر —
مثله ؟ .

فجاءت في لسان العرب كلمة استوى ولها عدة معان أذكر منها :

استوى بمعنى : اعتدل ، واستوى الرجل : أى بلغ أشده ، واستوى الى بلد كذا
أى قصد بالاستواء اليه ، واستوى الى السماء : صعد أمره اليها أو أقبل اليها واستوى
الرجل : أى انتهى شبابه وقوته ، واستوى: عن اعوجاج فأصبح سويا مستقيما ،
واستوى على ظهر دابته : أى استقر ، وتأتي استوى فوق الشيء أو على ظهره
بمعنى علا . (١)

وقد ذكر السيوطي رحمه الله في (الاتقان) أنه وجد صفة الاستواء على سبعة
أقوال وقد ردها الا واحدا منها سكت عنه وهو الأخير وهي :

- (١) استوى بمعنى استقر .
- (٢) استوى بمعنى استولى .
- (٣) استوى بمعنى صعد .
- (٤) استوى بمعنى ارتفع وعلا .
- (٥) واستوى كلام منقطع عما قبله .
- (٦) واستوى بمعنى أقبل وعمد وقصد .
- (٧) واستوى بمعنى اعتدل . (٢)

وقد ذكر القرطبي رحمه الله : أن السلف الصالح أثبتوا أنه جل وعلا استوى على
عرشه حقيقة ، ولكنهم جهلوا كيفية الاستواء فانه لا تعلم حقيقته كما قال مالك
رحمه الله : الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب ، والسؤال عن
هذا بدعة . (٣)

-
- (١) لسان العرب ، ج ٢
 - (٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٨ ، ٩ .
 - (٣) الجامع لاحكام القرآن - القرطبي ، ج ٣ ، ص ٢٦٥٥ .

فهم رحمهم الله كانوا يأخذون بظاهر الآية فيما يخبر به المولى عز وجل
عن نفسه أو يصف به نفسه وكذلك نحن يجب علينا أن نؤمن بما قاله جل وعلا
عن نفسه بدون تأويل أو تحريف .

ونخلص من هذا كله الى أن الأستاذ سيد قطب لم يساير السلف الصالح في
فهمهم للآية ولم يتبعهم ، وانما أول الآية تأويلا لا نرتضيه واعتمد في ذلك
على شاهد من اللغة من معاني الاستواء يشهد له .

فهو قد أخطأ في هذه الجزئية حيث أول الاستواء بالاستعلاء والسيطرة ، وكان
يجب عليه أن يقرر ما قرره السلف الصالح .

كما واجهت سورة يونس - عليه السلام - اطمئنان المشركين للحياة الدنيا
ورضاهم بها عن الآخرة وتكذيبهم بقاء الله ، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة
الخادعة وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا انما هي للابتلاء وفي الآخرة
الجزاء . . . ثم واجهتهم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة .

ثم واجهت ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية وما يترتب على تكذيبهم
بالبعث والآخرة وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والندارة ، من انطلاقهم
في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في التشريع لحياتهم
واعتمادهم بالشركاء .

ولقد احتشدت السورة لابلاغ تلك الحقائق بشتى المؤثرات الموحية التي يحفل بها
القرآن الكريم :

(١) من مشاهد هذا الكون وظواهره الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية الدالة

على التدبير الحكيم .

(٢) ومن مشاهد الأحداق والتجارب التي يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ولكنهم

يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير والتصريف .

- (٣) ومن مصارع الغابرين من المكذبين التي تعرض مرة في صورة الخبر ، ومــــورة
في صورة قصص بعض الرسل .
- (٤) ومن مشاهد القيامة وعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين عرضا حيا
مؤثرا في القلوب .
- (٥) ومن تحدى المشركين المكذبين بالوحي أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن ، وتوجيه
الرسول صلى الله عليه وسلم الى تركهم ومصيرهم فالتحدى ثم المفاصلة
والاستعلاء كلها تؤكد وثوق النبي صلى الله عليه وسلم من الحق الذي معه . (١)
- وهكذا نرى أن القضية الأساسية التي يعتمد عليها السياق في سورة يونس هي
قضية الألوهية والعبودية وتجلية حقيقتهما ، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة
في حياة الناس .
- يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله : ان حياة البشر لا تستقيم الا اذا استقامت
حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم واستقامت كذلك في
حياتهم وواقعهم .
- كذلك لا تستقيم حياة البشر بدون استقامة حقيقة العبودية في اعتقادهم
وتصورهم ، وفي حياتهم وواقعهم .
- ان انسانية الانسان وكرامته وحرية الحقيقية تتحقق بأمر :
افراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية والقوامة والحاكمية .
- (٢) جعل حق الهيمنة لله على حياة الناس في الدنيا والآخرة وفي السر والعلانية
- (٣) الاعتراف بحق التشريع له وحده في كل جانب من جوانب الحياة الانسانية .

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ، م ٣ ، ص ١٧٤٨ : ١٧٥٢ باختصار وتصرف .

أما سورة هود فالمتمأمل لها يلاحظ أن قصص الأنبياء فيها هو جسم السورة وقد جاء ليشهد وليمثل تصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها كما جاء ليستعرض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشرى .

* فالسورة استعرضت حركة العقيدة الاسلامية في التاريخ البشرى كله ، من لدن نوح عليه السلام الى عهد محمد عليه الصلاة والسلام وقررت أنها قامت على حقائق أساسية واحدة هي الدينونة لله وحده لاشريك له والعبودية لله وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ مع الاعتقاد والجزم بأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وأن الجزاء يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطها الله للانسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء .

ولأجل تعميق هذه الحقائق الاعتقادية في الكيان البشرى وتثبيتها في الضمائر والنفوس احتوت السورة على مؤثرات موحية لها تأثير أكيد فعال في النفوس ومن ذلك :

(١) الترغيب في خيرى الدنيا والآخرة للمستجيبين لرسول الله جل وعلا من ارسال السماء عليهم مدرارا الى الانعام عليهم بزيادة قوتهم الى غفران ذنوبهم الى جعلهم من أصحاب الجنة الخالدين فيها .
والترهيب أيضا من خيرى الدنيا والآخرة للمعرضين عن رسل الله وعن الحق وذلك عن طريق بيان حرمانهم من رحمة الله ودخولهم في لعنة الله .
وتوفية أعمالهم في الدنيا واحباط ما صنعوا فيها ، ومضاعفة العذاب لهم في الآخرة بنار الله الموقدة .

- (٢) ذكر القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب والترهيب ومن ذلك استعراض
موكب الايمان بقيادة الرسل على مدار الزمان وكل واحد منهم يواجهه
الجاهلية الضالة في كل عصر بكلمة الحق الموحدة الجازمة : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .
- (٣) اظهار السورة للمكذابين صور أنفسهم حالة مواجهتهم للعذاب الذي استعجلوه
حين يحيط بهم .
- (٤) بيان بعض مشاهد يوم القيامة وما يجده المكذبون من خزي ومن عذاب يوميئذ
حيث لا نصير ولا أرباب ولا شفعاء .
- (٥) ذكر السورة لمؤثر ترتجف له القلوب ألا وهو حضور الله سبحانه وتعالى
واطلاعه على ما يخفيه البشر في صدورهم وهم لا يشعرون ذلك .
- * ويمكن أن نلم بهذه الحقائق التي قامت عليها العقيدة الاسلامية حينما نقرأ
الآيات الأولى من السورة .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَكْتُبْ أَكْثَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَطَلْتُمْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .
أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

فنرى أنها تتلخص في النقاط التالية :

- (١) اثبات الوحي والرسالة .

(١) سورة هود آية : ١ : ٤ .

- (٢) العبودية لله وحده بلا شريك .
- (٣) جزاء الله في الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .
- (٤) جزاء الله في الآخرة للمكذبين وعودة الجميع الى الله عمارة طائعين .
- (٥) قدرته المطلقة وعلمه اللطيف الدقيق وسلطانه غير المحدود .
- فالنقطة الاولى تنطق بها الآية الاولى فهي تقرر أن هذا الكتاب المحكم الآيات المفصل وفق أغراض عظيمة عجز عن أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله أي أحد وثبت كونه وحيا من لدن حكيم خبير .
- والثانية : نراها فيما حمله هذا الوحي وتضمنته آيات هذا الكتاب المحكمة المفصلة من :

- (١) توحيد الربوبية والعبودية لله وحده .
- وتتمثل في ربوبيته للناس والربوبية تعني القوامة على البشر . وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله لا من عند أحد سواه .
- (٢) وأيضا الاقرار بالرسالة فهو أساس للتصديق بالقضايا التي جاءت الرسالة لتقريبها - النذارة والبشارة - كما أن هذا الاقرار هو الذي يجعل هناك ضابطا لما يريد الله من البشر كي يتلقوا كل ما يتعلق بالعقيدة من مصدر واحد هو الرسول . (١)

أما بالنسبة للنقطة الثالثة والرابعة فهي تتضمن البشرى للتائبين والوعيد للمعرضين المكذبين وهاتان هما قوام الرسالة وقوام التبليغ ، وقد كان في علم الله أن طبيعة البشر يؤثر فيها الترغيب والترهيب لذا كان

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٢ - ١٨٥٣ بتصرف وإيجاز .

من الضروري جدا لاكمال شعور المرء بأن وراء الحياة حكمة الاعتقاد باليوم الآخر وبكل ما يحدث فيه وخاصة ما يجده فيه من جزاء وعقاب ، ومن ثم ليذكر صاحب الفطرة السليمة أن هدفه ليس في الحصول على الثواب والجزاء في ذلك اليوم ، وإنما لأجل أن يحيا حياة تليق بالإنسان الذي كرمه الله جل وعلا على كثير من خلقه .

وليشعر المستغفر التائب الصالح أن طمأنينة الثلب الى العاقبة والاتصال بالله والرجاء في نصره واحسانه هو متاع حسن له حيث يرتفع بحسه درجة عن الأشياء المادية فهو اذا ضيق عليه في الرزق في الدنيا سينال^(١) فضل الله حتما في الآخرة وان أوسع عليه أيضا في الدنيا ففضل الله خير وأوسع في الآخرة ففي كلا الحالين التضيق أو التوسيع في الدنيا سينال المستغفرون التائبون فضل ربهم واحسانه الواسع لهم في الآخرة وقد يكون الفضل والاحسان في الدنيا والآخرة معا .

أما من أعرض وتولى عن هدى الله ونهجه القويم فله الوعيد الشديد بعذاب أليم^(٢) حيث الكل والجميع يرجع الى الله الذي هو على كل شيء قدير . أما قدرته جل وعلا المطلقة وعلمه اللطيف الخبير وسلطانه غير المحدود فتنتطق بها الآيات الآتية .

يقول تعالى : * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٣ - ١٨٥٤ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، وكذا الظلال ، م ٤ ، ص ١٨٥٣ .

الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ .
 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ
 أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّا لَنَكْفُرُ بِكُمْ مَّا بَعَدَ الْمَوْتَ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَلَئِن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ
 لَيَقُولَنَّ مَا يَحِيسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَمْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ . وَلَئِن أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ
 وَلَئِن أَدْخَلْنَاهُ نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ
 فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
 كَبِيرٌ * (١)

ونرى أن الآيتين الأوليين تستحضران مشهدا تخافه القلوب المتدبرة ألا وهو
 حضور المولى تبارك وتعالى واحاطة علمه بينما نرى بعض العبيد
 الضعاف يحاولون الاستخفاف منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله الكريم
 والحال ان الله سبحانه وتعالى يعلم ما هو أخفى فليست أعطيتهم بساتر
 دون علمه فهو عليم بالأسرار المصاحبة للصدور التي سميت بذات الصدور
 لشدة خفاؤها وما من حركة أو سكونة أو خفقة قلب تغيب عنه ، وما من
 دابة من انسان أو حيوان أو زاحفة أو هامة مما يدب على وجه الأرض ويسير
 في دروبها الا وعند الله علم بها وعليه رزقها ويعلم ذهابها واياها
 و مستقرها ومكمنها . (٢)

(١) سورة هود من الآية : ٥ : ١١ .

(٢) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٥ - ١٨٥٦ بتصريف وايجاز .

وهاتان الآيتان تعرفان الناس بربهم الحق لتعقد الصلة بينهم وبين خالقهم ،
ولأجل تعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط .

أما الآيات الأخرى فتستمر في اطلاع الناس على آثار قدرته وحكمته ثم
تتطرق الى ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء .

وقد أحسن الاستاذ سيد قطب رحمه الله في أثناء تفسيره لهذه الآيات
بالابتعاد عن التعرض لبعض الأمور الغيبية كالاستفسار عن حالة الماء مع
كيفية كون العرش العظيم عليه . . .

يقول رحمه الله : (أما كيف كان هذا الماء وأين كان وفي أية حالة من
حالاته كان ، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . . فزيادات لم يتعرض
لها النص وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص في هذا
الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه الا هذا النص وفي حدوده) . (١)

وعرضت السورة أيضا مواقف الأنبياء والرسل عليهم السلام وهم يواجهون
السخرية والاستهزاء والاعراض والتكذيب والايذاء من قبل المشركين المعاندين
يواجهون ذلك كله بالصبر والثبات والثقة بنصر الله للمؤمنين وبقدرته على
تدمير الكافرين ومثل ذلك ما جاء في قصة نوح عليه السلام : **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
يَادِبُوا الرَّأْيَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَانِينِينَ** . قال يا قوم أرء يتم إن

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ١٨٥٧ .

كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَزِمْتُمْوهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا
بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ
مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ
يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا
يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * (١)

وما جاء أيضا في قصة شعيب عليه السلام : * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَ تُك
تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ
رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي
أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ نُوحًا أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُطُوفٌ
مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ . قَالُوا
يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . (٢)

* كما استهدفت السورة تقرير ربوبية الله وحده في حياة البشر لأنها القضية

التي كانت تواجهها الرسائل وخاصة الرسالة الأخيرة .

(١) سورة هود الآية : ٢٧ - ٣٣ .

(٢) سورة هود الآية : ٨٧ - ٩٢ .

* ثالثا : مقارنة بين سورتي الرعد وفاطر :

ففى تعريفه بسورة الرعد يقول : " وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية حيث تكون ذات نفس واحد ، وإيقاع واحد ، وجو واحد وعطر واحد من بدايتها الى نهايتها ، ومع ذلك فهى تملأ الحس صورا ومشاهد وظلالا وتطوف بالقلب المبصر المدرك آفاقا وعوالم وأزمانا^(١)

كما يقول : " ان هذه السورة تعرض على القلب البشرى الكون كله فى شتى مجالاته الاخاذة فى السماء وما فيها من شمس وقمر وسحاب ورعد ومطر والارض وما فيها من رواس وأنهار وجنات وخضرة وثمار مختلفات الاشكال والوان مع أنها نبتت فى قطع من الارض متجاورات وتسقى بماء واحد وفى أحوال السماء من برق يخيف ويطمح ، ورعد يسبح بحمده الله وملائكة تخاف وتخضع ، وصواعق يصيب بها من يشاء . " ^(٢)

ونجده فى تعريفه بسورة فاطر يقول : " هذه السورة المكية نسق خاص فى موضوعها ، فى سياقها أقرب ما تكون الى نسق سورة الرعد ، فهى تضى فى ايقاعات تتوالى من بدئها الى نهايتها على القلب البشرى توقظه ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون وليتدبر آيات الله

(١) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٣٩ . بتصرف .

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠٤٠ . بتصرف .

المبثوثة في تضاعفه المتناثرة في صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر
 برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين في الارض ومشاهدهم يوم
 القيامة ، وليخشع وهو يواجه بدائع صنع الله في أجزاء الكون وأعمق
 النفس ، و حياة البشر وأحداث التاريخ ذلك كله في اسلوب وفي ايقاع
 لا يتماسك له قلب يحس ويدرك ويتأثر متأثر الاحياء " . (١)

فسورة الرعد موضوعها الأساسي العقيدة وقضاياها كقضية التوحيد ، وقضية
 الوحي والرسالة وقضية البعث والجزاء وغيرها ، وهذه القضايا تعرض هنا
 في هذه السورة وحولها اطار كبير هو هذا الكون بكل ما فيه من عجائب وغرائب
 من سماوات مرفوعة بغير عمد ومن شمس وقمر وليل ونهار متعاقبين ، ومن
 جبال راسيات وأنها سائرة وجنات وزرع ونخيل مختلف شكله وطعمه
 ومن رعد وبرق ، وصواعق وأمطار ، و حياة وانبات وغير ذلك من مجالات
 الكون الأخاذة .

هذا ولقد تناول مؤلف الظلال - رحمه الله - السورة فقسمها إلى
 شطرين :

(١) الظلال م ٥ ص ٢٩١٨ بايجاز وتصرف بسيط ، ولى ملاحظة بسيطة كان لاستاذي ،
 الفاضل الدكتور محمد التازي - رحمه الله - الفضل فيها : وهي أنه تأدبا
 مع الله جل جلاله ينبغى ألا يوصف بالقوة أو القدرة . . . حيث وردت جملة
 من كلام المؤلف في سورة فاطر يقول فيها : " السمة البارزة هي تجميع
 الخيوط في يد القدرة المبدعة . فالأفضل قول اليد القادرة أو يد القادر المبدع
 فأردت التنويه عن ذلك فقط .

✳ الشرط الأول: (١) ذكر فيه أنه يشير الى جملة قضايا السورة ثم استعرض عجائب

الكون التي تدل على قدرة الخالق وأنه جل وعلا سخر معظم ما في الكون للبشر ليلبئوهم فيما آتاهم وارسل اليهم الرسل عليهم السلام بوحيه ليرشدوهم وبيصرونهم الى وجوب توحيد العبادة للخالق العظيم .

ويلفتون أنظارهم الى أن المستحق للعبادة هو من بسط لهم هذه الأرض وثبتها بالجبال الرواسي ، وشق لهم الأنهار الجارية وجعل لهم من الثمار والنباتات مختلف الأشكال والطعوم والألوان . (٢)

ومع ذلك يستنكرون أن يبعثهم الله خلقا جديدا .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنْتَأَمَّرُونَ وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣) بل يتجرأون فيستعجلون العذاب متناسين أنه على كل شيء

قدير وغافلين عن الفرق الهائل بين الخير الذي يريده الله لهم والشر الذي يريدونه لأنفسهم ومن وراء ذلك عمى أبصارهم وبصائرهم ، ثم يبين سياق السورة مدى علم الله الواسع المحيط فهو يعلم الحمل المكنون في الأرحام أرحام جميع الاناث في كل بقعة من بقاع العالم ، كما أنه يعلم من يسر القول ومن يجهر به ومن هو مستخف بالليل أو ذاهب بالنهار وله جل وعلا حفظة تتعقب كل انسان فتحفظ كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو عمل .

(١) سورة الرعد آية : ١ : ١٨ .

(٢) انظر الظلال ، م ٤ ، ص ٢٠٤٣ : ٢٠٤٧ .

(٣) سورة الرعد جزء ٥ من آية ٥ وجزء ٦ من آية ٦ .

ثم يبين لنا سياق السورة بعضا من الظواهر الكونية التي لها تأثير خاص على النفس ، كالبرق و الرعد والسحاب ، والصواعق ، ويذكر الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع وكذلك الدعاء الحق والدعاء غير المستجاب ، ويعقب الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - على ذلك بقوله : (ان هذه الأمور التي لا تجتمع في نص واحد اتفاقا أو جزافا ، وانما لتلقى جوا من الرهبة والخوف والطمع والضراعة والارتجاف ولتثبت في الاذهان سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر) . (١)

* اما الشطر الثاني (٢): فذكر فيه الاستاذ سيد قطب رحمه الله أنه يتحدث عن قضية الوحي والرسالة وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال العذاب وتحقق الوعيد في الدنيا .

فأما قضية الوحي فتأتي هنا على نسق جديد حيث يبين فيها السياق أن الناس في تصديق هذه الحقيقة الكبيرة ينقسمون الى قسمين :

(١) مبصرون فهم يعلمون ويعملون الصالحات التي ترضى خالقهم - بقدرتهم البشرية - وبامكاناتهم المحدودة - من خشية له ومن صبر ابتغاء وجهه ومن انفاق على المحتاجين من خلقه ومن مقابلة الاساءة بالحسنة ومن اطمئنان قلوبهم بذكر الله وغير ذلك من الصالحات .

(٢) وعمي فهم لا يعلمون ، والعمى هنا المقصود به عمى البصيرة وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح بثباتهم على الكفر والضلال وبعنادهم واتباعهم لآبائهم الضالين .

(١) في ظلال القرآن ، م ٤ ، ص ٢٠٥٠ بتصرف .

(٢) سورة الرعد آية : ١٩ - ٤٣ .

وأما قضية الشركاء فيأتي بها السياق على هيئة سؤال تهكمي حين يقرونون
الشركاء بالله القائم على كل نفس المجازى لها على ما عملته في الحياة
الدنيا .

وتنتهي هذه القضية بذكر العذاب الذي ينتظر المفترين - هذا الاقتراء -
في الدنيا والعذاب الأكبر في الآخرة . (١)
وفي المقابل لهم يذكر النعيم والأمن والسلام الذي ينتظر المتقين .

* * *

(١) انظر الطائيل ، م ٤ ، ص ٢٠٤٦ - ٤٠٦٢ باختصار .

أما سورة فاطر فتلاحظ أنها وحدة متماسكة لانها كلها موضوع واحد فهي عبارة عن ايقاعات تستمر من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث فتجعل القلب يهتف بالايامن ثم الخشوع والادعان ، يقول مؤلف الظلال رحمه الله : ونظرا لطبيعة السورة فقد اخترنا تفسيمها الى ستة مقاطع متجانسة المعاني لتيسير تناولها والافهي شرط واحد متصل الحلقات من بدايتها الى نهايتها .

المقطع الأول :

يقول فيه المولى تبارك وتعالى : * الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * (١)

والحديث في هذه السورة كما نرى يتردد حول الرسل والوحي وما أنزل الله من الحق فيبدا بتقديم الحمد لله خالق السموات والأرض المستحق للثناء والمجد ، ثم يتحدث عن الملائكة الذين هم رسل الله بالوحي الى من يختاره من عباده . وهم صلة ما بين السماء والأرض ووصفهم الله بأنهم أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وفي هذا دلالة على قدرة المولى تبارك وتعالى ومشيبته المطلقة في تشكيل خلقه ،

(١) سورة فاطر آية : ١ : ٣ .

ثم يتحدث عن رحمة الله التي تتمثل في مظاهر لا تعد ولا تحصى ويعجز عن
الانسان عن عدّها ، وتشمل رحمته تعالى والرزق والصحة والقوة والمال والولد
والسلطان والجاه والشعور بوجود الرحمة هو الرحمة ذاتها .
يقول مؤلف الظلال : (انها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية
من آياته . آية من القرآن تفتح كوة من النور ، وتفجر ينبوعا من الرحمة
وتشق طريقا ممهودا الى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة في ومضة عين
وفي نبضة قلب وفي خفقة جنان) . (١)
ولا نجد أنه سبحانه وتعالى يذكر الناس بنعمته عليهم وأنه وحده الخالق
والرازق الذي لا اله الا هو فالله ينعم عليهم ويرزقهم ولكنهم لا يشكرون ، بل
ينصرفون عن حمده وشكره رغم انهم يرون ويحسون ويلمسون هذه النعم التي
أنعم الله بها عليهم ولكنهم ينصرفون عن شكره وحمده تعالى .

* المقطع الثاني : (٢)

يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ليسليه ويخفف عنه وطأة كذب المشركين
له ويبين له أن الأمور كلها ترجع الى الله وحده ، ثم يخاطب الناس ويخبرهم
أن وعد الله حق فلا تغرنهم الحياة الدنيا فليحاولوا جاهدين أن يبتعدوا عن
الغرور ، ويحذروهم من الشيطان فهو عدوهم اللدود الذي يلعب بهم ويخدعهم
فيؤسوس لهم ويزين لهم ما يقودهم الى جهنم وبئس المصير . فاذا لم يمتثلوا

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٢٤ .

(٢) سورة فاطر آية : ٤ : ٨

للأمر ويأخذوا حذرهم ، بل ويصروا على كفرهم فلهم عذاب شديد ذلك أن المولى
تبارك وتعالى توعد الذين كفروا بعذاب أليم ووعد الذين استجابوا وآمنوا
وعملوا الصالحات بأجر كبير .

ثم نجده يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ويبين له أن الهدى والضلال بيد
الله فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويرشده وألا يأسى عليهم وتذهب نفسه
حسرات فالله عليم بما يمنعون . (١)

المقطع الثالث : (٢)

نرى في هذا المقطع مشاهدات متوالية في الكون يظهر القرآن فيها دلائل
الإيمان ويجعل من مناظره المعروضة للبصائر والأبصار أدلة وبراهين للإيمان .
فمشهد الرياح تذهب يمينا وشمالا حيث يريدتها خالقها أن تذهب الى بلد
ميت قدر الله أن تدب فيه الحياة بواسطة هذا السحاب ، والماء كما نعلم
حياة كل شيء في هذه الأرض ، وبتأمل هذه المعجزة لا يستبعد النشور والبعث
ثم يأتينا مشهد من يطلب أسباب العزة ووسائلها عند الله وهو يستعلي على
شهوات النفس ، ويراقب الله في السراء والضراء فلا يصدر منه الا العمل
الصالح والقول الصالح اللذان يصعدان الى الله ويرتفعان اليه فيمنح صاحبهما
العزة ، أما من يمكرون السيئات قولا أو عملا فلا يملكون سبيلا الى العزة بقوتهم
أو بطغيانهم وانما نهايتهم الى البوار والى العذاب الشديد . ثم يطالعنا

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٢٥ بتصرف .

(٢) سورة فاطر آية : ٩ : ١٤ .

بعد ذلك مشهد النشأة الأولى للانسان وكونها من تراب ٠٠ ومالا يلبس تلك
النشأة من حمل في بطون الأمهات ومن عمر طويل أو عمر قصير لجميع
المخلوقات من طير أو حيوان أو انسان أو شجر أو غير ذلك .

يقول المؤلف رحمه الله : والتعمير يكون بطول الأجل وعد الاعوام ، كما يكون
بالبركة في العمر ، والتوفيق الى انفاقه ، وكذلك يكون نقص العمر بقصره
في عد السنين ، أو نزع البركة منه وانفاقه في اللهو والعبث والكسل
والفراغ ، قرب ساعة تعدل عمرا بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر ، وبما يتم
فيها من اعمال وآثار ، ورب عام يمر خاويا فارغا لاحساب له في ميزان الحياة
ولا وزن له عند الله ، وكل ذلك في كتاب ، ومثل الانسان بقية المخلوقات الحية
وكذلك الأشياء كالصخور والأنهار أو ما يصنعه الانسان من بناء معمر وغير ذلك .^(١)

ثم يأتي مشهد الماء بنوعيه فهذا عذب سائغ مذاقه ، وهذا ملح مر طعمه
وكلاهما يفترقان ويلتقيان وكلاهما مسخر للانسان فالماء العذب قوام الحياة
لكل حي والماء المالح المر الموجود في البحار والمحيطات أيضا تستمد منه
الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتان وأخيرا الانسان نفسه ، ومن كل
نأكل لحما طريبا ، ونستخرج منه الحلية من لؤلؤ ومرجان ، ونستخدمه
لسير السفن عليه للسفر والتجارة .

(١) في ظلال القرآن ، م ٥ ، ص ٢٩٣٣ بتصرف .

* المقطع الرابع : (١)

يخاطب الله الناس لينظروا في علاقتهم بالله وفي حقيقة أنفسهم فهو الغني الحميد يستطيع أن يذهبهم ويأتي بخلق جديد .

ويرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم بالتسليية عما يلقي والتسرية عما يجد مبيننا لهم ولمن اتبعه طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال والاختلاف بيــــن طبيعتيهما أصيل وعميق ، كالاختلاف الأصيل بين العمى والابصار ، والظلمات والنور والموت والحياة ، وكذلك هنا فالفرق واضح بين الايمان والكفــــر ، فذاك بصر والآخر عمى ، والايمان نور وظل وحياة وان الكفر ظلمة وحرور وموت ، ونجد أن هناك تنبيها وتحذيرا للمكذبين الذين يكذبون الرسول في الحق الذى أتى به والنور الذى دعاهم اليه ، فبإمكان العلي القدير أن يغنيهم ويهلكهم عن آخرهم كما فعل بأبائهم العصاة المكذبين . (٢)

* المقطع الخامس : (٣)

نجد في هذا المقطع قراءات في كتاب الكون وصفه الرائعة المتعددة الألوان والأنواع والأجناس ، فالشمار مختلفة الألوان والجبال متلوونة الشعاب ، وكذلك الناس والدواب والانعام كل تلك المحف الرائعة في كتاب الكون المفتوح . (٤)

(١) سورة فاطر ، الآية ١٥ - ٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٣٦ بتصرف .

(٣) سورة فاطر من آية : ٢٧ : ٣٨ .

(٤) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٤١ بتصرف .

كما نجد في هذا المقطع بياناً لكون القرآن الكريم هو الحق المصدق لما بين يديه وأنه خير إرث يتركه المصطفى صلى الله عليه وسلم لمن اتبعه من المسلمين وخاصة المالحين منهم السابقين بالخيرات ، فهؤلاء وعدهم العلي القدير جنات عدن يدخلونها ويتنعمون فيها حيث يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، ويتوجهون للكريم الذي أنقذهم من النار وأحلهم دار المقامة برحمته بالحمد والشكر .

وبالمقابل نرى أن العصاة الكافرين توعدهم القادر الجبار بنار جهنم يدخلون فيها ويصطرخون ويندمون ولكن بعد فوات الأوان ، بل لا يلتفت إليهم ويؤنبون على كفرهم ويزاد في عذابهم أن يقال لهم : ﴿ فَذُوقُوا مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ .

فالمولى تبارك وتعالى عالم غيب السموات والأرض وما فيهما كما أنه عليهم بذات الصدور وعليهم بمن يستحق النعيم وبمن يستحق العذاب .

* المقطع السادس : (١)

ويشتمل على عدة جولات واسعة المدى :

* جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة .

* جولة في السموات والأرض للبحث عن أى أثر للشركاء الذين يدعونهم من

دون الله .

(١) سورة فاطر من الآية : ٣٩ - ٤٥ .

* جولة في السماوات والأرض لرؤية يد الله القوية الممسكة بالسماوات والأرض
أن تزولا .

* جولة مع المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها وقد سبق لهم أن عاهدوا الله
من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا العهد
وخالفوه ولما جاءهم النذير ازدادوا نفورا واعراضا .

* جولة في مصارع المكذبين السابقين وهم يشهدون آثارهم الدائرة ولا يخشون
أن تمضي فيهم سنة الله الجارية بدوران الدائرة عليهم .

والختام الموحى الرهيب : * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ
عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَاتِ بَئِئَةٍ *

ففضل الله العظيم في امهال الناس وتأجيل هذا الأخذ المدمر المهلك (١)
نسأل الله السلامة في الدين والدنيا والآخرة .

* * *

(١) في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٤٦ بتصرف يسير .

رابعاً: مقارنته بين سورة التكوير والانفطار وبينهما وبين الانشقاق :

وفي تلك المقارنة بين المؤلف أنه يجمع بين السور الثلاث الحديـث عن الانقلاب الهائل الذي سيحدث في الكون يوم القيامة ، ويشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار والارض والسماء والانعام والوحوش ، ويبين في نفس الوقت أن لكل سورة شخصية خاصة بها ، واتجاهها آخر مختلف عن أختها .

ففي سورة التكوير ذكر تعريفا لها يقول فيه : " هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج السورة فيهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة .

الاولى : حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل .

الثانية : حقيقة الوحي وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحملـه

وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه .

ومن ثم فالسورة يايقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن

اليه وتركن لتلوذ بكنف الله ، وتأوى الى حماه ، وتطلب

عنده الامن والطمأنينة والقرار . " (١)

وفي سورة الانفطار ذكر في تقديمه لها : " أنها تتحدث وهي السورة

القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تتحدث عنه سورة التكوير ولكنها

تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمنا خاصا بها ففيها ايقاعات من لـون

(١) في ظلال القرآن م ٦ ص ٢٨٢٦ .

جديد هادئ ، ولمسات كأنها عتاب وان كان
في طياته وعييد .

فهى تتحدث عن انططار السماء وانتشار
الكواكب وتفجير البحار وبعثرة
القيور ، ثم تتحدث وتعاتب الانسان
بعتاب مبطن بالوعيد لعدم معرفته
حق نعمه ربه عليه . ثم تقرر عليه
هذا الجحود والانكار وتصور ضخامة
يوم الحساب وهولاه ، وتجرد النفوس من كل
حول فيه وتفرد الأمر لله جل جلاله .
(١)

ثم بدأ المؤلف في تفسير سورة التكويد فقال مامعناه :
ان مشهد الانقلاب سيكون عاما تاما لكل معهود حيث يشمل
الاجرام السماوية والارضية والوحوش النافرة والانععام
الليفية ونفوس البشر ، فنجيد ان كل مستور
ينكشف وكل مجهول سوف يعلم ، ونجد ان النفوس
تقف في موقف الفصل والحساب .

(١) في ظل القرآن ، م ٦ ص ٣٨٤٥ بتصرف يسير .

وكل هذه الاحداث الكونية تشير الى ان هذا الكون المنسق الجميل الموزون الحركة المتين الصنعة ستفرط عقده وتتناشـ اجزائه وينتهى الى اجله المقدر ، فمن خلال هذا الشعور العام نجد ان النفس تطالع مشاهدا هذا الانقلاب العجيب ، فمقدمات البعث تكون بخراب الدنيا واختلال نظامها وهلاك كل من فيها ، فتكوير الشمس يعنى برودتها ولا يكون لها ضوء ولا حرارة والنجوم تتناشر وتتساقط وترجع الارض وتضطرب فتزول الجبال من اماكنها ، ونجد ان العشار عطلت اى اهملت وهى التى لاتهمل ، فنجدها لايهتم بشأنها احد . ونجد ان الوحوش حشرت اى جمعت من كل مكان وزمان واصبحت في صعيد واحد من شدة الهول العصيب .

وأما تسجير البحار اى ملئت بالماء واختلطت فضاعت الحواجز فيما بينها واصبحت بحرا واحدا والنفوس زوجت اى جمعت الأرواح بأجسادها بعد اعادة انشائها ، ونجد ان الموودة سئلت بأى ذنب قتلت .

وهى التى دفنت وهى حية خوفا من الفقر
أو العار وهو سؤال للتوبيخ والتسجيل عليهم
وإذا الصحف نشرت، وهى التى كتبت فيها
الأعمال وسجلت كل ما أقرفته الانسان
شرت ليقرأ كل انسان كتابه ويعرف
عمله وحسابه .

وإذا السماء كسبت : وأزيلت فلم يعد لها
وجود .

(وإذا الجحيم سعرت) وأحلت نارها وأوقدت
وإذا الجنة أزلفت وقربت وقدمت
للمتقين .

(علمت نفس ما أحضرت) شيئاً أى كل نفس تعلم
في هذا اليوم الهائل مالها وما عليها وهى لا تمالك
أن تغير شيئاً مما أحضرت ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه ، نجد
أن هذا المقطع الأول ينتهى وقد امتلأ الحسن وفاض بمشاهد
اليوم الذى تم فيه هذا الانقلاب الهائل .

ثم يجيء المقطع الثاني ويبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونيّة جميلة لها تعابير دقيقة .

(فلا أقسم بالجنس . الجوا الكنس) فلا أقسم بالكواكب المختلفة عن العين نهارة ، الجوارى التي تظهر في أفلاكها ليلا كالظباء في كناسها فهي تجرى وتختبيء في كناسها ثم ترجع من ناحية أخرى .

(والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس)

الليل اذا أدبر ظلامه والصبح اذا أضاء وظهر .

أقسم على أن هذا القرآن قول رسول كريم (ذى قوة عند ذى العرش مكين) .

(ذو مرة فاستوى) فهو شديد القوى ذو حصانة في العقل والرأى ،

عند ذى العرش أمين على الوحي ، وعلى نقله (وما صاحبكم بمجنون) كما يصفه المشركون بل هو صادق صلى الله عليه وسلم في خبره وهم يعرفون راحة عقله وصدقته وأمانته فقالوا عنه انه مجنون بل صاحبكم أمين مؤتمن على الغيب .

وما هو على الغيب بمتهم ، اذ ليس هذا القرآن قول شيطان وليس أساطير الاولين فأين تذهبون ، وأى طريق تسلكون وأية حجة تقولون ، بعد أن سدت عليكم كل الطرق .

ما هذا القرآن الا ذكر وتذكرة وموعظة وعبرة للعالمين .

(لمن شاء منكم أن يستقيم) على سواء السبيل أى من شاء منكم دخول الاسلام فهو الذى ينتفع بهذا الذكر الحكيم ، أما غيرهم فقد ختم الله على قلوبهم وسمعهم ” وأبصارهم غشاوة فلا يمكن أن يروا نور الحق ولا أن يبهتدوا بنور القرآن .

(وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين)

فالمشيئة من الله سبحانه وتعالى تكون عن طريق اعطاء الحريّة في الاختيار فهو سبحانه يعطيكم ارادة الخير فتكون بمشيئته لديكم صفة الخير ولو شاء لسلبكم تلك الارادة فمشيئة الصبر تكون في ظل مشيئته سبحانه وتعالى. (١)

(١) في ظلال القرآن ، م ٦ ، ص ٢٨٢٦ : ٢٨٤٤ بتصرف .

وفي سورة الانشقاق ذكر في تعريفه لها قوله (تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكويد ثم في سورة الانفطار ، ومن قبل في سورة النبأ ، ولكنها هنا ذات طابع خاص: انها هادئة الايقاع ، جلية الايحاء . . . سورة فيها طابع استسلام السماء والارض لله في طواعية وخشوع ، سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة في راحة ويسر ، وفي ايحاء هادئ عميق . . . والخطاب فيها ب " يا أيها الانسان " فيه تذكير واستجاشة للضمير ، أما المقطع الاخير ففيه تعجب من حال الناس الذين لا يؤمنون ثم بيان لعلم الله بما يخفونه في ضمائرهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم . (١)

(اذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت واذا الارض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت) .

عند قيام الساعة يرى أن السماء تتشقق وتكون قد استجابت لخالقها وانقادت له وامتثلت لأمره ، وكيف لا يكون ذلك وهي في قبضته وتحت سلطانه ونجد الارض مدت فامتسعت سهولتها واندكت جبالها وزادت الباليئة ولم يبق في باطنها شيء واستجابت لأمر ربها وامتثلت له هي الاخرى ، كالسما .

(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا) .
يا أيها الانسان المجد في عمله النشط في تحصيل معاشه وكسبه انك تكدح في طلب الدنيا تشق طريقك وتجهد نفسك حتى تصل في النهاية الى ربك فاليه المرجع واليه المآب بعد الجهاد . فاعمل في دنياك على أساس انك ستلاقي ربك بعملك ، فاذا كنت من الصالحين المقربين فسوف حسابا يسيرا سهلا وترجع الى اخوانك المؤمنين فرحا مسرورا ، وتلقى الجزاء نتيجة الصبر من جنة ونعيم مقيم .

وأما من أوتى كتابه من وراء ظهره فسوف يدعوا ثيورا ، ويصلى سعييرا - انه كان في أهله مسرورا ، انه ظن أن لن يجور ، بل ان ربه كان به بصيرا)

(١) في ظلال القرآن ، م ٦ ص ٢٨٦٤ - ٢٨٦٥ بتصرف وايجاز .

ويقصد بهم الكفار الفجار يحاسبون حسابا عسيراً يدعزن ثبورا ،
وهلا كما وموتا ويصلون سعيراً ، ويقاسون حر جهنم القاسي الشديد
فقدكان في أهله مسرورا من حب الشهوات وترف واستمتاع باللذة
فرحا مسرورا فقد ظن أن لن يرجع الى ربه للحساب ، ولم يحاسب
هلى ما اقترفت يداه .

(ان ربه كان به بصيرا) فقد كان على علم بما يفعله المخلوق
علما كاملا فهو لا يتركه سدى ، بل يحاسب المحسن على احسانه والمسيء
على اساءته ، فهو على علم كامل بما يفعله الخلق .

(فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركيبن
طبقا عن طبق فما لهم لا يؤمنون واذا قرى عليهم القرآن لا يسجدون) .

فالشفق هو الوقت المرهوب بعد الغروب وهو احمرار الشمس
عند غروبها فالانسان يحس بوداع اليوم ، وقرب ظهور الليل ووحشته
من ظلام ، وما وسق من خشوع وسكون تتسق مع الشفق والقمر اذا اتسق
تكامله واستدارته بينير الكون كليلة البدر .

(لتركيبن طبقا عن طبق) حالا بعد حال من معاناة سوق تعانونها من
أمور بعد أمور حتى يستقر بكم الأمر الى الواحد الاحد ليجازى كلا
عن عمله .

(فما لهم لا يؤمنون) ان هذا الكون جميل وموحيات الايمان في لمحات
الوجود فهذه اللمحات واللمسات آلا تحسون بها ؟ ، فحقيقة هذا الكون
كلها تشير الى أن خالقها عظيم ، فبعد كل هذا لا يؤمنون .

(واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون) حقا فمع كل هذه الشواهد
الناطقة فهم لا يؤمنون ولا يسجدون اذا قرىء عليهم القرآن ، فالواجب
سجودهم لله حمدا وشكرا على هذه النعمة التي هم فيها .

(بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب
أليم . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) .

(١) ومعنى وسق : أى جمع وضم ، واتساق القمر : امتلاؤه واجتماعه واستواؤه

ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة . لسان العرب لابن منظور ج ٣ ، ص ٩٢٧ .

فلا زال الكفار يكذبون بآيات الله التي أنعم الله عليهم بها
فهو طابعهم الاصيل والله أعلم بما يحفظون في قلوبهم من كفر
وحسد وبقضاء (فبشرهم بعذاب أليم) فيارسول الله بشرهم بالعذاب
الاليم الذي سيلاقونه يوم الدين .
(الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أما
الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات فلهم أجر دائم من الله سبحانه
وتعالى وهو غير مقطوع فهذا الثواب أو الأجر يكون في الدار الآخرة
دار البقاء والخلود . يغدق عليهم من العلى التقدير العدل الحكيم .
الذى لا يظلم أحدا . مثقال ذرة . (١)

* * *

(١) في ظلال القرآن ، م ٦ ، ص ٣٨٧٠ .

✳ **خامسا : مقارنته بين كل من سورة الضحى والانشراح والكوثر :**

المتأمل لهذه السور الثلاث يجد انها تتحدث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم - وان كان كثير من السور والآيات لم تخل من ذكره عليه الصلاة والسلام - مبينة ما حباه الله به من الفضل والنعيم الجليلة في الدنيا والآخرة وتوجيهه لطريق الشكر والحمد على هذه النعم .

يقول سيد - رحمه الله - فى تعريفه بسورة الضحى : " هذه السورة بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها وظلالها وايقاعها لمسة من حنان ونسمة من رحمة وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع وتنسم بالروح والامل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين انها كلها خالصة - للنبي صلى الله عليه وسلم - كلها نجوى لطيفة وحديث لطيف له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين ، كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وأطاف من القربى وراحة للروح المتعب والخاطر المقلق والقلب الموجوع " . (١)

(١) الظلال المجلد السادس ص ٣٩٢٥ بتصرف يسير .

فقد كان الوحي بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم زاده الذى يعتمد عليه في مشقة الطريق ولما فتر عنه وانقطع ، استوحش النبي صلى الله عليه وسلم من انقطاع اتصاله بالمولى تبارك وتعالى ومن كثرة شماتة المشركين به .

فنزلت هذه السورة تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه أبدا بدون وحي وفد بدأها المولى عز وجل بالقسم * بالضحى والليل اذا سجى * بأنه ماتركه وما ودعه وما جفاه ، وما قطع عنه بره أبدا ، وكيف يقطع عنه ذلك البر وقد رعاه من قبل برحمته وعنايته ، أفيتركه بعد أن أرسل ؟ بل انه جل وعلا سيدخله في الآخرة من الحسن خيرا مما يعطيه في الدنيا من التوفيق في الدعوة ومن ازاحة العقبات من طريقه ، ومن تثبته في مواجهة العناد ، والآذى والتكذيب والكيد والشماتة . ثم وجه المولى عز وجل النظر في واقع حاله وما مضى حياته هل تركه بدون رعاية ، هل تركه فقيرا بدون عطاء أو مساعدة ، كلا لم يتركه أبدا ، فقد كان يتيما فأواه اليه وكان فقيرا فأغنى الله نفسه بالقناعة وأغناه بكسب يده ، ومال زوجه خديجة رضي الله عنها .

ثم وجه الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين تبعاله الى رعاية كل يتيم وكفاية كل سائل والتحدث بنعمة الله الكبرى عليه . (١)

ويقول رحمه الله في مقدمة سورة الشرح، نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى وكأنها تكملة لها، فيها ظل العطف الندى، وفيها روح المناجاة الحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرح، وفيها التوجيه الى سرايسر وحيل الاتصال الوثيق " (١).

فالسورة توحى بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة وأنه كان يحس العبء الفادح على عاتقه فقد كان في حاجة الى عون وزاد ورصيد، فنزلت هذه السورة وكانت هذه المناجاة، وكان هذا الحديث الذى تطمئن به القلوب وتنشرح له الصدور .

انظر في صدرك ألا ترى فيه الروح والانشراح والنور، وتأمل في حسك مذاق هذا العطاء ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب واليسر مع كل عسر والرضى مع كل حرمان ان العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه وقد لازمه معك فعلاً . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك فخفف حملك الذى أنقض ظهرك وكان اليسر مصاحباً للعسر يرفع اصره ز ويضع ثقله ثم اذا فرغت من شغلك مع الناس والأرض فتوجه بقلبك كله الى ربك وحده انه لا يد من الزاد للطريق وهنا الزاد، ولا يد من العدة للجهاد وهنا العدة .

وتنتهى السورة كنهاية سورة الضحى وقد تركت الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول صلى الله عليه وسلم من زيه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه صلى الله عليه وسلم . (٢)

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن، م ٦، ص ٣٩٢٩ : ٣٩٣١ بتصرف وإيجاز .

كما يربط المؤلف بين هاتين السورتين وسورة الكوثر في كونها
خالصة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يسرى عنه ربه فيها ويعسده
بالخير ويوعد أعداءه بالبترز ويوجهه الى طريق الشكر .
(١)

فالسورة هنا تمثل صورة من حياة الدعوة والداعية ،صورة من
الكيد والاذى للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوة الله التي يبشر بها ،
وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقللة المؤمنة التي معه ومن
تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه صلى الله عليه وسلم
وكذلك نجد أن السورة تمثل حقيقة الهدى والخير والايمان وحقيقة
الضلال والشر والكفران ،فالسورة هنا نزلت لتمسح على قلبه صلى
الله عليه وسلم بالروح والندى وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد
الذي اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبتز المقدر لأعدائه .

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٩٨٧ .

المبحث الخامس

الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي

✳ **المبحث الخامس : الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي :**

أرى من وجهة نظري أنه لا بد من أن أتعرض وأوضح أولاً تعريف كـل
من الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي قبل بيان الفرق بينهما :

(١) **تعريف الوحدة الموضوعية :**

هي البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سورته
المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي
نبحثه لنحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية الكبرى في القرآن الكريم
كله، (١) أما بالنسبة للوحدة الموضوعية في السورة فهي - البحث عن الهدف
أو المقصد الواحد - أو الاهداف والمقاصد للسور الطوال - الذي عرضت
له كل سورة من سور القرآن ومدى ارتباطه بأجزاء السورة وموضوعتها
الآخري - من جدل الى قصص الى تشريع الى وصف - فايجاد الوشائج التي تربط
بين موضوعات السورة وما تثيره السورة من أحكام ومبادئ، وما تذكره من
قصص ومشاهد والخروج من ذلك كله الى هدف واحد يجمع بينها هـو
الوحدة الموضوعية للسورة ، أما ربط السورة بهدفها مع السور التي قبلها
بأهدافها والسور التي بعدها أيضا بأهدافها ، فهو ما نطلق عليه
" الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم " حيث تتربط هذه الاهداف

(١) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي ص ٣٣ - ٣٤

بعضها ببعض ويمدق بعضها بعضا ، ونصل في النهاية الى وجوب عبادة

الله وحده لا شريك له ، وامثال أمره واجتناب نهيه .

✱ ومثال الوحدة الموضوعية :

(١) سورة البقرة ، وقد أفاض في الكلام عليها الدكتور محمد دراز في كتابه

"النبأ العظيم" حيث ذكر أنها على طولها تتألف وحدتها من مقدمة

وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب :

✱ المقدمة : في التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن مافيه من الهداية

قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، وانما يعرض عنه

من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

✱ المقصد الاول : في دعوته الناس كافة الى اعتناق الاسلام .

✱ المقصد الثاني : في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم

والدخول في هذا الدين الحق .

✱ المقصد الثالث : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا .

✱ المقصد الرابع : ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة

تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

✱ الخاتمة : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد

وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم . (١)

(٢) سورة الاعراف أيضا : وهي سابع سورة في ترتيب المصحف وان كانت أطول سورة في المكي ، وأول سورة عرضت للتفصيل في قصص الانبياء مع أممهم الا أنه يمكن تلخيص وحدتها في مقدمة وثلاثة مقاصد وخاتمة .

فالمقدمة كانت بالانذار بوجوب الايمان والبعد عن الكفر والعصيان

* **المقصد الاول : توحيد الله في العبادة والتشريع .**

* **المقصد الثاني: تقرير البعث والجزاء .**

* **المقصد الثالث : تقرير الوحي والرسالة بوجه عام ، ورسالة محمد صلى الله**

عليه وسلم بوجه خاص . (١)

(٢) **تعريف التفسير الموضوعي :**

اختلف تعبير المفسرين المحدثين في تعريف التفسير الموضوعي اختلافًا

بسيطا على أقوال منها :

(١) جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد والموضوع الواحد وترتيبها حسب النزول

كلما أمكن ثم تناولها بالشرح والبيان والتعليق ، وأفرادها بالدرس

المنهجي الموضوعي الذي يجليها من جميع جوانبها وجہاتها ووزنها

بميزان العلم الصحيح . (٢)

(١) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص ٤٤٨

(٢) البداية في التفسير الموضوعي للدكتور عبد الحى الفرماوى ص ٥٢ بتصريف .

- (٢) بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وان اختلفت عباراتها وتعددت اماكنها مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع وبذلك يستوعب المفسر جميع نواحيه وله أن يستعين ببعض الاحاديث المناسبة للبيان والايضاح . (١)
- (٣) جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية . (٢)
- وبالتأمل فيما سبق نرى أن الجميع اتفق على أن التفسير الموضوعي يعنى جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية وسأختار بمعونة الله موضوع الاخلاص كمثال للتفسير الموضوعي وأتحدث أولاً عن معنى الاخلاص في اللغة .
- جاء في المفردات : خلص : الخالص كالماضي الا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والماضي قد يقال لمالا شوب فيه . (٣)
- وجاء في أساس البلاغة : خلص الشيء خلوصاً فهو خالص ، وخلصته : صفيته ، ومن المجاز أخلص له المودة وأخلص لله دينه ، وخلص من الورطة خلاصاً سلم منها سلامة الشيء الذي يصفو من كدره . (٤)

(١) التفسير الموضوعي : د / احمد الكومي ، د / محمد القاسم ص ١٦ بتصرف يسير .
 (٢) دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الالمعي ص ٩
 (٣) المفردات في غريب القرآن للاصفهاني ص ١٥٤
 (٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ١١٨

وورد في لسان العرب : خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصا وخلاصا
اذا كان قد نشب ثم نجا وسلم ، وأخلصه وخلصه وأخلص لله دينه
أمحضه ، وأخلص الشيء اختاره ، ويقال : هذا الشيء خالص لك أي خالص
لك خاصة . (١)

ومن ذلك كله نستنتج ان الاخلاص يأتي بمعان مختلفة وقد وردت في
القرآن الكريم على النحو التالي :

- (١) الاخلاص بمعنى الخلوص من الشوائب والتصفية والتطهير ومثال ذلك :
- أ - قوله تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ
مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) . (٢)
- قال ابن عباس : أن الدابة تأكل العلف فاذا استقر في كرشها طنمته فكان
أسفله فرثا وأوسطه لبنا واعلاه دما ، والكبد مسلط على هذه الاصناف
فتقسم الدم وتميزه وتجريه في العروق ، وتجري اللبن في الضرع ، ويبقى
الفرث كما هو في الكرش (٤) ، (ولبنا خالصا) أي صافيا من حمرة الدم
وقذارة الفرث ، وخالصا من كل شيء يكدر صفوه سائغا للشاربين
لذيذا هنيئا لا يغص به شاربه . (٥)

(١) لسان العرب ج ١ ص ٨٧٧ - ٨٧٨
(٢) الفرث : السرجين مادام في الكرش ، وافرثت الكرش اذا شققها ونثرت مافيها :
لسان العرب ج ٢ ص ١٠٦٥
(٣) سورة النحل آية / ٦٦
(٤) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٧٤١
(٥) التفسير الواضح للدكتور محمد حجازي ج ١٤ ص ٥١ المجلد الثاني .

ب- وقوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) . (١)

أى من عبادنا المجتبيين المطهرين المختارين . (٢)

وذكر القرطبي - رحمه الله - أن " المخلصين " قرئت بكسر اللام وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله ، وقرئت بفتح اللام " المخلصين " وتأويلها الذين أخلصهم الله لرسالته ، وقد كان يوسف بهاتين الصفتين لانه كان مخلصا في طاعة الله تعالى مستخلصا لرسالة الله تعالى (٣) أى من الذين أخلصهم الله من السوء والفواحش (٤) بمعنى طهرهم وحماهم منها .

(٢) الاخلاص بمعنى الاصطفاء والاختيار :

ومثاله قوله تعالى : (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) . (٥)

أى اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين فأفردناهم بمفردة من خصال الخير (٦)

(١) سورة يوسف آية / ٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٥

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٣٩٩

(٤) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج ٤ ص ٢١٠

(٥) سورة ص آية / ٤٦ ، ٤٧

(٦) زاد المسير في علم التفسير ج ٧ ص ١٤٦ .

هي - والله اعلم - ذكر الدار الآخرة والتأهب لها والزهد في الدنيا .

(٣) الاخلاص بمعنى الاختصاص ، أو الخصوصية : ومثاله :

أ - قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ

فَتَمَتُّوا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١) مخالصة بمعنى خاصة

بكم دون غيركم وليس لاحد سواكم فيها حق^(٢) ، فاليهود كانوا يعتقدون

ان الجنة لهم ولا يدخلها الا اليهود فأمر الله النبي صلى الله عليه

وسلم أن يقول لهم ان كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة خاصة بكم

من دون الناس فاطلبوا الموت وتمنوه يكون حبيبا الى نفوسكم .^(٣)

ب - وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ

أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ

وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّةً مِّنْهُنَّ إِنْ وَهَبْتَ

نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤)

أي خاصة بك دون غيرك ، قال قتادة في قوله " خالصة لك " ليس لامرأة

تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر الا للنبي صلى الله عليه وسلم .^(٥)

(١) سورة البقرة آية / ٩٤

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٧

(٣) التفسير الواضح للحجازي ج ١ ص ٥٥

(٤) سورة الاحزاب آية / ٥٠

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٥٠٠

(٤) الاخلاص بمعنى التوحيد وهو الغالب في آيات الاخلاص في القرآن وأمثله كثيرة منها :

أ - قوله تعالى : (قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِِمُونَ) . (١)

أى ونحن له موحدون مخلصون له بالايمان ، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل اخلاصه لكرامته بالنبوة ، وكانوا يقولون نحن أحق بأن تكون النبوة فينا لانا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان . (٢)

ب - وقوله تعالى : (قُلْ أَمْرٌ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (٣) أى ادعوه وحده ولا تدعوا لها غيره ، وأمرهم ان يخلصوا له الدين والدعوة والعمل ثم يوجهوا وجوههم الى البيت الحرام (٤) ، وجاء معنى " وادعوه " أى واعبدوه مخلصين له الدين أى الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا . (٥)

ج - وقوله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً) . (٦)

أى يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره ، وقال ابن جرير : في قوله :

(مخلصين) أى مفردين له الطاعة لا يخلطوا طاعتهم لربهم بشرك . (٨)

(١) سورة البقرة آية / ١٣٩

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٠٦

(٣) سورة الاعراف آية / ٢٩

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج ٣ ص ٧٧

(٥) تفسير النسفي ج ٢ ص ٥٠

(٦) سورة البينة آية / ٥

(٧) تفسير الفخر الرازي المجلد السادس عشر ج ٣٢ ص ٤٦ .

(٨) جامع البيان لابن جرير الطبري ج ٣٠ ص ١٧٠ المجلد الثاني عشر .

✳ الاخلاص في الاصطلاح الشرعي :

أن يتوجه الانسان بأفعاله وأقواله الى الله وحده دون سواه ابتغاء لمرضاته .
يقول الجرجاني (رحمه الله) الاخلاص في الاصطلاح : تخليص القلب عن
شائبة الشوب المكدر لصفائه ، وتحقيقه أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره
فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يسمى خالصا ويسمى الفعل المخلص اخلاصا
قال تعالى : (من بين فرث ودم لبنا خالصا) ، فانما خلوس اللبن أن لا يكون
فيه شوب من الفرث والدم .

وقال الفضيل بن عياض : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجلهم
شرك ، والاخلاص الخلاص من هذين .

الاخلاص أن لا تطلب لعملك شاهدا غير الله ، وقيل الاخلاص : تصفية الأعمال
من الكدورات ، وقيل الاخلاص : ستر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه
ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله .

والفرق بين الاخلاص والصدق أن الصدق أصل وهو الأول والاخلاص فرع وهو تابع ، وفرق
آخر الاخلاص لا يكون الا بعد الدخول في العمل . (١)

ويقول ابن القيم - رحمه الله - الاخلاص : تصفية العمل من كل شوب فلا يمازج عمله
ما يشوبه من شوائب ارادات النفس من طلب التزين في قلوب الخلق أو طلب
مدحهم ، والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ومحبتهم
وقضائهم حوائجه أو غير ذلك . (٢)

✳ دعوة الاسلام الى الاخلاص :

ولقد دعا القرآن الكريم والحديث الشريف الى الاخلاص ورغبا فيـــــــــــــــــه

(١) التعريفات للشريف الجرجاني ص ٨ ، ٩

(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٩٢ بتصريف .

فقال تعالى : ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ (١)

أى مفردين له الطاعة لا يخلطوا طاعتهم لربهم بشرك . (٢)

وقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) . (٣) أى فمن كان يؤمل حسن لقاء ربه وان يلقاه

لقاء رضا وقبول ، فلا يرائى بعمله ولا يبتغى به الا وجه ربه خالما

لا يخلط به غيره . (٤)

وقال تعالى : (إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَكُمْ أَجْرًا وَأَنْ لَا تُشْكُرُوا) (٥)

قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا . (٦)

وقال سيد قطب : أن الابرار كانوا يطعمون الطعام باريحية نفس ورحمة

قلب وخلص نية واتجاه الى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم

ومن منطوق قلوبهم ، فلا يبتغون جزاء من الخلق ولا شكورا ، ولا يقصدون استعلاء

على المحتاجين ولا خيلاء . (٧)

والاحاديث الشريفة كذلك تضع في اعتبارنا أن العمل يكون صالحا ويكـون

مقبولا اذا جعلنا النية فيه مخلصة ومتجهة فقط للمولى عز وجل

والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم - " انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل

امرى ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله

(١) سورة البينة آية / ٥

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبرى ج ٣٠ ص ١٧٠

(٣) سورة الكهف آية / ١١١

(٤) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠١ ، وفتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٣١٨

(٥) سورة الانسان آية / ٩

(٦) تفسير القرطبي المجلد ٨ ص ٦٩٢١

(٧) في ظلال القرآن م ٦ ص ٣٧٨١ باختصار وتصرف يسير .

ومن كانت هجرته لدنيا يميها أو امرأة يتزوجها فهجرته صلى
ماهاجر اليه " (١).

وتبين الاحاديث الشريفة أن صلاح النية واخلص الضمير لرب العالمين
يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي فيجعلانه عبادة متقلبة لقوله صلى
الله عليه وسلم : " ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها
في في امرأتك " (٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم : " دينار أنفقت في سبيل الله ، ودينار
أنفقت في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقت على
أهلك أعظمها أجرا الذي أنفقت على أهلك " (٣).

* قيمة الاخلاص في الفرد والمجتمع :

للاخلاص قيمة عظيمة وفوائد جلييلة منها :

- (١) يجعل المولى عز وجل ينظر اليه ويثبتته على الطاعات لقوله صلى الله عليه
وسلم : " ان الله لا ينظر الى اجسادكم ولا الى صوركم ولكن الى قلوبكم (٤) . التي

(١) رواه البخارى في كتاب الايمان ، باب ما جاء أن الاعمال بالنية . ج ١ ص ١٢٦ من
فتح البارى ومسلم بشرح النووى كتاب الامارة باب قوله ، انما الاعمال بالنية
ج ١٣ ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) رواه البخارى في كتاب النفقات وفضل النفقة على الاهل ج ٩ ص ٤٣٨ من فتح البارى .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك
ج ٧ ص ٨٢

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله
ج ١٦ ص ١٢٠ - ١٢١ .

يستقر بها الهدى وينبع منها الاخلاص .

(٢) يسير له ربه جل وعلا النجاة مما يعترضه من المحن والمخاطر ودليل

ذلك قوله تعالى : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) . (١)

فنجاتهم الى البر هو كرم الهى من المولى عز وجل ، وربما لاعطائهم

فرصة لمراجعة أنفسهم ومن ثم الالتحاق بركب الايمان ، ولكنهم نسوا

فطرتهم السليمة ونسوا ما اضطرهم الى دعاء الله وحده مخلصين له

الدين وانحرفوا الى الشرك بعد الاقرار والتسليم . " (٢)

ودليله أيضا ما حدث للثلاثة أشخاص الذين اضطروا للمبيت فى غار

انحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فتوجهوا بالدعاء الى

الله بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم - نتيجة ما علم من اخلاصهم فيها -

وانزاحت الصخرة عن باب الغار فخرجوا . (٣)

(٢) يبلغه الله منازل الشهداء وان لم يجاهد ويقا تل على الحقيقة لقوله صلى

الله عليه وسلم : " من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء

وان مات على فراشه " . (٤)

(١) سورة العنكبوت آية / ٦٥

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٧٥١ بتصرف

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الرقاق : (باب قصة اصحاب الغار والتوسل

بصالح الاعمال) ج ١٧ ص ٥٥ - ٥٧

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الامارة باب استحباب طلب الشهادة ج ١٣ ص ٥٥ - ٥٦

* نواقض الاخلاص :

من أهم نواقض الاخلاص الرياء وسوء النية وذلك ما لا يريد المولى عز وجل من خلقه بل يريد منهم أن يعرفوه معرفة تامة وأن يقدروه حق قدره في السراء والضراء ، وأن يجعلوا الاخلاص متمكنا من نفوسهم بحيث لا يقصدون بعملهم غيره ايا كان ، أما اذا كانت نياتهم سيئة وخالطت اعمالهم المالحه استحالت تلك الاعمال الى معاصي يستحقون عليها العتاب الاليم لقوله تعالى : (قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) . (١)

فتأديتهم للصلاة هنا تأدية لحركات لاروح فيها ، ولا تجرد لله فيها بل أداؤها رياء ، ولم تترك آثارها في قلوبهم واعمالهم فهي اذن هباء ، بل هي اذن مصيبة تنتظر سوء الجزاء . (٢)

نوع من الشرك الذي يحبط العمل أو يجرح كماله بقدر تمكنه من النفس بقوله صلى الله عليه وسلم «اليسير من الرياء شرك» ولا نه كذلك فسوف يوكل الله عز وجل المرأئين - يوم القيامة - لاخذ جزائهم ممن حسنوا اعمالهم بسببهم .

يقول عليه الصلاة والسلام: " ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر

-
- (١) سورة الماعون آية / ٤ - ٧
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ص ٣٩٨٦ بتصرف
(٣) رواه الحاكم في المستدرک ج ١ / ص ٤ ، وقال هذا حديث صحيح ، ولم يخرج في الصحيحين ، وذكره الذهبي أنه صحيح لا علة فيه .

قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء" (١) .

ولكنه صلى الله عليه وسلم أرشدنا في حديث آخر أنه اذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم أطلع عليه

الناس دون قصد منه فاثنوا عليه وحمدوه وأعجبوه ذلك فثناؤهم لايحيط العمل ، بل قد يكون من المبشرات المعجلة له في الدنيا .

فعن أبي ذر أنه قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " تلك عاجل بشرى المؤمن " . (٢)

وبعد فالحديث عن الاخلاص يطول ويتشعب وما ذكرته ايضاح لبعض جوانب الاخلاص وما يتعلق به وما يناقضه ، وقد استعنت بما ورد في السنة لانها موضحة ومبينة لما أجمل في القرآن الكريم .

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ٤٢٨ وقال فيه الهيثمي رجاله رجال الصحيح : مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب ج ١٦ ص ١٨٩ ومسند أحمد ج ٥ ص ١٥٦ .

يقول تعالى : (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (١).

(٣) الفرق بين الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي في القرآن :

الوحدة الموضوعية تهتم بالاهداف والمقاصد لكل سورة ، فكل سورة من السور مشتملة على غرض أو أغراض متنوعة مستنتجة من موضوعات السورة التي بينها من الترابط والتناسق العجيب ما يعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله .

فاستنتاج الهدف أو الاهداف والمقاصد للسورة وربط بعضها ببعض هو ما نطلق عليه الوحدة الموضوعية للسورة ، والسورة أن يكون لها هدف واحد وموضوعات السورة تتعاقد لتحقيق ذلك الهدف ، وأما أن يكون للسورة أهداف أو مقاصد شتى وموضوعاتها تتحد لتحقيق تلك الاهداف .

أما ربط هذه السورة بهدفها أو بمقاصدها مع السورة التي قبلها والسور التي بعدها أيضا بأهدافها فهو ما نطلق عليه الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم .

أما التفسير الموضوعي في القرآن فيراد به جمع آيات القرآن المتفرقة في سورة - التي تتحدث عن موضوع واحد وتشارك في هدف واحد ، ثم

تناولها بالشرح والبيان مع الاحاطة التامة بكل

جوانب الموضوع والاستعانة في ذلك بما جاء في السنة .

اذ الوحدة الموضوعية تبين العلاقة بين موضوعات السور في

القرآن الكريم لتخدم الاهداف التي أنزلت من أجلها

- السور - وتكون أساسا لفهما .

أما التفسير الموضوعي فمهمته بيان العلاقة بين آيات القرآن

- المتفرقة في سوره - التي تتحدث عن موضوعات معينة وتشارك

في أهداف واحدة .
